محمد عصمت

الطبعة
9

رواية

ذاتويّ

AUTISTIC

ذاتَويّ

الكتاب : ذاتويّ

المؤلف : محمد عصمت

تصميم الغلاف : أسامه علام

تدقيق لغوي : دينا نسريني

رقم الإيداع : 2014/19212

الترقيم الدولي : 978-977-6436-83-1

الطبعة الأولى : 2015



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

ذاتَويّ

رواية لـ

محمد عصمت



شكر واجب لابد منه :

كان لهؤلاء الأشخاص فضلٌ على لمدةٍ تعدّت عامًا كاملًا هي مدة كتابة تلك الرواية تقريباً

لم يبخل عليّ أحدهم بمعلومةٍ بل و أمدوني بأكثر من طاقاتهم

شكرًا فلولاهم ما رأت تلك الرواية النور

(الخبير القانوني)

أ / محمد محمد عيد

(المعالجة النفسية)

د / داليا الباجوري

(أخصائية التربية)

د / ع

(رفضت ذكر إسمها)

مدير دار ن و أبي الروحي

أ / حسام حسين

مدير النشر بدار ن و أخي الأكبر

أ / هيثم حسن

شكرًا من القلب

نظرًا لأنني أتنفسها عشقاً

و لأنني أذوب بها ولهاً

و لأنها تحيا بداخلي

و أحيا بداخلها

و لأن عينيها سبيلي الوحيد للنجاة

و لأنني أحبها

وجب هذا الشكر و العرفان بالجميل

زوجتي الجميلة

شكراً

أخيرًا استجاب الباب للدفعات المستمرة التي يغمره بها كتف ذلك الجندي الذي اندفع للأمام و الباب ينهار تحت قدمه , تمالك الجندي أعصابه و استعاد توازنه و هو ينظر لضابطي الشرطة و هما يدخلان إلى الشقة , ساد الصمت إلا من صوت تنفس الجندي العالي النابع عن بذله لمجهودٍ بدنيٍ هائل , دلف الرائد " شريف " و خلفه الملازم " عمرو " شريكه إلى الشقة , توقف شريف و هو ينظر إلى الشقة و يتأملها بنظراته , كانت شقةً واسعةً تتميز بذوقٍ هادئ , من الواضح أنها شقة أسرةٍ لأن اللمسة الأنثوية حاضرةٌ و واضحة, كما أن الأثاث معظمه مازال بحالةٍ جيدةٍ جداً.

نقل شريف نظراته على الجمع الذي يقف خلفه منتظرًا إشارته ليدلفوا إلى الشقة و يقوموا بأعمالهم , قرر أن يبقيهم لدقائق أخرى فما حدث قد حدث و لا سبيل لتغييره ؛ كان يقف في الصالة التي تتصدر المشهد عند دخوله من باب الشقة , في مواجهة الصالة الفسيحة غرفة سفرةٍ تحتوي على منضدةٍ بنية اللون ذات تصميمٍ عربيٍ أصيلٍ منقوشٍ على حافته بضع كلماتٍ باللغة العربية لم يسمح له الوقت لمعرفة هل هي آياتٌ من الذكر الحكيم أم أنها مجرد أبيات شعرٍ أو حكمةٌ قديمة , تلمع تلك الكلمات ذهبيةُ اللون بفعل الضوء المنعكس عليها من النافذة المفتوحة و التي يدخل منها تيار هواءٍ باردٍ ترقص بسببه تلك الستارة البنفسجية اللون و كأنها تجامل أصحابها مجاملةً أخيرة, ست كراسي تراصّت بنظامٍ حول المنضدة التي تتوسطها

مزهريةٌ بها بضع وريداتٍ صناعيةٍ جميلة تتألق في دلالٍ و سحرٍ لا يناسب غموض الموقف , هناك أيضًا أريكة جلوسٍ و تلفازٌ ضخمٌ يدلّان على أن تلك الأسرة ميسورة الحال أو على الأقل كانت !

هناك على اليسار و في موازاة باب الشقة بابٌ أبيض اللون مغلق ؛ تحرك شريف أخيرًا متجهًا إليه و مدّ يده لكي يفتحه إلا أن نحنحةً منخفضةً من عمرو قد نبهته , مد يده في جيبه و هو يخرج منديله بعدم اقتناع و يفتح الباب به حتى لا يتسبب في إفساد البصمات , و إن كان يعلم جيدًا أنه ليس في نيويورك و أن تلك البصمات قلما تستخدم بل بالأحرى نادرًا جدًا ما تستخدم إلا إذا كانت القضية تخص الرأي العام أو أن أحد أطرافها لاعب كرة ، راقصة ، ممثلة أو سياسي !!

دلف إلى الممر الذي يؤدي إليه الباب , هناك مصباحٌ صغيرٌ ينير بلونٍ برتقاليٍّ باهت و يطغى ضوئُه الصناعيّ العجيب على كافة الموجودات ؛ شعر شريف بقشعريرةٍ و هو يقارن في رأسه بين هذا الضوء و بين النيران , رجفةٌ خفيفةٌ اجتاحت جسده , أفاق من مقارنته على طرقةٍ بسيطةٍ من عمرو على كتفه , التفت ليجد عمرو يضع يده على فمه في إشارةٍ للسكوت و هو يشير له بيده الأخرى على أذنه ... أنصت السمع حتى سمع صوتًا هادئًا يهدر بخفوت كأنه موتورٌ قديمٌ صدئ , و لكنه يكاد يجزم أن هذا الصوت يخرج من حنجرةٍ بشرية , كان الممر يحتوي على غرفتين على الجهة اليمنى , كلٌّ منهما بابها مغلق , و على بابٍ

مفتوحٍ في الجهة اليسرى يبدو منه المطبخ المظلم و الذي يحاول نور القمر المتسلل إليه من نافذةٍ زجاجيةٍ مغلقةٍ أن يضيئه بعض الشيء : مشى بهدوءٍ و هو يشير إلى عمرو و القوة المرافقة له بأن يلتزموا أماكنهم و أن يسمحوا للصمت أن يتلبسهم , مدّ يده بمنديله إلى مقبضِ أولى الغرف و هو يفتحها في بطءٍ شديد و يحاول قدر الإمكان أن يتمالك أعصابه أمام القوة - فهو أكبرهم رتبةً - أخيرًا انفتح الباب ليتأمل حمامًا أبيض اللون نظيفًا مرتباً, تأمله للحظاتٍ و هو يتابع بعينيه عبوات مستحضرات التجميل التي تتصدرها ماركاتٌ عالميةٌ و هي مصطفةٌ بانتظامٍ على حافة المرآة , أغلق الباب و هو يشير لعمرو إشارةً تحمل معنى أن تلك الغرفة نظيفة, باقٍ أمامه بابٌ واحدٌ قبل أن يدلف للمطبخ ... صوت الهدير يعلو باستمرار , تأكد أنه يصدر من المطبخ عندما وقف على باب تلك الغرفة و أصغى السمع فلم يسمع من داخلها صوتًا : أشار لعمرو بيده على أن الصوت ليس من داخل الغرفة فأشار له عمرو أنها الثلاجة القابعة في المطبخ , ربما تحتاج إلى إصلاح ... مطّ شفتيه في عدم اقتناعٍ و هو يمدّ يده إلى المقبض الرابض بصمت , و قبل أن يلمسه انقطعت الكهرباء : كلمةٌ غير واضحة المعالم اندلعت بسخطٍ من بين شفتي شريف و هو يُخرج هاتفه المحمول و ينير به ريثما أحضر له عمرو الكشاف الضخم الذي باتو يستعملونه مؤخرًا بعد تكرار أزمة انقطاع الكهرباء , ساد صمتٌ تامٌ ... إلا من الهدير الذي تيقن شريف أنه من المستحيل أن يصدر من أي جهازٍ كهربائيٍ الآن !

تراجع عمرو إلا أن شريف أمسك معصمه بقبضةٍ حديديةٍ و هو يشير له أنه سيدلف إلى تلك الغرفة معه , هزّ شريف كتفيه في تفهم و هو يشير للجندي أن يحضر له كشافًا آخرًا , فتح الكشاف و سلّط كلٌ منهما الضوء على الباب ... قرّر شريف أنه سيفتح الباب مرةً واحدةً ليستغل عنصر المفاجأة و تفهّم عمرو الأمر, الحديث كان يدور بينهما بإشاراتٍ لا يفهمها إلا رجال الشرطة , فَتح الباب و سلّط الرجلان الضوء على الغرفة التي أنارت بالكامل مع فتح الباب , تمنى الرجلان ألف مرةٍ أن يعود بهما الزمن للخلف و لا يضطرا لفتح الباب ... ما رآه كلاهما كان كفيلًا بتدمير استقرارهما النفسي لشهورٍ طويلة ناهيك عن الكوابيس البشعة التي ستلازمهما لفترةٍ كبيرةٍ من حياتهما : لم يتحمل عمرو فانتحى ركنًا و أخذ يقيئ في عنفٍ و شريف ينظر له نظرةً تختلط فيها الشفقة و الاحتقار, نظر شريف للهول الذي يواجهه في الغرفة مرةً أخرى و أخذ يتأمله و هو يقاوم بشدةٍ ألا يفقد الوعي تجاه كل تلك البشاعة , يتأمل المشهد الذي أوقن بداخله أنه لن ينساه ... على الأقل لفترة !

*****

وقف بهاء أمام شباك المطار و هو ينظر للموظف الذي ختم جواز سفره و التفت إليه بابتسامةٍ تنير وجهه و هو يقول بصوتٍ هادئٍ مهذب :

" حمدًا لله على سلامتك "

ابتسم بهاء و لم يرد , حمل حقيبته على كتفه و خرج من بوابة المطار, توقف بهاء أمام بوابة المطار و فكر للحظة أن يستنشق نفسًا كبيرًا ليتمتع بهواء الوطن بعد تلك الغيبة , و لكنه شعر أن هذا الأمر مبتذل ؛ لسعته شمس القاهرة فابتسم و شعر أنها تحييه بعد تلك الغيبة الطويلة , اقترب منه شابٌ أسمرٌ نحيل يرتدي قميصًا أزرق و بنطالًا قماشيًا أزرق اللون و إن كان قد بهت قليلًا من كثرة الاستعمال , كان يرتدي نظارةً شمسيةً تحمل إحدى العلامات التجارية الشهيرة و إن كان يظهر جليًا أنها ليست أصلية ؛ بإنجليزيةٍ كسيحةٍ تحدّث الشاب :

" hotel sir?? "

نظر له بهاءٌ و هو يردّ بصوتٍ منخفضٍ من بين أسنانه :

" لا أريد فندقًا ... أريد عنوانًا محددًا "

نظر له الشاب نظرة احتقارٍ و مشى و هو يغمغم بكلماتٍ ساخطةٍ قبل أن يناديه بهاء مرة أخرى :

" أليس للمصريين الحق في ركوب سيارات الأجرة هنا ؟؟ "

نظر له الفتى و هو يرد عليه بلهجة من يريد أن ينهي الحوار:

" لهم الحق و لكنهم لا يدفعون مثل الأجانب ... فدعني و شأني ."

أخرج بهاء من جيبه عملةً نقديةً خضراء و هو يلوّح بها في الهواء قبل أن يسرع الشاب إليه و يحمل الحقيبة من على كتفه و يحييه بابتسامةٍ واسعةٍ ظهرت لها أسنانه التي نخرها دخان السجائر فتحولت لما يشبه المعبد المهدم , فتح له باب السيارة و انحنى نصف انحنائةٍ أمامه , ابتسم بهاء و هو يقول :

" ألم أقل لك أنني مصري ؟؟ "

أجاب الشاب و هو يغلق باب السيارة و يسرع إلى مقعده :

" أنت مصري ... نقودك لا "

ابتسم بهاء فزادته ابتسامته وسامةً , تأمله الشاب في مرآة السيارة : شابٌ أبيض البشرة طويل الشعر منسقه , عيناه البنيتين و شعره المائل للون البني يصنعان معًا سحرًا يتناسب مع نظارته الطبية التي يرتديها , لحيته خفيفةٌ منمقةٌ و زيه نظيفٌ منسقٌ و متماشي الألوان بطريقةٍ مذهلة ؛ شعر بهاء أن الفتى يطيل التحديق به فحدثه و هو ينظر لمعطّر الجو الذي يتدلى من مرآة السيارة و قد خفَتَ لونه بسبب كثرة تعرضه للشمس :

" مصر جميلة "

أجابه السائق و نظراته على الطريق و هو يحاول أن يتجاوز السيارة التي أمامه :

" مصر جميلةٌ لمن يريد أن يراها جميلة "

هزّ بهاء رأسه موافقًا قبل أن يتابع الشاب :

" قلت لي أنك مصري و لكن لا يبدو عليك هذا ... حتى لهجتك قد تأثرت بمعيشتك في الخارج ... إذا لم تعتبره تطفلًا ... منذ متى أنت تعيش في الخارج ؟ "

ابتسم بهاء و هو يقول :

" و لماذا أصبحت مصر هي الداخل و الباقون هم الخارج ؟؟ إنه تلاعبٌ بالكلمات و لكني أعتبر أنه تقليلٌ من قيمتها و عمومًا في إجابةٍ على سؤالك : أعيش في الخارج منذ ما يقارب العشرين عامًا و لم أقضِ في مصر سوى السنوات الأولى فقط من عمري و لكنني عدت أخيرًا "

" لماذا ؟؟ ألا تعرف أن نصف شباب مصر يطمح لمغادرتها بلا رجعة ؟ "

".كل من يريد أن يتخلى عن وطنه مهما كانت محنته أو أزمته لا يستحق أن يحيا على أرضها ... فليسافر و ليرى كيف يتعامل الآخرون مع أي شخص خارج وطنه و ليقرر بعدها كم سيتحمل قبل أن يتمنى عودته هنا "

مطّ السائق شفتيه و هو يقول :

" كلام كبير ليس لأمثالي القدرة على فهمه و لكنني طامح يا سيدي أن أعرف لماذا عدت بعد تلك المدة؟ "

بدا و كأن بهاء لم يسمعه و هو يفتح حقيبته و يتأمل الموجود بداخلها و هو يتمتم :

" أتعرف ... لقد كلفتني تلك الحقيبة مبلغًا وهميًا سواء في شراء مقتنياتها أو في تمريرها عبر المطار "

تأمل بعينيه محتويات الحقيبة و عيناه تلتمعان بشهوةٍ غريبة ... تأمله السائق للحظةٍ قبل أن يغمغم في سخطٍ و هو يتابع الطريق بعينيه.

*****

جثة رجل شابٍ تجاوز الأربعين سنةٍ مشقوقةٌ طوليًا و أمعاؤها بالكامل تتدلى منها و إن كانت ممزقةً بوحشيةٍ غريبة , هناك خطوطٌ حمراءٌ على الرقبة و الوجه و على الصدر بالعرض قبل أن يشق طوليًا , يبدو أن القاتل كان يتسلى بتعذيب الرجل قبل أن يقتله , إحدى عينيه غير موجودةٌ في محجرها و إن لم تحتجْ لبحثٍ لتدرك أن تلك المادة البيضاء الموجودة في فم الرجل هي عينه المفقودة , أذناه غير موجودتان على الإطلاق , كفّ يده اليمنى يفتقد إصبعًا , ضلوعه العارية مكسورةٌ بينما ينغرس قلبه لآخره في أحد تلك الضلوع و قد تخلى عن شرايينه : جثة الرجل بكل البشاعة الموجودة فيها كانت

أرحم كثيرًا من جثة المرأة , لا داعي لذكر ما رآه شريف و لكن الأمر الغريب أن الدماء وصلت حتى السقف , غطّت الحوائط , الغطاء الأبيض امتزج بياضه بحمرة الدماء .

مدّ شريفٌ يده ليغلق الباب مرةً أخرى و هو يربّت على ظهر عمرو الذي كان يحاول أن يتمالك أعصابه و هو يهتف :

" سيدي ... هذا ليس من فعل بشر!! "

هتف به بحنق :

" عمرو ! ... تمالك ... أنت لست بصغير"

" سيدي أنت تعرف جيدًا صحة ما أقول "

أمسكه من يده و جذبه بعيدًا عن القوة التي تراقبهما بأعينٍ مندهشة , فهم لم يروا بعد ما بداخل الغرفة ؛ وقف شريف أمام عمرو و هو ينظر له نظرةً ناريّةً و يهتف به في لهجةٍ حاول أن يجعلها قاسيةً إلا أنه اندهش عندما سمع صوته و قد امتلأ بالحنو:

" عمرو ... أنت ضابط ... أنت أقدمهم رتبةً و أعلاهم شأنًا ! يجب أن تتماسك أمامهم ... لو فقدت أعصابك سينهار الجميع. "

نظر له عمرو و اغرورقت عيناه بالدموع :

" أنت رأيت ما بالداخل ... أرجوك أخبرني أنه يقترب من فعل البشر "

نظر شريف للأرض و عبث بحذائه في طرف السجادة المفروشة و هو يجيب :

" و لو ! يجب أن تتماسك "

" سيدي !! "

نظر له شريف و شعر أن الخوف و الرعب يرقصان معًا رقصةً بطيئةً بداخل قلبه و هو يجيب :

" أعلم !! ... و لكن .... "

قطع شريف كلماته و هو ينصت السمع , لقد زادت حدّة الصوت الذي يصمم أن يهدر بعنفٍ رغم الظلام الذي تلبس الشقة , أشار لعمرو أن يتبعه , تردد للحظاتٍ إلا أن نظرةً ثاقبةً من شريف جعلته يحسم أمره و هو يتبعه بأرجلٍ متهالكةٍ من التوتر , كانت يده تهتزّ بالكشاف مما سبب الكثير من الخيالات على الجدران , لم يحتمل شريف هذا التوتر , كزّ على أسنانه و هو يختطف الكشاف في حركةٍ سريعةٍ من يد عمرو المرتعشة , أمسك الكشاف إلا أن قبضته كانت مليئةً بالعرق البارد الناتج عن توتر عمرو , أشار للجندي الذي أتى و هو يعطيه الكشاف و يشير له أن يتقدمهم , نظر له الجندي بدهشةٍ و هو يسأل نفسه : ((منذ متى يتقدم الجنود على الضباط ؟؟))

هنا لم يجد عقله البسيط إلا تفسيرًا واحدًا : سيواجه كارثةً و هم دفعوا به للمواجهة كي يتلقاها بدلًا منهم ؛ بدأ عقله البسيط الساذج يستعيد ذكريات الفيلم المرعب الذي شاهده في تلفاز المقهى القذر الموجود في بداية قريته عندما كان في إجازة , كان يجلس على المنضدة و بيده كوبٌ متسخٌ من الشاي و عيناه معلقتان على الشاشة , كان البطل يتقدم في ذلك الممر المظلم و هناك سائلٌ لزجٌ أخضر يتساقط من الجدران ما هو إلا دم تلك الوحوش الكريهة التي ظلت تهاجمه باستمرار , كان يحمل بيده سلاحًا متقدمًا و على بدايته كشافٌ صغير , صوت التنفس الحادّ الذي يشق الهواء بثقله كان يتردد في أذنيه , الغريب أنه كان يسمع صوت التنفس الثقيل كأنه ينادي باسمه !!

" مسعد ... مسعد ... مسعد !! "

أفاق مسعد من خيالاته على صوت شريفٍ و هو يهتف فيه بصوتٍ خافتٍ و إن ظهرت فيه الحدة و الغضب :

" ما بك تسمرت مثل التمثال ؟؟ تقدم يا فتى! "

انتصب جسده و هو يهتف بصوتٍ خافتٍ أيضًا :

" أمرك يا سيدي "

قبل أن يتحرك لم ينسَ أن يجول بضوء الكشاف على الجدران خمرية اللون ليتأكد من خلوها من ذلك السائل اللزج الذي رآه في خيالاته ؛

تقدم نحو باب المطبخ في خطواتٍ بطيئةٍ و هو يستمع لصوت الهدير يتصاعد , نظر مسعد لشريف الذي يتقدم خلفه و قد اتخذ وضع الهروب مقدمًا , مؤخِرًا نفسه عن مسعد عدة خطوات و مائل الجسد مستعدًا للركض بينما يده اليسرى على جراب مسدسه الذي يتدلى و قد ثبّت يده عليه : نظر مسعد أمامه و هو يقترب من الباب , وصل أخيرًا إليه , استند بظهره على الحائط البارد بجسده المليء بالعرق , شعر أن برودة الحائط تمد جسده بالسَّكِينة , ثبت على هذا الوضع قبلهٰ أن يعطيه شريف الإشارة : قرأ الشهادتين و آية الكرسي قبل أن يعتدل بجسده و هو يدخل إلى المطبخ إلا أنه تسمر و قد فغر فاه من الدهشة !!

تجمد المشهد لدقيقةٍ كاملة , حتى القلوب توقفت عن الدقّ و الدماء تجمّدت في العروق , ظهرت علامات الهلع على وجه عمرو مختلطةً بإمارات الصدمة : القوة المرافقة له تشبثت أعينها بمسعد الذي تجمد مكانه و يده تهتز بعنفٍ غير مبرر , فمه متسعٌ على آخره و عيناه تكادان تخرجان من محجريهما , رأى شريفٌ الكشاف يسقط أرضًا من بين يدي مسعد الذي اتسعت قبضته عليه و مازالت عيناه تصرخان من الدهشة بصوتٍ لا تسمعه إلا القلوب الخائفة ... تحرك ببطء ... أعطى عمرو الكشاف الذي يحمله , تناوله الأخير بحركةٍ آليةٍ و هو لا يرفع عينيه من على مسعد , أخرج مسدسه من جرابه و أحكم قبضته عليه , حرّر زر الأمان و هو يثبت إصبعه على الزناد , جرى بخطواتٍ

سريعةٍ حتى وصل لمسعد و عندما اقترب منه ترك قدميه تتحركان على البلاط الأملس ... يكاد يكون يتزلج بجانبه , عدّل وضع جسده لكي يواجه الباب بينما دفع مسعد بجسده من موضعه ليبعده عن إطار الباب , مد يديه أمامه مفرودتين و قد انثنت قبضته على المسدس بينما تشنجت باقي عضلات جسده و هي تعلن التوقف أمام الباب , للحظة أخرى تأمل المشهد على آخر ضوءٍ للكشاف المحتضر قبل أن ينطفئ ضوء الكشاف ... للأبد !!

و يعلو صوت الهدير معلنًا بداية لغزٍ جديد !!!

*****

فتح شريف عينيه و هو يتأمل الطبيبة التي تجلس أمامه , كانت تريح ساقها اليمنى فوق يسراها و هي تمسك بذلك القلم الذهبي من طرفه و تنقر به طرف المنضدة بانتظامٍ ممل : نظر لها للحظةٍ قبل أن يعتدل على الشيزلونج و يجلس و هو يواجهها , حاول أن يمدّ يده ليمسك القلم ليمنعه من إصدار ذلك الصوت الرتيب إلا أنها أبعدت يدها و لم تنسَ أن تواصل النقر, ظهرت على وجهه علامات الضيق و هو يتأمل شعرها الباذنجاني القصير الذي يحيط بوجهها كهالة من ضوءٍ أرجواني اللون و لكنها امتصّت ضيقه بفعل سحر جمالٍ كان و لا يزال موجودًا أضاء وجهها , عيناها الرماديتان اللتان تخفيهما نظارةٌ أنيقة تتناسبان طرديًا مع حمرة وجنتيها البيضاوين , كلما ازداد بريق الجمال

في عينيها ازدادت معه حمرة خدودها بشكل يثير القلوب , فكر في نفسه : ((لابد أنها كانت فاتنةً عندما كانت أصغر))

لاحظ ابتسامةً رقيقةً تتراقص على شفتيها المكتنزتين و اللتان لم تنس طلاءهما بلون التوت المحمر ليضفي عليهما شهيّةً غير طبيعية ... فكر مرةً أخرى : ((تبًا لتلك المرأة))

أدار وجهه و هو يتأمل الكتب التي تطل من المكتبة ... فاجأته بصوتٍ مبحوحٍ مختنق بالدلال و الغنج بالسؤال :

" ما بك ؟ "

نظر لها بدهشةٍ و هو يتساءل هل سمع صوتها بدلالٍ لأنها تعمدت هذا أم أنها تتلاعب به ؟ قرر أن يختبرها و يختبر نفسه فأجاب سؤالها بسؤالٍ آخر:

" ما بي ؟ "

ابتسمت مرةً أخرى و لم ترد ففكّر في صمت : ((تباً! إنها تزداد جمالًا ... و تتلاعب بي))

قرر أن يبادرها بالهجوم قبل أن تنكسر حصون قلبه و خطوط دفاعه الأخيرة أمام هجمات جمالها الأخاذ :

" لماذا تبتسمين ؟ "

" هل تعلم أن هناك عدة ألوانٍ أخرى من صبغة الشعر و عدسات العيون ؟؟ و علاماتٌ تجاريةٌ أخرى من أحمر الشفاه و أحمر الخدود و الماسكارا تضفي جمالًا كاذبًا على النساء ؟؟ "

" هل تقصدين أنكِ صبغتِ شعرك و ترتدين عدساتٍ لاصقة ؟ "

" هل تعتقد أنني سأهدم هذا الانهار بإجابتي على هذا السؤال ؟؟ "

أمسكت خصلةً من شعرها و هي تلفها على إصبعها و تقول :

" ربما ... و ربما "

تعلقت عيناه بشعرها و يدها , عيناها أخذتا روحه على حين غرةٍ لتلقي بها في بئرٍ عميقٍ بلا قاع , و عندما وصل لقاعه فوجئ بقلبه يرقص مع قلبها في بركةٍ مليئةٍ بالحب و الرومانـ...

قاطعه صوتها :

" أنت لا تحبني ... أنت في حاجةٍ للعاطفة ... من فضلك ... أنت هنا لتتخطى مرحلة التأهيل النفسي لا لتغازلني "

فجأة تنبه إلى أن قلبه لم يسقط في بركة حب ... بل سقط في بركةٍ من الماء البارد , انتفض جسده و هو يعود لينام على الشيزلونج و يغمض عينيه مرةً أخرى ؛ استعادت عادتها في النقر بالقلم , تحدث و هو مغمض العينين بينما يشبك أصابع كفيه على صدره :

" أنت تعلمين أنني أكره هذا الصوت ! "

" و أنت تعلم أنني أكره صمتك "

فتح عينيه و تجهّم وجهه و هو يتفادى النظر لعينيها :

" ماذا تريدين مني أن أفعل ؟ "

أجابت و قد توقفت عن النقر و بدأت تشعر أنها تنجح :

" قصّ عليّ ما حدث."

أجاب في عنادٍ كعناد طفلٍ تعاقبه أمه :

" لا أريد "

" ستقصّ ... أنت تعرف بأن تلك القضية قد أُغلقت منذ ما يقرب من عامٍ كامل ... يجب أن تستقر نفسيًا كي تستكمل مسيرتك المهنية "

نظر لعينيها و أهدابها التي تألقت الماسكرا السوداء في رسم أعتى خطوط الإغراء عليها بينما الكحل الأسود يرسم عيناها كما لم يرَ من قبل و هو يحكي ..

يحكي لأول مرةٍ في حياته ..

*****

ساد الظلام التام إلا من ضوء الكشاف الذي يمسكه عمرو و يقف مكانه في وسط القوة , صوت الهدير يعلو ؛ اقترب عمرو بخوفٍ و هو يحاول أن يطمئن نفسه لكن هيئة شريفٍ الذي يقف ثابتًا و قد تسمر جسده لم تطمئنه بل بثّتْ في قلبه من الرعب أطنانًا لا حدود لها , وصل لما قبل باب المطبخ , ما زال صوت الهدير يعلو باستمرارٍ حتى لتعتقد أنه لن يتوقف و لن ينتهي ؛ مدّ يده بالكشاف و ربّت على ذراع شريف الذي يقف في الظلام وحيدًا , لا يزال مسعد ملقًى أرضًا و إن اعتدل ليجلس و هو يتابع المشهد بصدرٍ يعلو و يهبط بسرعةٍ مخيفةٍ من الانفعال , لم يتحرك شريف , ربّت عمرو مرةً أخرى على ذراعه قبل أن يتحرك شريف للمرة الأولى منذ تجمّد المشهد , نظر لعمرو بعينين حمراوتين من الانفعال , شفته السفلى ترتجف في انفعالٍ لم يحاول إخفاءه ؛ مدّ يده و هو ينظر لعمرو بصمتٍ منفعل و هو يفتح عقدة ربطة العنق و يفتح الزرّ الأعلى من القميص , الياقة البيضاء التي تلتطخت بلونٍ أصفرٍ باهتٍ من العرق , حنجرته التي ترتجف بخوفٍ و هو يبتلع ريقه , صدره العريض الذي توقف عن الاهتزاز ؛ مدّ عمرو يده بالكشاف لشريف الذي تناول الكشاف و هو يوجه بقعة الضوء البيضاء إلى منتصف أرض المطبخ ؛ صوت الهدير يتحول ببطءٍ لما يشبه الزمجرة , نظر عمرو بطرف عينه و كأنه لا يجسر على النظر لما تشير إليه دائرة الضوء عندما وقعت عينه على المشهد لم يعد يدري ما هو رد الفعل المناسب المفترض أن يشعر به ... أهو الخوف ؟؟

الشفقة ؟؟

الحنان ؟؟

الرعب ؟؟

النفور ؟؟

كلها مشاعر و أحاسيس اجتاحت قلبه في تلك اللحظات القليلة التي تبعت رؤيته للمشهد , طفلٌ صغيرٌ تعدّى الثلاث سنوات يجلس أرضًا و قد ثنى إحدى قدميه أسفله و الأخرى مفرودةٌ أمامه , يرتدي زيًا مكونًا من قطعةٍ واحدةٍ أزرارها من الخلف كي لا يستطيع أن يخلعها أثناء عبثه , شعره البنيُّ المائل للون الأصفر يلتمع تحت أشعة الكشاف, يضع يديه على أذنيه كما لو أن ضوضاء الكون كله تطارده بينما يغلق عينيه بعنف , هال عمرو طريقة إغلاقه لعينيه : شعر عمرو هنا بالحيرة , ما الذي يدفع طفلًا في مثل هذا العمر لاتخاذ هذا الوضع الدفاعي ؟؟

ما الذي رآه أو سمعه ليغمض عينيه و يسد أذنيه هكذا ؟؟

كان الطفل يغلق فمه بعنفٍ بينما ينبع الهدير من داخله , يصرخ و لكنه مغلق الفم , كل ما مرّ من ملاحظاتٍ كان عاديًا لحدٍ كبير ... الأمر العجيب أنه يتأرجح بجسده الصغير للأمام و للخلف في سرعةٍ كبيرة ,

يرتجّ بعنفٍ كما أن لو أن هناك ما يسيطر عليه و يدفعه لتكرار تلك الحركة بلا توقف.

تبادل شريف و عمرو النظر بدهشةٍ بالغة ... نظرات الأعين تحمل آلاف الأسئلة بلا إجابة

من الذي قتل الرجل و المرأة الموجودين بالداخل ؟

كيف مُثِّل بجثتهم هكذا ؟

لماذا لم يلقَ الطفل نفس المصير؟

السؤال الأخير لم يلقَ إلا جوابًا واحدًا في قلب كلا الرجلين , نظرا تجاه الطفل بخوفٍ و شريف يتراجع خطوةً للخلف : عمرو كالعادة يشعر بالوهن و الضعف , نظر شريف لمسعد مرةً أخرى و هو يشير له بيدٍ يغتصبها الارتجاف الذي لم يحاول منعه , الهول أكبر من أن يتم إخفاؤه : حاول مسعد أن يعتدل إلا أن رجفةً خفيةً جعلته يترنح للحظةٍ قبل أن يستعيد توازنه , بالطبع لم يرَ مسعد إلا لمحةً بسيطة إلا أنها كانت كافيةً لإثارة الرعب و الفزع في قلبه , مدّ يده ليتناول الكشاف إلا أن شريف أشار له بالدخول من دونه , نظر له نظرةً أخيرةً قبل أن يتحرك لداخل المطبخ : لا يزال الطفل يُصدِر هديره المصحوب بزمجرةٍ متزعجة , كان قلبه يرتجف و هو ينحني على ركبتيه أمام الطفل , نظر للخلف إلا أن النظرة الجامدة على وجه شريف و ملامح

وجه عمرو المنقبضة لم تكن مشجِّعةً على الإطلاق , مد يديه المرتجفتين إلى جوار الطفل ؛ كاد يحتضنه و يحمله إلا أن هاجسًا خفيًا بداخله أوحى له بلمسه في البداية ... مجرد لمسةٍ بسيطةٍ ينبهه فيها إلى أنه هنا ؛ بمجرد أن لمس كتف الطفل صمت الطفل تمامًا , ساد الصمت المكان مخلّفًا إحساسًا غريبًا للآذان التي تعودت على سماع صوت الهدير , توقف جسده أيضًا عن الاهتزاز, جمودٌ تامٌ ساد الأجواء , و كما لو أن الوضع مُعدٍ تجمد جسد مسعد ، شريف و عمرو تمامًا في انتظار ما سيحدث ... و ليتهم لم ينتظروا !

ليت مسعد لم يمَسّه !

فتح الطفل عينيه بعنفٍ و هو يتأمل الجدار الموجود أمامه قبل أن يفتح فمه عن صرخةٍ مريعة , لم يكن هذا هو المرعب و إنما كان فمه !

فمه و أسنانه التي امتلأت بالدماء الحمراء القانية !

*****

اعتدلت الطبيبة و أنزلت منظارها على قصبة أنفها و هي تتأمل تهدَّجَه عند ذلك المقطع : تعمد عدم النظر في عينيها و هو يهرب بعينه إلى المكتبة يتأمل العناوين على كُعوب الكتب , فاجأته بصوتٍ هادئٍ رخيمٍ دغدغ مشاعر فزعه لتقرّهاربةً و هي تقول :

" و لكن التحاليل أثبتت أنها لم تكن دماءً "

التفت في سرعةٍ و عيناه تنثران قطرات الغضب لتحرق هدوءها :

" لا شأن لي بالتحاليل "

حاولت أن تمتصّ غضبه و هي تنظر لعينيه في تركيز:

" أخبرني ما هي الطريقة التي تثق بها تمام الثقة "

أجابها بصوتٍ بدأ يشوبه بعض الهدوء :

" لا أثق إلا بعيني، فما رأيت يومها لا يُنسى "

ابتسمت ابتسامةً ساحرةً كشفت عن صفٍ أبيضٍ مستوٍ من الأسنان المرمرية و هي لا تزال تنظر في عينيه :

" حسنًا قصّ عليّ ما حدث بعدها "

مطّ شفته و هو يقول بعناد :

" لا أريد "

" أعلم أنك لا تريد "

نظر لها بغضبٍ قبل أن تتبدل ملامحه فجأةً للخوف و هو يقصّ عليها ما حدث :

" صرخ الطفل بعنف ... كان فمه و أسنانه مليئين بالدماء الحمراء ... رأى مسعد مظهره فصرخ هو الآخر"

قطع كلماته و هو ينظر إليها و يهرب بعينيه للمرة الثانية :

" هل تتخيلين منظر جنديٍ قويّ الجسد طويل القامة صعيديّ النشأة يصرخ و هو يبكي قبل أن يتبول في سرواله !!"

لم ترد و إنما هزت رأسها إليه بإشارةٍ معناها استمر و لا تقطع حديثك , نظر لها و هو يتمتم بكلمةٍ ساخطةٍ بصوت خفيضٍ و يستكمل .

" تراجع مسعدٌ للخلف في سرعةٍ و ارتباك قبل أن يتعثّر فسقط أرضًا, استند على الأرض بيديه و هو يتراجع زاحفًا للحظاتٍ قبل أن يستسلم أمام الصرخات و هو يبكي ؛ فكر كثيرًا في تلك اللحظات , إن من يواجه الموت يقول بأنه يرى حياته كشريطٍ سينيمائيٍ أما من يواجه الخوف ، الرعب ، الفزع , فيختلف الأمر معه ... الأمر يشبه أن ترى لقطاتٍ ثابتة , تكاد لا تتحرك حتى لتصيبك الحيرة هل هي تتحرك أم أنها ثابتة, و قبل أن تأتيك الإجابة تُفاجأ بأنك انتقلت للقطةٍ أخرى , كل هذا يحدث في خِضَمِّ ثوانٍ معدودة ؛ رأى مسعد وجه أمه العجوز في بلدتهم الريفية تجلس أمام مخبزٍ حجريٍ تخبز الخبز و تفرّ من عينها دمعة اشتياقٍ لولدها المجند....

رأى فتاته و هي ترتدي جلبابًا ورديّ اللون و تجلس حزينةً تفكر فيه ..

رأى أصدقائه يجلسون على المقهى يفتقدونه...

و الأهم ... رأى نفسه !

رأى لقطاتٍ من طفولته ... شبابه ... تجنيده ... قصة حبه ... حب أمه له

قبل أن يفيق ليجد الطفل قد صمت تمامًا , استعاد وضعه السابق و انهمك في تلك الحركة الغريبة و لكن بدون أن يهدر هذه المرة , استعاد مسعد وعيه مرةً أخرى و كأنه كان غائبًا عن الوعي , تراجع بفزع زاحفًا دون أن يرفع عينيه , شعر بيد شريف توضع تحت إبطه , انتفض جسده بعنفٍ و حاولت روحه أن تفرّ إلا أن أوانها لم يحِن , التفت بعنفٍ ليجد عمرو و شريف يساعدانه , ترك لهما جسده ليساعداه على أن يقف على قدميه , وقف ينظر لهما للحظاتٍ و هو مذهولٌ غير فاهم ... شكّوا للحظةٍ أن يكون قد فقد عقله من أثر الصدمة إلا أنه أخيرًا تحرّك و بدى أنه شعر بالسائل الدافئ الذي بلل بنطاله فنظر أرضًا بخجلٍ قبل أن يربّت شريفٌ على كتفه و هو يهمس له :

" لا بأس ... أنت أشجعنا جميعًا "

تركه و تحرّك حتى وصل للحائط , أسند جبهته على الحائط و دفن وجهه بين يديه و هو يبكي بعنف , حاول عمرو أن يهدئه إلا أن شريف منعه ... كان يعلم جيدًا أنه يحتاج لهذا الأمر ."

نظر لها شريف مرةً أخرى و على شفتيه ابتسامةٌ تخبرها : ((لقد أنهيت ما عندي)) ... فبادلته الابتسامة بأُخرى من طراز ((ما زال هناك المزيد))

صمت للحظاتٍ و هو يفكر في الأحداث و يتخيلها مرةً أخرى قبل أن يزفر بعمق و هو يدرك أخيرًا أنه تحت براثنها و لا مجال للهروب منها , يجب أن يستكمل إذا أراد أن يظفر بحريته منها ... لا سبيل آخر ... فليقصّ !

ابتلع ريقه بصعوبةٍ و هو يهرب بذاكرته لذلك اليوم .

ما بين باقي القوة المصاحبة لهما التي تتراجع خوفًا مما لم ترَ و لكن آثاره واضحةٌ بيّنةٌ أمامهم و بين مسعد الذي يبكي على الحائط و جسده يهتزّ و هو ينشج بعنف و عمرو الذي ينظر لشريفٍ في خوف , أصابته الحيرة و لم يدرِ ما العمل ها هنا , الغريب أن شريفًا أُسقط في يده و لم يعد يفكر بمنطقية , و أيُّ منطقيةٍ بعد ما رأى بأم عينيه , قرر أخيرًا أن يلجأ لشيءٍ طالما هرب منه , يجب أن يطلب العون من رئيسه المباشر و هو ما لا يفضّله لاعتباراتٍ عدّة , أخرج جهاز اللاسلكي الخاص به و خاطبه فلم يُجب , خمن أنه الآن في منزله و ربما يكون نائمًا , لا مفر سوى أن يصل له عن طريق هاتفه المحمول ... أخرجه من جيبه و أخذ يبحث في أرقامه حتى وجد ضالّته ... صمتَ قليلًا حتى جاءه الرد من الجهة المقابلة فبدأ يتحدث .

*****

صوت رنين الهاتف يشقُّ صمت الليل و يغتصب هدوءه , تقلّب العقيد كامل في فراشه يحاول منع الصوت المزعج من اقتحام عالم أحلامه إلا أنه فشل , قرر أن يتركه حتى يصمت إلا أن زوجته اعتدلت على الفراش و هي تضيء الغرفة : اعتدل و هو ينظر لها لتبادله النظر بعيونٍ ذابلةٍ من قلّة النومِ تحمل نظرةً لائمة , خرج من تحت الغطاء بصعوبةٍ و قدماه الدافئتان تصرخان عندما صافحتا الأرضية الباردة , حمل هاتفه و نظر للإسم للحظات قبل أن يطلق سبةً مستترةً و هو يخرج من الغرفة و يغلق بابها خلفه قبل أن يرى ضوءها يُغلق و زوجته تتمتم ببضع كلماتٍ و هي تستسلقي لتستكمل نومها .

أغلق الباب خلفه قبل أن تتبدل ملامحه للامح أكثر صرامة و هو يضغط زر استقبال المكالمة و يهتف بصوتٍ غاضب :

" أرجو أن يكون الأمر يستحق يا سيادة الرائد! "

أتى صوت شريف مهزوزًا :

" الأمر يستحق يا سيدي .. أنت تعلم أنني لن أزعجك دون سبب "

صاح به بلهجةٍ آمرة :

" هل تنوي أن تخبرني بسبب اتصالك ! "

اهتزّ صوت شريف مرةً أخرى ... صمت للحظاتٍ قبل أن يأتي صوته مصحوبًا بصوت بكاءٍ خافتٍ في الخلفية :

" أنت تعلم أننا اتجهنا للتحقيق في بلاغٍ عن جريمة قتلٍ لزوجين ... و بالفعل دخلنا إلى الشقة و لكن الضوء قد .... "

" شريف !!! "

" سيدي باختصار, الجثث ممزقةُ شر تمزيق و معاملةٌ معاملةً غير آدمية و على وجهها أعتى علامات الرعب و الهلع و ..... "

" باختصار يا شريف ... ليس هناك قاتلٌ أو ما يدل على القاتل فقررت أن تُعزي الأمر للخوارق و أننا أمام أمرٍ غامضٍ يتعلق بالماورائيات ... أليس كذلك ؟؟ "

" .... "

" يجب أن تمتنع عن قراءة الروايات و مشاهدة الأفلام الخيالية لكي تتعلم كيف تتعامل مع الواقع "

" .... "

" بالطبع لا تجد ما تقوله ... اسمعني جيدًا يا سيد شريف ... "

" إسمعني أنت يا سيادة العقيد! أمامي الآن جثتان مهترئتان و ممزقتان شر تمزيق , لا وجود للضوء , التيار الكهربائي انقطع ... ليس هذا فقط ... القوة المصاحبة لي لو سمِعَتْ مواء قطةٍ مفاجئٍ لسقطت صريعة , بجواري جنديٌّ يبكي بعنف و ضابط شرطةٍ يرتجف كنبتةٍ صغيرةٍ في مواجهة إعصار , أمامنا طفلٌ صغيرٌ تعدّى الثلاث سنواتٍ بقليل يهدر

بعنفٍ كما لو أنه آليّ و فمه و أسنانه مليئةٌ بالدماء ... أعتقد أنني أعرف جيدًا الفارق بين الواقع و الخيال !! "

" ماذا تقول !! "

" كما سمعتني يا سيدي ... الآن أنا عاجز , لا أعرف ماذا سأفعل أو كيف ساتصرف فلجأت لك ... لا لتلومني و تشرح لي محاضرةً عن الواقع و الخيال و لكن لتنجدني أنا و القوة المصاحبة لي قبل أن تجدنا كالجثث الموجودة هنا"

" إثبت كما أنت سآتي لك فورًا و سأُحضر قوةً مصاحبةً معي ... أعطني العنوان بالتفصيل "

أمسك ورقةً يكتب فيها العنوان الذي يمليه عليه شريف قبل أن يُغلق الهاتف و هو يهزّ رأسه بعنفٍ ليتأكد أنه لا يحلم و هو يدخل غرفته و يضيئها و يبدل ملابسه بالرغم من الأصوات المحتجّة التي تصدرها زوجته إلا أن لم يعرها اهتمامًا و هو يفكر في كلمات شريفٍ الغامضة .

*****

للحظةٍ شعر أن العالم بالكامل يتوقف من حوله و هويراقب الجثث بعينين ترتعدان من الخوف , نظر لشريفٍ و هو يغمغم بكلمةٍ لم يسمعها شريف جيدًا ؛ اقترب منه و هو يميل بجسده كي لا تتلاقى عيناهما و الأهم ألا يرى هذا المنظر البشع مرة أخرى :

" ماذا تقول يا سيدي ؟؟ "

" هل وجدت الجثث في تلك الحالة ؟؟ "

" لم أمسسهم يا سيدي ... بل تحديدًا لم يدخل أحدنا إلى الغرفة "

" رحماك يا إلهي ! "

" سيدي هل تسمح لي ؟ "

كان شريف يشير بيده تجاه باب المطبخ و هو يسبقه بخطوات , لم يملك كامل إلا أن يتبعه , اختطف نظرةً صغيرةً على ذلك المشهد الدموي الذي يحتل الغرفة قبل أن يشير لإثنين من رجاله أن يتولوا الأمر و ذهب ليتبع شريف , وصلا إلى المطبخ , نظر كامل من حوله ليجد عمرو يقف مهتزًا مرتعدًا و مسعد منتفخ العينين أحمرهما , نظرةٌ متسائلةٌ وصلت لعيني شريف فردّها بنظرةٍ أخرى من طِراز ستعرف حالًا ... توقف شريف و سمح له أن يدخل للمطبخ ليرى مشهد الطفل و هو لا يكف عن الحركة برغم مرور الوقت , نظر للطفل بما فيه الكفاية قبل أن يخرج من الغرفة و ينتحي بشريف جانبًا و هو يقول :

" ماذا يحدث ! "

على مدار عشر دقائق سرقهم شريف من الزمن قصّ لقائده كل ما حدث بالتفصيل و هو يتابع تهدّج أنفاسه قبل أن يختم حديثه و هو يتأمله و ينظر له بعينين لا تصدقان ما يحدث ؛ صمت كاملٌ للحظةٍ و هو يزفر بعمقٍ قبل أن يقول:

" يجب أن تنتقل الجثث للتشريح و يُنقل الطفل لمصحةٍ نفسيةٍ لدراسة حالته قبل أن نسمح لأحدٍ من أقاربه أن يأخذه "

" حسنًا ... سأتخذ الإجراءات اللازمة "

" شريف "

" نعم يا سيدي "

" التزم الصمت أنت و رجالك كي لا يزداد الموضوع سوءًا ... هل تفهمني "

" أفهمك جيدًا يا سيدي "

" سأنصرف الآن ... اطمئن على كل شيء ثم اتبعني إلى مكتبي ... أمامنا يوم طويل "

هزّ شريفٌ رأسه بالإيجاب قبل أن يؤدي التحية العسكرية و ينصرف ليتابع العديد من الرجال و كلٌ منهم منهمكٌ في عمله ؛ نظر للطفل نظرةً غامضةً قبل أن تتبدل ملامحه للحظةٍ و هو ينظر للطفل بعينين

تحتويان صراعًا محتدمًا بين الخوف و الغضب قبل أن يدير وجهه و هو يلقي العديد من الأوامر.

*****

وصل بهاء لباب الشقة التي استأجرها عن طريق الإنترنت , فتح بابها قبل أن يدخل و يقف على باب الشقة يتأملها ؛ في مواجهته صالةٌ ضخمةٌ تحوي باب غرفة النوم التي يبدو فيها فراشٌ مريحٌ واسع , أغلق الباب خلفه و هو يخلع الشال الذي أحكم ربطه على عنقه ... ربما لبرودة الجو و ربما ليخفي تلك الندبة التي تتوسط رقبته مما يوحي بأنها كانت محاولة ذبحٍ فاشلة ... و ربما كانت مقصودةً لهدفٍ ما .

مشى حتى الفراش و ألقى بجسده عليه و أخذ يشعر بتيارات الألم تتسلل من جسده لتختفي وسط طيّات الفراش المريح , لحظاتٌ مرّت قبل أن يعتدل و هو يراقب الحقيبة التي تقبع بسكونٍ بجوار الباب , توجه إليها بخطواتٍ متّسعة و أمسكها من أذنيها قبل أن يضعها على المنضدة الخشبية , مد يده إليها بحرصٍ و أخذ يُخرج ما بداخلها برفقٍ و يضعهم بجوار بعضهم البعض و يتأملهم قبل أن يتحسس رقبته و يلقي بالحقيبة أرضًا بلا اكتراث , عيناه تلمعان كما لو أنهم أبناؤه , نظرةٌ أخيرةٌ مصحوبةٌ بابتسامة رضا و تنهيدة ارتياحٍ سبقت اتجاهه للفراش مرةً أخرى , ألقى بجسده عليه كما هو بملابسه و حذائه , لحظاتٌ مرت قبل أن تنتظم أنفاسه و يسود الهدوء ... نومٌ عميقٌ كان

في حاجة ماسّةٍ إليه ... منذ ما يقارب العشرين عامًا لم ينم بهذا العمق ... لينم اليوم و غدًا يوم آخر.

*****

وقف شريف لحظاتٍ ليطمئن على كل شيء قبل أن يشير بيده لمسعد أن يرحل , يبدو أن أعصابه لم تعد تحتمل الوقوف و لا الأوامر العسكرية , خرج و هو يمسح أنفه الذي احمرّ بفعل البكاء : فتح الشباك الذي يتوسط الصالة على آخره مخالفًا بذلك كل الأوامر التي تنص على عدم المساس بأي شيءٍ في نطاق مسرح الجريمة , الواقع أن الدنيا فعلًا مسرحٌ للجريمة و كلنا ممثلون عليها ... فلا أحد ممن يتظاهرون بالعمل هنا يتقن عمله على أكمل وجه , الهواء البارد صفعه على وجهه ليعيده سريعًا إلى أرض الواقع , ضرب البرق بمقلاعه السماء لتنير كألف شمسٍ ساطعةٍ في خِضَمّ ليلٍ حالك السواد كمشاعر القاتل التي يشعر بها شريفٌ الآن و إن كان لا يعرف الدوافع التي أدّت به لهذا و لماذا شوّه الجثث هكذا و لم يكتفِ بقتلهم؟؟

هذا الطفل ... هناك شيءٌ ما خارجٌ عن المألوف فيه , حركته المتخشّبة و إغلاقه لعينيه و سدّه لأذنيه , الهدير المزعج الذي يصدره بلا توقف , صرخته التي شقت سكون الليل : شعر بحركةٍ من خلفه , نظر للخلف فوجد أحد الأطباء يحمل الطفل الصغير فصاح به :

" توقف "

توقف الطبيب و هو ينظر له بدهشةٍ بينما الطفل يهرب بعينيه من لقاءٍ كأنه يخاف أن تفضحه عيناه , تابع شريف كلماته :

" أين تذهب ؟ "

" يجب أن يوضع الطفل في مصحةٍ نفسيةٍ لكي ندرس تأثير الصدمة عليه قبل أن نخطر أقاربه ليستلموه "

" أريد أن أحلل الدماء التي تملأ وجهه و أسنانه "

" سيدي ... ليست دماءً "

" ليست دماءً ؟؟ كيف عرفت ؟ "

" إنه نوعٌ من أنواع المربى ... بالتحديد مربى فراولةٍ منزليّ الصنع "

" سؤالي واضح ... كيف ... عرفت ؟؟ "

" وجدنا العبوة الفارغة التي أكل منها الطفل ملقاةً بإهمالٍ بجواره "

" لا شأن لي بهذه التخيلات التي تحاول أن تملأ عقلي بها ... أريد تَحليلًا معتمدًا يحمل ختم الوزارة ... هل تفهمني "

مطّ الطبيب شفتيه في دهشةٍ و هو يقول له : " كما تحب ... لا شأن لي بهذا الأمر "

أنهى كلماته و رحل ؛ بمجرد أن خرج من الشقة عاد الضوء لينير الشقة مرةً أخرى , نظر شريف للباب و هو يخاطب الطفل الذي رحل بصوتٍ خفيض :

" حتى في مغادرتك غموض ... اللعنة عليك ... سأكشف الحجاب عن هذا الغموض قريبًا "

صمت للحظةٍ تأمل فيها زخّات المطر قبل أن يستكمل :

" حتى لو كان هذا آخر ما أفعله ".

*****

" و الآن مرّ قرابة العام دون أن تكتشف شيئًا "

قاطعه صوت الطبيبة و هي تسأله بصوتها الأنثوي الساحر , تجاهل نبرة السخرية اللاذعة التي تبدو واضحةً قبل أن يرد :

" الأمر أخطر منّا جميعًا ... أنتم تتهاونون بالأمر"

ردت بهدوءٍ و قد شعرت أنها استفزته ؛ يجب أن تُحافظ على هذه الجلسة لجولةٍ أخرى :

" الأمر بسيط ... أنت تصمّم أن هذا الأمر خطير "

" هل تعلمين أنه بمجرد خروج الطفل من تلك الشقة ... عاد الضوء مباشرةً "

" صدفة "

" و هل تعلمين أننا أيضًا أنهينا أعمالنا في وقت قياسيٍّ بمجرد رحيله ؟"

" أصابكم التشاؤم من تلك الشقة فأحببتم أن تنهوا عملكم في أسرع وقتٍ لتهربوا منها "

نظر لها بحدّةٍ و هو يقول :

" رجال الشرطة لا يهربون ! "

ارتبكت للحظةٍ اختفت فيها ابتسامتها الرقيقة قبل أن تتابع :

" لم أقصد ... كل ما قصدت ... "

" هل تريدين أن تعرفي باقي الحكاية ... حسنًا ... بدأ الضوء يظهر و أنهينا كل أعمالنا فتركت الرجال يُنهون الأمر و ذهبت للعقيد كامل إلى مكتبه و ...

*****

تعالى صوت الطرقات على باب المكتب فنظر العقيد كامل إلى الباب قبل أن يصيح بصوتٍ عالٍ :

" أُدخل "

ظهر شريف على باب المكتب فنظر له مليًا قبل أن يأمره بالدخول :

" شريف ... تفضل "

جلس شريف أمام كامل المنهمك في دراسة عدّة أوراقٍ للحظاتٍ قبل أن ينظر لشريف و هو يقول :

" هل انتهيتم ؟؟"

" شارفنا على الانتهاء فتركت عمرو هناك يُتِمُّ الأمر و أتيت لسيادتك كما أمرتني "

نظر له للحظةٍ قبل أن يمدّ يده له بورقةٍ مطبوعةٍ و هو يتحدث :

" هاشم محمد السيد , أربعون عامًا , موظفٌ في بنك , مواطنٌ نموذجي , هادئ الطباع , ليس مشاغبًا و ليس له آراءٌ سياسية .

ميرفت السيد ناجي , سبعةٌ و ثلاثون عامًا , ربّة منزل , كزوجها في كل شيءٍ تقريبًا .

في الحقيقة لولا الأوراق التي تثبت وجودهما لما كانا موجودَين "

صمت للحظةٍ قبل أن يرى الحيرة على وجهه بسبب الجملة الأخيرة :

" أعني أنهما هادئان جدًا و لولا مقتلهما لما كنا لنشعر بهما حتى لو توفيا طبيعيًا "

أومأ شريف برأسه قبل أن يتأمل الورقة و يرفع رأسه لرئيسه :

" هناك سؤالٌ يحيّرني ؟ "

ابتسم رئيسه ابتسامةً هادئةً قبل أن يقول :

" سأُخبرك به ... لماذا تأخرا في الإنجاب حتى هذا السن ؟؟ "

هزّ رأسه في إشارةٍ لإبداء إعجابه بذكاء رئيسه قبل أن يستكمل كامل حديثه :

" يجب أن تعرف أنهما تقابلا في الكلية و بدأت بينهما قصة حبٍ , توقع الكل أن تنتهي بالزواج , كان الكل يشير عليهما و يختارهما ليستكملا سلسلة العشاق الشهيرة : روميو و جولييت , قيس و ليلى , هاشم و ميرفت ... لكن فجأةً و بدون أي مقدماتٍ انفصلا , ابتعد كلٌ منهما عن الآخر و تحاشاه كأنه الطاعون بذاته ؛ هل تتخيل يا شريف ؟؟ عاشقان و فجأة يتحاشيان بعضهما !! و بعد حوالي خمسة عشر عامًا اجتمعا ليلتقيا و بعد أقل من أسبوعٍ تزوجا "

تفكر شريف في كلمات كامل قبل أن يقول :

" هنا يا سيدي الخيط الأول ... يجب أن نعرف لماذا افترقا في تلك اللحظة و ما الذي حدث في تلك الفترة و من هنا نستطيع أن نستكمل تحرياتنا في هذا الأمر"

" للأسف يا سيد شريف , لقد عينتك لمتابعة حالة الطفل الصغير بينما عمرو سيكون مسؤولًا عن التحقيقات , يجب أن تعرف ما الذي حدث لهذا الطفل و تطمئن على حالته النفسية و تسلمه لأقربائه عندما ينتهي الأطباء من تشخيص حالته في المصحة "

" سيدي ... من فضلك أريد أن أتابع أنا التحقيقات "

" تلك القضية قد أثارت أعصابك للأسوأ ! للمرة الثانية خلال أيام تنسى فارق الرتب بيني و بينك يا سيادة الرائد "

ثم أخذ صوته في الحنو و هو يراقبه بأعين أب :

" يا شريف ... أريدك أن ترتاح قليلًا من تلك القضية ... مجرد أيامٍ و تنتهي تلك القضية سواء قبضنا على القاتل أو قيّدناها ضد مجهول "

" سيدي ... من فضلك ... أنا أعلم جيدًا من القاتل !! "

اعتدل كامل قبل أن ينظر له بتركيزٍ و هو يقول له :

" من القاتل يا شريف "

نظر شريف لعيني كامل في تركيزٍ و هو يقول :

" الطفل ! ".

*****

خرج بهاء من الحمام بعد أن انتهى من الاستحمام و هو لا يضع سوى منشفةٍ بيضاء نظيفة تُخفي النصف السفلي من جسده , كان جسده يبدو قويًا و قد تشكّلت عضلات جسده و ظهرت و قد نحَتَها الزمان بضرباته القاسية , توجه للمرآة و وقف أمامها يتأمل جسده المبلل , لا تزال قطرات الماء الساخن تلمع على جسده و يتصاعد منها بخارٌ شبه شفاف , مسح بيده البخار الذي تكثّف على المرآة و هو ينظر لعيتيه اللتان تتأملان جسده قبل أن يمد يده و يمسّ أحد الندوب التي تركت أثرًا غائرًا في جسده , تأمل الندوب التي تركت في جسده خريطةً تحكي مأساته التي عاشها حتى وصل لهذه السن و هذه القسوة , الندبات التي كره بسببها كل مسببات الحياة و أصبح ناقمًا على السبب فيما وصل إليه ... كل ندبةٍ تحكي قصةً و تقصُّ سببًا لوجوده الآن في مصر بعد كل تلك السنوات ؛ في الواقع لم يستطع أن يسامح كل المتسببين فيما هو فيه الآن , تحسّس رقبته و عيناه تلمعان في استمتاعٍ و نشوة , مشى بعيدًا عن المرآة و توجه للنافذة , فتحها و ترك نسمات الهواء البارد تمسّ جسده و ترك قبضة الطبيعة الحانية تربّت عليه و كأنها تواسيه على ما فعلت به من قبل , شعر بأنه يريد أن يصرخ أو يسمح

لآهةٍ ضخمةٍ بداخله أن تخرج لولا خشيته أن تملأ المكان عليه فلا يجد مكانًا ينام فيه من ضخامتها و ضخامة حجم الألم , شهيقٌ حادٌّ بلا زفير أخذه قبل أن يغلق النافذة و يقرر أن يدخل لغرفته , أغلق الضوء و استدعى ملك الظلام ليسيطر عليها بمساعده وزيره المخلص ... الصمت .

لحظاتٌ مرّت قبل أن يشقّ الصمت صوت بكاءٍ مكتوم مصحوبًا بألم مريع ... المشكلة هنا أن الألم ليس عضويًا ... بل أشد قسوة ... ألمٌ نفسي ...

ألمٌ نفسيٌ قاسٍ شعر به كسكينٍ يشقّ جوانب ذاكرته بحثًا عن ذكرى جديدة , حاول أن يقاومه بشدةٍ إلا أنه كان أضعف , بدأت بداية ذكرياته تتضح أمامه و هو يحاول أن يتدارك الموقف و يطردها بعيدًا إلا أنه كان أضعف , في النهاية ألقى جسده بلا حراكٍ على الفراش و ترك عينيه تعرضان له تلك الذكرى كما لو أنها فيلمٌ سينيمائي ... و برغم شعوره بالبرد إلا أنه لم يتحرك و ترك عواطفه بالكامل تغوص بداخل الذكرى ...

*****

وقف شريفٌ أمام رجل الأمن على باب المصحة و هو يريه تصريح الدخول الذي تفحصه رجل الأمن لدقيقةٍ قبل أن يعطيه له بابتسامةٍ رقيقةٍ مصحوبةٍ بأمنياتٍ ليومٍ سعيد , تجاهله شريف فهو ليس في

حالةٍ نفسيةٍ تسمح له بهذه الترّهات : مشى حتى وصل للاستقبال و هو يسأل موظف الاستقبال عن الطفل , نظر له موظف الاستقبال للحظةٍ قبل أن يقول :

" أيّ طفلٍ يا سيدي ؟؟ "

" الطفل الذي حضر في الصباح الباكر للاختبارات النفسية ؟ "

" الطفل حاليًا يخضع لسلسلةٍ من الاختبارات النفسية التي تناسب سنه لتحديد إذا ما كان هنا..... "

" أين تقع الغرفة ؟ "

" أي غرفة ؟؟ "

" غرفة تناول الطعام ! بالطبع أنا آتي لهنا كلما أردت أن آكل !! غرفة الطفل يا رجل! "

" سيدي لاحظ أنك في مصحة نفسية .... "

مد شريف يده ليمسك بياقة موظف الاستقبال و هو يميل بجسده و يسأله بنبرةٍ شرسة :

" رقم ... الغرفة "

" الغرفة الثالثة عشر "

ظهر على وجه شريف التشاؤم من رقم الغرفة قبل أن يترك موظف الاستقبال الذي رمقه بنظرة تحمل معاني عدّة تجاهلها شريف و هو يتحرك بقدميه في الممر و بعينيه بين أرقام الغرف حتى وصل للغرفة المطلوبة ؛ تأمل الطفل بين أيدي الأطباء من النافذة الزجاجية , كان مستسلمًا لهم و لكن لا يزال محافظًا على موقفه ثابتًا كوتدٍ في مواجهة العاصفة , مصممٌ على ألا تتلاقى عيناه مع عيني أيّهم , هذا لم يكن له سوى تفسيرٌ وحيدٌ في نفس شريف : هذا الطفل ليس طبيعيًا ... ليس طبيعيًا على الإطلاق ... هناك شرٌّ خالصٌ يتلبسه و هو السبب في هذه الجرائم البشعة و يحاول جاهدًا ألا تكشفه مخالب الشر التي تحاول جاهدةً أن تنبش نقاء الطفل البرئ لتظهر, صراعٌ نفسيٌّ داخل الطفل يبدو جليًّا في تفاديه لأي علامة تواصلٍ بشري و صراعٌ نفسيٌّ آخر ينهش سلامه النفسيّ و يبدو واضحًا وضوح خوفه من هذا الطفل في عصبيته الزائدة ؛ نظر نظرةً أخيرةً للطفل قبل أن ينظر لساعته يتأمل عقاربها المنهمكة في مطاردةٍ لا تنتهي , خرج طبيبٌ من الغرفة فأمسكه من ذراعه بيده الحُرة و خاطبه و هو لا يزال ينظر لساعته :

" متى تنتهي هذه الاختبارات "

" هل لي أن أعرف من أنت و من أعطاك الحق لتمسك بيدي بهذه الطريقة "

رفع شريف عينيه ببطءٍ عن ساعته قبل أن ينظر للطبيب في بطءٍ مخيفٍ و مزعج دون أن يتحدث , الرّعب على وجه الطبيب كان كافيًا له ليلقي له بالجواب ثم يفرّ بأسرع وسيلةٍ ممكنة :

" هي سلسلةٌ من الاختبارات و ستتمّ على مدار خمسة أيام ... اليوم أولها "

ذهب الطبيب من أمامه و عيناه تحملان اتهامًا واضحًا بالجنون , مرت لحظاتٌ قبل أن يخرج هاتفه المحمول ليطلب رئيسه , صمت للحظاتٍ قبل أن يأتيه الرد من الجهة الأخرى ليقول :

" سيدي أطلب الإذن لأذهب لبيتي ... سأبدل ملابسي و سأسهر بجوار غرفة الطفل حتى الصباح لحراستها "

صمت مرةً أخرى و هو يتلقى الرد :

" أعلم جيدًا يا سيدي و لكنني أريد أن أراقبه ... حسنًا يا سيدي ... شكرًا "

أغلق الهاتف و وضعه في جيبه و هو ينظر للأرض بهدوءٍ للحظات قبل أن يرفع عينيه و يذهب للبيت.

*****

وقف بهاء أمام مديرة الملجأ و هو ينظر بخوفٍ للأُسرة التي قررت تبنيه ... رجلٌ ضخم الجثّة ذو بطنٍ عملاقٍ و شاربٍ ضخم . يدخن سيجارةُ بشَرَه, و سيّدةٌ تقف بجواره يبدو عليها الرّجاء في ردائها الأحمر و الذي يفصله عن رقبتها شالٌ من فراء الثعالب الأصلي , ترتدي في يديها مجوهراتٍ خفيفة إلا أنها تبدو باهظة الثمن , في يدها سلسلةٌ معدنيةٌ رفيعةٌ تنتهي بطوقٍ من الجلد الطبيعي يلتفّ على رقبة كلبٍ من أحد الفصائل النادرة ذات الفراء الناعم ؛ ما أثار حنق بهاء أن الكلب يبدو أنظف منه كثيرًا ... دمعت عيناه و مديرة الملجأ تقول للسيدة التي تتأمل طلاء أظافرها الفيروزي في ملل :

" بهاء طفلٌ من أذكى الأطفال هنا ... لقد اخترته لكما لأنه سيريحكما فهو مطيع ... أليس كذلك يا بهاء "

هزّ بهاء رأسه في موافقةٍ على كلامها و هو يشعر بمرارةٍ تشقّ طريقها من حلقه إلى روحه المنكسرة , خرج خلفهما و قد أنهيا كل الأوراق , لأول مرةٍ يشعر بحريته و لكنه يشعر بقيدٍ خفيٍّ يلتف حول قلبه يمنعه من فرحته , صعد إلى السيارة , أول ما لفت نظره كان أن السيدة لم تنظر له مطلقًا و كأنه ليس ابنها ؛ قطعت السيارة عدة شوارع حتى وصلت لمنطقةٍ راقيةٍ في وسط القاهرة , نزل بهاء من السيارة و هو يتبع الزوجين , توقّفت السيارة أمام فيلا فاخرة تخلب الألباب , وقف أمامها مشدوهًا قبل أن يتبع السيدة و عندما همَّ بدخول الباب منعته

بيدها قبل أن تشير بإصبعها للسائق الذي أتى ليمشي بجواره و هو يحدّثه بصوتٍ خافت :

" أتريد أن تدخل الفيلا ! هل جننت "

" ألم يتبنياني ... إنهما الآن والديّ أليس كذلك "

هزّ الرجل رأسه في إشارةٍ لم يفهمها بهاء و هو يشير بيده لكوخٍ صغيرٍ يتوسط الحديقة :

" ستظلُّ هنا حتى ميعاد السفر "

فتح له الباب و دخل بهاء يتأمل الكوخ ... كوخٌ قذرٌ ضيق لا يحتوي على أي شيء , فارغٌ بالكامل , يسيطر عليه الظلام و مازاد الأمر سوءًا أنه بلا نافذة ؛ التفت بهاء لينظر للسائق برعب و قبل أن يتحدث أغلق الباب بعنف ... حاول أن يفتحه إلا أنه سمع صوت المزلاج يُغلق و صوت معدنٍ يحتك بآخر يعقبه تكّةٌ مميزةٌ لانغلاق قفل , صمت في ذهولٍ و هو يستمع لهمسة السائق تتسلل من بين شقوق الخشب لتنال قلبه مباشرةً :

" آسف "

*****

خلع شريف حذاءه و دلف إلى شقته و التفت ليغلق الباب , بمجرد أن اعتدل فوجئ بزوجته تقف خلفه تحتضنه برقةٍ و هي تطبع على جبينه قبلة رضا و تقدير لرجلها الذي تعلم جيدًا كم يتعب في مهنته , بمعجزةٍ غراميةٍ ذاب التعب و التوتر منه تمامًا و حلّت محلهما روح طفلٍ صغيرٍ تتقافز من فرط السعادة , حملها في مرحٍ و مشى بها حتى باب المطبخ قبل أن يُنزلها أرضًا , تعمّدت أن تقف على قدميه و هي تحاول أن تمطّ جسدها لتصبح بطوله , ضحك عليها و هو يقول لها :

" هيا أيتها القصيرة ... إنني جائع و لم أنم منذ الأمس ... أنهي الطعام و إلا حبستك في المطبخ للأبد "

وضعت يديها على وسطها و هي تزمّ شفتيها في غضبٍ مصطنع :

" أنا لست قصيرة ... بل أنت الطويل "

ضحك من مظهرها و هي تغالب الابتسام لتحافظ على هيئتها الجدّية إلا أنها لم تستطع فأطلقت ضحكةً مرحةً و هي تجري إليه محاولةً أن تضربه بدلال, إلا أنه حملها من على الأرض و دار بها دورةً كاملةً في الهواء تطاير فيها شعرها خلفها و تطايرت قهقهاتها عاليًا تحلِّق سعيدةً في فضاءٍ من هناءٍ و راحة بال , أنزلها أرضًا و هو يربّت على ظهرها بحنانٍ و يقول : " أيّ صنف من الطعام ستخربينه اليوم ؟ "

أخرجت لسانها بدلال و هي تقول :

" لن أقول لك "

دخَلتْ إلى المطبخ بسرعةٍ لتستكمل تحضيرها للطعام و ذهب هو إلى أريكته المفضلة و جلس عليها يفكر في كل ما حدث .

لم يدرِ بنفسه إلا و زوجته تحتضنه في حنان و هي تقول بصوتٍ مليءٍ بالدلال :

" أنادي عليك منذ حين ... ما بك ؟ "

" قضيةٌ جديدة "

" و منذ متى تفعل بك القضايا الجديدة هكذا ؟؟ "

" هذه المرّة مختلفةٌ تمامًا عن كل قضية "

" و كالعادة لن تقصّ عليّ شيئًا منها بحجة أنها أسرار العمل "

ابتسم و هو يقبّل يدها في حنان و يمرّ بيده على بطنها برفق , فكّر فيهما ... زوجته الوحيدة التي جذبت قلبه بمغناطيس رقتها , كان يعتقد أن قطار الزواج قد مرّ عليه دون أقرانه , منهم من تمت خطبته و منهم من تزوج و هو يقف وحيدًا في انتظار دوره و أخيرًا رآها ... ابتسم القلبان لبعضهما دونما أي إرادةٍ للبشر و رقصت الأرواح رقصة تانجو مجنونة على أنغام العشق التي تعزفها قلوبهما في رقةٍ على قيثارة العشق , و برغم أنه يعشقها إلا أن أمله قد خاب قليلًا ... فقط قليلًا عندما علم

أن فرصتهما في الإنجاب لا تتعدى الواحد في المئة , بالطبع أخبرها أن العيب منه هو قبل أن تبتسم لهما الدنيا في بداية هذا العام , لم يمرّ سوى شهرين حتى أتت نتيجة الحمل إيجابية , رقصت الملائكة و تفتّحت الزهور , قيثارة الهوى عزفت أروع نغماتها و نسج ملاك الحب جنتهما الصغيرة و إن كانت الآن تتسع لثلاثة أشخاص , فينوس إلهة الجمال نصبّته عبدها الوحيد و قامت من كرسي إلوهيتها لتركع تحت قدميه تضحك له و تبارك رجولته بأنوثتها ؛ نظر لها و ابتسم و هو يحتضنها بشدةٍ ذاب لها قلبها قبل أن يجذب كرسيها و يشير لها بيده و هو ينحني لتضحك و هي تجلس على الكرسي قبل أن يذهب لكرسيه المقابل لها و يسرق منها نظرةً من عينيها ضحكت لها شفاهٌ يخجل القمر من حسنها ليبدءا في تناول الطعام .

*****

جلس بهاءٌ الصغير في الظلام وحيدًا... عدّة أيامٍ مرّت حتى فقد الإحساس بالزمن ... يعيش في الظلام الدامس الذي لا يشقّه شعاع ضوءٍ سوى مرتين يوميًا إحداهما عند تقديم طعام الإفطار و الأخرى عند وقت الغذاء , يتسلّل ضوء الشمس الدافئ ليؤنس وحدته من الشقّ العرضيّ الذي يُفتح لتدخل إليه صفحةٌ بلاستيكيةٌ عليها كوبٌ من الزبادي الطازج و قطعةٌ من الجبن الخالي من الملح و رغيفٌ من الخبز , الوجبة ذاتها تتكرر إفطارًا و غذاءً و عشاءً ... بعد عدّة أيام فُتح له الباب ليخرج , في البداية أعمى الضوء بصره , كان يحدّق في

الشمس ببلاهةٍ و بداخلِه صراعٌ يكاد يُسمع صوته بين فرحتين تحاول كلٌّ منهما أن تفوز بملكية قلبه الحزين , فرحة حريته بعد السجن و فرحة رؤيته للضوء بعد أيامٍ عاشها تحت سطوة الظلام ؛ أيادٍ عديدةٌ تعبث في جسده و هو يتركها ... يخلعون عنه ملابسه و يُلبِسونه أخرى , يعبثون في تسريحة شعره , يُلبِسونه حفاضة أطفال ملوثةٍ برائحةٍ كريهةٍ تحت ملابسه و هو لا يطرُف عينه ناظرًا نحو الشمس في شبَقٍ غريب ؛ من الصعب أن يحكم عليه شخصٌ ما لأنه لا يمكنك أن تحكم على شخصٍ ما إلا بعد أن تعيش ظروفه .

لقد عانى الأمرّين بداخل ذلك الكوخ المظلم الذي لا يعرف كم من الوقت قضى بداخله ... لقد اتخذ كوبًا فارغًا من الزبادي و مسمارًا صدئًا أصدقاء له , يحدثهما و يشكو لهما فلا يردان عليه , يثور لصمتهما فيسبّهما و يصفهما بأقذع الألفاظ و يتخذ ركنًا يبكي فيه بثورةٍ قبل أن يهدأ و يبحث عنهما في الظلام ليعتذر لهما و يبرر لهما موقفه و يأخذ في تقديم الأعذار واحدًا تلو الآخر حتى يضايقه صمتهما فيثور متهمًا إياهما بالتكبر و الغرور و يتخذ ركنه البعيد يبكي فيه حتى ينام , يراهما في الحلم يحدثانه فيقصّ عليهما ذكرياته في الملجأ , و يحدثانه عن ذكرياتهما و يلعبان حتى يرهقهما اللعب فيناما في حضنه حتى الصباح .

الشمس تبادله النظرات بابتسامةٍ جميلة فيبتسم و يمد يده تاركًا جسده بين الأيادي محاولًا لمس أشعتها , نسي نفسه و نسي اليد التي

جذبته من يده و أركبته السيارة و هو يتابع الشمس بنظراته قبل أن يغلق عينيه كأنه يختزن أشعة الشمس بداخله ...

ظلّ مغمض الأعين فاقد الحس حتى توقفت السيارة , فتح عينيه فوجد أنهم أمام مطار القاهرة الدولي , يبدو أن أباه الجديد رجلٌ ذو علاقات لأن أوراقه تمر و إجراءاته تنتهي سريعًا , أشار إليه أحد الضباط و دار حديثٌ سريعٌ قطعته إشارةٌ من أبيه بجوار رأسه علامةً على الجنون قبل أن يهزّ الضابط رأسه في فهمٍ و هو يشير للأم أن تمر و هي ممسكةٌ بيده في إحكام , دقائق مرت قبل أن يجد نفسه على متن الطائرة منهمكًا في التحديق من النافذة الصغيرة, لم يشعر بالوقت , كأنها دقائق مرت حتى وصلوا لدولةٍ أجنبيةٍ لم يعرفها ؛ تكرّر الموقف و تكرّر النفوذ الذي يفتح أبوابًا محكمٌ إغلاقها , خرجوا من المطار لفندقٍ قذرٍ حقير.

تعجّب في داخله و قد بدأ يشعر بآدميته مرّة أخرى و ينفصل عن حواره الفلسفي الداخلي مع أشعة الشمس ... لماذا يتخذ رجلٌ شديد الثراء واسع النفوذ مثله و معه زوجته الرقيقة التي تراها لتظن أنها إحدى أميرات ديزني الهاربات من على الشاشة لواقعنا لتزيده جمالًا ,فندقا حقيرًا كهذا سكنًا له ؟؟

بداخل الغرفة وضع يده على فم بهاء بينما خلعت المرأة ملابسه بعصبية شديدة , قطعت الحفاضة و ارتدت في يدها قفازًا تنتقي من

بين الفضلات البشرية ذات الرائحة الكريهة المنفرة كيسًا صغيرًا و تنظفه جيدًا قبل أن تفتحه و تشير لزوجها و ابتسامتها تتسع إلى نهرٍ صغيرٍ من الألماس الحر اتخذ راحة يدها مسارًا له قبل أن يشعر بصدمةٍ قويةٍ على مؤخرة رأسه ليسود الظلام مرةً أخرى ... كان آخر شيءٍ شعر به هو الحميمية تجاه الظلام ... لكم افتقده !

*****

وصل شريف للمصحة و منذ عبوره للباب شعر بشيءٍ غير طبيعيٍّ يحدث بها , أشخاصٌ يرتدون معاطف بيضاء يعدون بقوةٍ في اتجاه غرفة الطفل , هناك صوتٌ يتردد في مكبر الصوت يأمر طبيبًا ما بالتوجه لغرفةٍ ما , رجال الأمن يضعون أيديهم بجوارهم لكي تكون قريبةً من أسلحتهم في تحفّز , ممرضتان تتناقشان بقلقٍ بجوار حائط يستمع لهم و هو يشاركهم قلقهم بسكونه .

شيءٌ غامضٌ حفزّ الحسّ الأمني بداخله و استفزّ خبرة الضابط بداخله , وضع يده على جانبه يتحسس مسدسه و يطمئنَّ لوجوده قبل أن يستلّه و يتحرك بسرعةٍ يشقّ طريقه نحو غرفة الطفل ... هناك تجمهرٌ ضخمٌ أمامها , أخذ يشقّ الصف بجسده الرياضي و هو يهمهم بكلمات اعتذارٍ يطلقها بلا تصويبٍ فمنها من يصيب أهدافه و منها ما يطيش بعيدًا بلا هدى , أخيرًا وصل ليتأمل المكان ... عجوزٌ نحيلٌ ملقى أرضًا بلا حراك و طبيبان حول جسده منهمكان في تدليك صدره بينما يصرخ

الآخر فيه ببدء عملية التنفس الصناعي لأنه لا وقت لديهما , يتوتر المشهد مع صرخات الطبيب بينما يميل زميله و يُجري عملية تنفسٍ صناعيةٍ عن طريق فم العجوز ... لحظاتٌ تمرّ ببطءٍ شديد و كأنما عقارب الساعة قد نسَت دورها و توقفت لترمق المشهد معهم , أخيرًا سعل العجوز بوَهَن فمسح الطبيب وجهه مزيلًا قطرات اللعاب التي تناثرت لتصيبه بعضها , أمسك الأطباء بيد العجوز و هم يرفعون جسده الضعيف ليضعوه على فراشه و يشيروا لمرضةٍ لتدخل و تنهمك في بضع التوصيلات الطبية , أعاد شريف مسدسه إلى جرابه الذي احتكّ فيه مُطلقًا حفيفًا و كأنما يعترض على إقلاق سكونه بلا داعي و أحكم غلق زر الأمان قبل أن يفيق على صوت أحد الأطباء يصيح في زميله الذي أجرى عملية التنفس الصناعي قائلًا بصوت مرحٍ:

" ذكرني ألا آكل معك في طبقٍ واحدٍ مطلقًا "

ضحك الذي ضحك و ازدرد الباقون لعابهم في توتر و هم يطلقونه برسالةٍ ما إلى قلوبهم البائسة أن تهدأ فلا داعي للقلق , هزّ رأسه بعنف و هو ينظر بلا فهم حتى اصطدمت عيناه برسالةٍ رماها القدر في طريقه لكي يفهم بدلًا من حيرته (الغرفة الثانية عشر)

انتزع نفسه بأقدامٍ ساخطةٍ مخترقًا الزحام الذي يتبدد كالظلام الذي أصابه من قبل كشاف عمرو زميله , وقف أمام الزجاج يراقب الطفل النائم بسكون قبل أن يجذب مقعدًا و يجلس بجوار الباب عابثًا في

أزرار هاتفه المحمول مخترقًا إحدى شبكات التواصل الاجتماعي باحثًا عن وسيلةٍ لتمضية وقته بدلًا من أن يتملّكه الملل : كعادة شبكات التواصل امتدّت يدها اللا مرئية لعمره بخفةٍ لتسرق منه بضع ساعاتٍ في خِضَمّ ثوانٍ لم يشعر بها , شعر بظهره يؤلمه من ثباته على موقفه جالسًا فوق كرسيه بلا حراك , اعتدل ممَدِّدًا إحدى قدميه أمامه مؤرجحًا الأخرى لتنام في حضن شقيقتها , نظر في ساعته ... دقائق قليلة و ينتصف الليل ... يشعر بخدعةٍ ما !

كيف يعدو الوقت بهذه السرعة بينما من المفترض طبقًا لنواميس الكون ألا تتحرك عقارب الساعة عندما تكون في مهمة انتظارٍ لشيءٍ ما!

عاد لينظر لهاتفه مرةً أخرى قبل أن تبدأ الليلة التي ستكون إحدى أطول لياليه على الإطلاق .

*****

فتح بهاء عينيه في تثاقلٍ و هو يتابع بوجدانه روحَه و هي تستجوِب ذاكرته بعنفٍ باحثةً عن سيلٍ من الذكريات ينهال عليه قطرةً تلوَ الأخرى ليذكّره أين هو و ماذا يفعل هنا ... بدأ يتذكر ... عملية التبني ... الكوخ المظلم ... الحفاضة ... الفندق الحقير ... الظلام !

نظر حوله و هو يعتدل ليجد نفسه ملقًى في نهايةٍ مظلمةٍ لزقاقٍ مهجور, يختفي جسده خلف صندوق قمامةٍ ضخمٍ يحتلّ ثلثي الشارع , فوقه أنبوبٌ صدئٌ قديمٌ يبكي بعنف , مسح المياه القذرة عن جسده ليفاجأ بأنه عارٍ تمامًا , اعتدل و هو يمسح الشارع بعينيه .

حاول أن يتذكر كيف وصل إلى هنا و لكن ذاكرته كانت منهكةً بعد عملية الاستجواب العنيفة التي خضعت لها فلم تهتم بالرد على تساؤلاته .

مشاعر عديدة تتصارع بداخله ... الخوف و الحيرة و الجوع و البرد ينهشون جسده في معركةٍ من طرف واحد , وقف على قدميه و هو يقترب من بداية الزقاق قبل أن يلقي نظرةً جائعةً على صندوق القمامة إلا أنه قرر الاحتفاظ بالبقية الباقية من كرامته لحين إشعارٍ آخر , مشى حتى بداية الزقاق قبل أن يُلصق جسده بالحائط و يترك برودته تغتصب الدفء من جسده العاري و هو يمسح الشارع بعينيه ... موقفه صعبٌ جدًا .

طفل عاري الجسد مبعثر المشاعر يقف وحيدًا بلا أي إثبات شخصية, دون علمه بمكانه أو بمكانته في هذا البلد !

جرى بخطواتٍ حذرةٍ من خلف الحائط ليختبئ خلف صندوقٍ للصحف يقف منتصبًا في منتصف الطريق , و من خلفه انطلق

ليختفي بجوار سيارةٍ حمراء تقف ناعسةً بجوار الرصيف , سرعان ما تعلّم شيئًا لن ينساه أبداً...

- الدرس الأول : كيف تكون خفيًا !

لمح بعينه مجموعةً من الملابس تتشبث في حاملٍ يقف أمام محلٍ قديمٍ بلا رقيبٍ عليها , شياطين الخوف و الجوع و الحيرة تستل أسلحتها في مواجهة ملاك الحق الذي نظر لهم للحظةٍ قبل أن يقرر أنها ليست معركته ليتوارى بعدها في ركنٍ مظلمٍ بعيد , انتظر بهاء اللحظة المناسبة و اندفع يعدو بخفّة فهدٍ يطارد وجبته ليختطف قطعةً علويّةً من الملابس و يستكمل جريه مرةً أخرى ...

- الدرس الثاني : كيف تكون خفيفًا !

سمع صوت خطواتٍ من خلفه و صوتًا يصرخ فيه بلغةٍ غريبةٍ على مسامعه فلم يلتفت له , الصوت يطارده بغضبٍ ساحق , حاول أن ينعطف إلا أن الصوت واصل مطاردته بعنف . هنا ارتكب خطأً و نظر خلفه ...

- الدرس الثالث : لا تنظر خلفك في خِضَمِّ المطاردة !

يدٌ قويةٌ أمسكته من عنقه ليحتبس الهواء خوفًا من تلك العينين الزجاجيتين اللتان تنظران له بعنفٍ من خلف نظارةٍ رقيقة يعلوها شعر أشقر يتوّج وجهًا جميلًا لرجلٍ صارم , رفعه من على الأرض ليلقي

به تحت أقدام المطارد الذي توقف و هو ينهج بعنفٍ محاولًا التقاط أنفاسه و هو يصرخ فيه , نظر له بعينين احتلهما الخوف , صرخ فيه الرجل مرةً أخرى قبل أن يلقي له قطعة الملابس السفلية التي تناسب العلوية التي سرقها و هو يرحل مغمغمًا بلغةٍ غريبة , ارتداهما و هو يشعر بالذهول ... لقد رأى نهايته و لكن يبدو أن للقدر تصاريف أخرى , مشى بهدوءٍ بعد أن ارتدى الملابس و صار مظهره طبيعيًا بعض الشيء و لكنه غفل عن درسه الجديد...

- الدرس الرابع : تأكد من أنك لست مراقَباً !

*****

دقائق قليلة مرّت و هو يجلس بلا حراك مراقبًا آخر التطورات على شاشة هاتفه المحمول , انتصف الليل تمامًا و ساد الهدوء المكان , في البداية تعجّب من شدّة الهدوء لكنه عزى الأمر لانتهاء ورديةٍ و بدء ورديةٍ أخرى , هدوءٌ عارمٌ يسود المكان قطعه فجأةً صوتٌ يشبه صوت الانفجار , صوتٌ انطلق من جهاز كاسيتٍ قديمٍ مهجور يقبع في إحدى غرف المستشفى الخالية المهجورة انطلق من حنجرته صوت لحنٍ جنائزيٍّ كئيب يتبعه صراخ المغني الشاب بصوتٍ مكسور ... انتفض جسده ... توتّر و شعر أن هناك شيءٌ خاطئ , تحرك بسرعةٍ حتى خرج لموظف الاستقبال المرتبك و لاحظ حركةً غير طبيعيةٍ في صالة المشفى , الأطباء و الممرضات يصرخون في عامل الاستقبال الذي وقف حائرًا لا

يسمع أصواتهم و لا يستطيع التركيز , وقف شريف خلفهم جميعًا و هو يصرخ بهم ليلتزموا الهدوء إلا أن صوته لم يُسمع بسبب صوت الأغنية ... أغنيةٌ غريبةٌ لحنها يبعث حزنًا غامضًا بداخل النفس , شعر بربتةٍ خفيفةٍ على جسده , التفت ليجد طبيبًا شابًا يضع يده على أذنيه في إنزعاج , بحركةٍ واحدةٍ أشار له أن يستل مسدسه و يتبعه , مشى حاملًا مسدسه بجوار الطبيب الشاب تراقبهم أعين الباقين , أشار له الطبيب الشاب إلى الغرفة التي ينطلق منها الصوت , هزّ رأسه و أذنه تؤلمه كلما اقترب من الصوت ... أما لهذه الأغنية من نهاية !

أما لهذا الألم النفسي من حد !

وصلا إلى الغرفة ... وضع شريف يده على المقبض و هو يفتحه بحركةٍ سريعةٍ و يعيد يده في جزءٍ من الثانية لتمسك مسدسه مرةً أخرى , رعشةٌ غريبةٌ امتدت لتنال من المصباح القديم الذي ضغط على زرٍ في الحائط ليشعله , تردد المصباح بين الضوء و الظلام للحظاتٍ قبل أن ينير الغرفة , تحركا بجوار بعضهما البعض بعد أن اطمئنا إلى أن الغرفة خاليةٌ تمامًا , المسدس يسبق صاحبه في شجاعةٍ منه أو جبنٍ من صاحبه الذي يُشهر مسدسه في مواجهة غرفةٍ خالية ... وصل شريف إلى المسجِّل الذي تعلوه أطنانٌ من الغبار و حاول أن يعبث في أزراره أو في الزر الخاص بالصوت إلا أن المسجل ظلّ ثابتًا على موقفه , انحنى الطبيب بعنفٍ في حركةٍ مفاجئةٍ لم تتحملها أعصاب شريف الذي تحرك إصبعه في توترٍ ليطارد زناد المسدس في سباقٍ ينتهي بميلاد

رصاصةٍ جديدةٍ من رحم الماسورة ... انفجر المسجل بعنفٍ و شظاياه تتناثر حول مكانه , نزف شرارةً كهربيةً لمعت للحظةٍ قبل أن يخبو بريق الحياة منها لتسكن الغرفة تمامًا ؛ اعتدل الطبيب ناظرًا له بذهول و هو يمسك بيده السلك الكهربائي الذي انتزعه من القابس قبل أن يُصمِت شريف الجهاز للأبد , تنحنح شريف في إحراجٍ أمام نظرات الجميع التي تتهمه بالجنون الرسمي ... لحظتها فقط تذكر الطفل , صدم رأسه بيده و بداخله ضابطٌ يصرخ فيه أنه تعرض لخدعةٍ ساذجة , اندفع يعدو بعنف تجاه الغرفة ... يشعر أنه يقطع ممراتٍ لا تنتهي , أكثر من طبيبٍ شعروا بالفزع تجاه حركته السريعة المفاجئة فتبعوه في فضول , وصل للغرفة التي تركها مطفأة الضوء ليجدها منيرة , تحرك ببطء من لا يريد أن يصطدم باكتشافٍ يرهقه أو يضيف إلى حصيلته عبئًا آخر , أدخل مسدسه ليرقد في جرابه حتى لا يحدث هذه المرة ما لا يحمد عقباه , توقف أمام الزجاج الفاصل بين الغرفة و الممر و هو يرى الطفل الصغير يجلس على فراشه مبتسمًا !.

*****

بداخل زقاقٍ ضيّقٍ قذر جلس بهاء يأكل قطعة خبزٍ مبللةٍ بالماء و بها بوادر عفنٍ وجدها ملقاةً أرضًا , و برغم معدته التي تتأوه جوعًا إلا أنه فضل أن يسمع تأوهاتها مفضلًا ألا تئنّ كرامته إذا كرر السرقة مرةً أخرى , كان يأكل و هو يحيد بعينيه عن قطعة الخبز ليتأمل ملابسه التي تتسع عليه إلا أنها تكفي لستر عورة جسده و إن كان ضميره يُشير

صارخًا لعورة نفسه , سمع صوتًا خافتًا كأنما هناك أحدٌ ما يتسلل من خلفه , نظر خلفه و مسح الزقاق بعينيه فلم يجد شيئًا إلا أن حركةً سريعةً لمحها بطرف عينه جعلت جسده ينتفض و هو ينظر للأمام , هناك شخصٌ ما يقف متواريًا في الظلام , يكاد يُقسم أنه رأى حركةً من ذلك الركن المظلم , ترك قطعة الخبز أرضًا و تحرك بخطواتٍ متحفزةٍ تجاه الركن المظلم , تلفّت حوله ينظر للشيء الوحيد الذي يملكه من الدنيا قبل أن يفاجأ بحركةٍ سريعةٍ من الجهة المقابلة ... هل هو محاصر ؟؟

وصل بخطواتٍ خائفةٍ مترددة إلى الركن المظلم ليجد علبةً من الورق المقوى تقف وحيدةً في الظلام , شعر بحنقٍ فركلها بقدمه و قرّر أن يعود لتناول وجبته محاولًا أن ينسى الأمر مؤقتًا , إلا أنه فوجئ بجروٍ صغيرٍ أشعث الفراء يقف بجوار قطعة الخبز يشمها بأنفه الصغير , ابتسم تلقائيًا و هو ينظر له قبل أن يتحرك و يجلس بجواره , مدّ يده يتحسس فراءه و هو يحدّثه بصوتٍ ناعم :

" صغيري ... يبدو أنك جائع "

صغيران تائهان في دوامةٍ من القسوة أثارها إعصار الجفاء المميز لتلك الدنيا , مد يده يقتطع جزءًا صغيرًا من وجبته الصغيرة و هو يخاطب الجرو :

" الوجبة الصغيرة قد لا تسد جوع فردٍ واحد و لكن شعوره بالمشاركة و الودّ يسد جوع الآلاف "

و كأن الجرو يسمعه , تناول منه قطعة الخبز و صعد على قدميه و جلس يأكلها في سكون تام , مشى بيده الحرة على جسده و هو يأكل ببطء محاولًا أن يسد جوعه بلقيماتٍ صغيرةٍ قبل أن ينتبه إلى حركةٍ أخرى خافتة , نظر للجرو بابتسامةٍ صغيرة و هو يقول :

" هل لديك إخوة ؟؟ "

و قبل أن يردّ الجرو رأى الرجل الذي أمسكه يظهر من الظلام ممسكًا في يده بشطيرةٍ ساخنة , شهيّة المظهر زكية الرائحة , مد يده إلى الرجل الذي ناولها له بابتسامةٍ واسعة , أمسكها و تأمل قطع اللحم التي تطِلّ منها و قبل أن يقضمها , توقف , شمّ رائحتها الشهية مرةً أخرى قبل أن يقتطع نصفها و يعطيه للجرو الصغير؛ نظر له الرجل بتعجب , الفتى برغم جوعه إلا أنه يأبى إلا أن يشارك وجبته مع الجرو ؛ أنهى الطفل وجبته بشهيةٍ بالغة, قبل أن ينظر للرجل و يهتف له بالعربية :

" شكرًا "

أعطى الرجل ظهره و مشى بخطواتٍ بطيئةٍ منتظرًا أن يناديه الرجل كما يحدث في الأفلام إلا أنه فوجئ عندما سمع الرجل يرد عليه بلكنةٍ عربيةٍ مميزة :

" عفوًا "

ثم يلتفت ليغادر الزقاق , توقف للحظاتٍ قبل أن يجري للرجل و هو يسبقه ليعترض طريقه و هو يسأله بلهفة :

" هل تتحدث العربية ؟؟ "

نظر له الرجل بلا ردٍّ قبل أن يبعده عن طريقه بيدٍ قاسيةٍ و هو يرحل , طارده بهاء للمرة الثانية و هو يقول له :

" سيدي ، من فضلك أجبني ؟ "

نظر له الرجل بعينين مات فيهما الإحساس قبل أن يرحل و هو يجيبه بصوت واثقٍ خشن :

" إتبعني "

تهلّل وجه الطفل و هو ينادي جروه :

" هيا يا شادو... يجب أن نتبع السيد "

جرى الكلب و هو يقفز في أحضان بهاء الذي تبع سيده الجديد الذي يمشي بخطواتٍ واثقةٍ لا يلتفت خلفه ليرى هل بهاء يتبعه أم لا؛ دخل السيد إلى بوابةٍ حديديةٍ لمخزنٍ مهجور و بمجرد أن عبرها بهاء زام الجرو و زمجر بشدةٍ قبل أن يشعر بهاء بآلاف الفولتات الكهربائية التي

تسري في جسده , تماسك و هو يصرخ و يسقط على قدميه , نظر للسيد برجاء و رأى على ملامحه علامات الغضب , الكلب ينظر له باستعطاف , أخيرًا نطق الرجل كلمةً واحدةً بتلك اللغة التي يجهلها بهاء لتتوقف الكهرباء عن احتلال جسده و تعود لثكناتها في ذلك الصاعق الذي يحمله الفتى الذي لم يره بهاء , اقترب منه الفتى , ظهرت علامات الفزع على وجه بهاء إلا أن الفتى حمله , كان قويّ البنية أبيض البشرة , وجهه صارم قاسٍ , حمله و هو يدخل به إلى داخل المخزن ليتأمله بهاء بعينين منهكتين و هو يستمع لصوت كلبه يناديه .

*****

جلس شريف على مقعده و هو يفكر في الأمر ... الأمر منذ بدايته كان غريبًا محيرًا , شيءٌ ما بعث في نفسه الخوف إلا أنه الآن و هو يجلس وحيدًا كان يرتّب أفكاره بهدوء , جريمةٌ منظمةٌ مرتكبةٌ ببشاعةٍ لا تخرج سوى من مريضٍ نفسي , هذا الطفل الذي ينام واضعًا إبهامه في فمه يمتصّ منه الطمأنينة لا قِبَل له بمثل هذه البشاعة , هذه جريمةٌ منظمةٌ خرجت من غياهب عقلٍ إجراميٍ و دقات قلبٍ قتلته القسوة فأصبح يدقّ بالشر , يبعث الفساد في العروق مجراه بدلًا من الحياة , شخصٌ لو جُرِح لنزف شرًا و سوادًا و لكن من هذا الشخص ؟؟ سينتظر ليعرف نتائج بحث زميله عمرو في هذا الأمر.

تأمّل المصباح الذي يتذبذب فيه الضوء بين غدوٍ و مجيء قبل أن يستقر على أن يضيء لكي لا يزيد الأمر سوءًا

سمع صوت خطواتٍ تقترب فتحسّس مسدسه في ارتباك , رأى الطبيب المسؤول عن الحالة يقترب و على شفته ابتسامةٌ مطمئِنةٌ رسمها عندما رأى يد شريفٍ على مسدسه , بادله شريفٌ الابتسام و هو يقول:

" مرحبًا "

" مرحبًا يا سيد شريف "

اتّسعت ابتسامة شريفٍ بارتياح عندما رأى الابتسامة لا تفارق وجه الطبيب ؛ اطمأن الطبيب على الطفل فقال لشريف :

" أنا أجلس في الاستراحة ... لماذا لا تأتي لتجلس معي قليلًا "

نظر شريفٌ لغرفة الطفل في تردّد ففهم الطبيب الأمر , أخرج من جيبه سلسلة مفاتيح, انتقى منها مفتاحًا و أحكَم إغلاق الغرفة و هو ينظر لشريفٍ الذي قال بصرامة رجل الأمن :

" إسمح لي أن أذيقك الشاي الخاص بي "

" حسنًا ... موافق "

وصلا إلى الاستراحة , ذهب الطبيب ليجلس على أريكةٍ جلديةٍ مريحة بينما أشار بيده لبرّاد شايٍ كهربائيّ و زجاجة ماءٍ و بضعة أكوابٍ نظيفة تقف بجوارها علبة شايٍ و علبة سكر ؛ لم تمرّ دقيقةٌ و كان شريف يعطي كوب الشاي للطبيب الذي أمسكه و هو يقول لشريف :

" الطبيب الموجود بداخلي يخبرني أنك تريد أن تسأل "

ضحك شريفٌ و هو يقول بصوتٍ مرح :

" يجب أن تعمل معنا في قطاع الشرطة "

لابد و أن يعترف شريف أن هذا الطبيب أزال الخوف و التوتر من داخله بأصابع جراحٍ ماهر , لحظة صمتٍ سادت قبل أن يتحدث الطبيب مرةً أخرى :

" تريد أن تعلم عن حالة الطفل ... أليس كذلك ؟ "

لمعت عينا شريف في إعجابٍ بفطنة و ذكاء الطبيب الذي تابع عندما رأى الإيجاب في ملامح شريف :

" هل سمعت من قبل عن مرض التوحد ؟؟ "

" أعرف عنه القليل "

اعتدل الطبيب و بدأ يتحدث بصوتٍ هادئٍ رخيم .

*****

العام 1941

الولايات المتحدة الأمريكية

" ليو كانر " طبيبٌ أمريكيٌّ يجلس على مكتبه ينحني لقراءة آخر ورقات بحثه العلمي الأخير الذي يستعد لنشره , وجه يمتلئ بالطيبة و كأنما هربت الطيبة من هذا العالم لتسكن قسمات وجهه مجاورةً لنظرات الأمان التي تطلقها عيناه , وجهٌ هادئٌ أبيض لا تملُّ من النظر إليه , عيونٌ ضيقةٌ صغيرةٌ يعلوها حاجبان خفيفان يجلسان في حراسةٍ للأعين مزيّنان لجبهةٍ عريضةٍ انحسر الشعر عنها احترامًا لما يجري بداخلها من مخٍ عبقريٍّ يغلي بالأبحاث العلمية و كلما نضج أحد هذه الأبحاث أعطى الأمر ليتوقف ضخّ الدماء في العروق و يضخّ بدلًا منها إكسير العبقرية , لحظاتٌ و يكون ليو قد فهم اللعبة لتعود الأمور لمجرياتها الطبيعية بينما يبتسم العقل بخبث المدير الناجح الذي يسيطر على موظفيه , شعرٌ هادئٌ يتوج هذا الوجه و قد صففه كانر على الجانب الأيمن , أنفٌ متوسط الحجم يعلو فمًا صغيرًا , ملامحٌ لا يمكن أن تنساها ...

ابتسم كانر في زهوٍ و هو ينظر لبحثه قبل أن يمسك قلمًا من على المكتب و يكتب بخطٍ منمّقٍ حسن:

" في الدفاع عن الأمهات : كيف تنشئ الأم طفلًا أفضل مما يفعل الطبيب النفسي "

نظر للعنوان و هو يخطُّ أسفل منه بخطٍ صغير رقم (3) ... هذه ورقته العلمية الثالثة , الأولى كانت عن الأسنان و حققت نجاحًا لا بأس به , و لكن الثانية كانت المفجِّر الرئيسي لحماسه و بقعة الضوء التي أشارت على عبقريته و فضحتها أمام العالم الذي وقف له انبهارًا *" التوحد الطفولي"* التي نشرها في العام 1943

ابتسم عندما تذكر هذا البحث , لاحظ كانر أن هناك عددٌ من الأطفال الذين يختلفون عن الباقين , بالطبع تم تصنيفهم كمرضى و تم إيداعهم في المصحات بدون إلقاء أي سبب , هذه هي آفة البشر , كل مختلفٍ منبوذ دون البحث عن أسباب إختلافه !

برغم أن كل من غيروا التاريخ كانوا مختلفين !!

كل من اخترعوا اختراعاتٍ غيّرت مجرى العالم كانوا مختلفين !!

كل السفاحين و سافكي الدماء كانوا مختلفين !!

هل تتخيل مجرى العالم دون المختلفين !! بالطبع كان سيكون مكانًا هادئًا للغاية و هذا ليس بالأمر الجيد .

تذكّر أنه وقتها كان طبيبًا بمستشفى جامعة " جونز هوبكنز " ببالتيمور في ولاية " ماريلان " , 11 طفلًا حددهم كانر و درسهم جيدًا قبل أن يكتشف شيئًا مهمًا , كان كانر يدرس هؤلاء الأطفال عندما تسلل ملاك العبقرية ليصيبه بسهمٍ يحمل عدوى من نوعٍ خاص !

لاحظ كانر أن هؤلاء الأطفال يشتركون في العديد من الصفات التي تميزهم عمن دونهم , لحظتها توقف و أخرج مفكرته الصغيرة و أخذ منبهرًا متسع الأعين مرتعش الجسد يُسَجِّل تلك الأعراض في سرعةٍ و كأنه يخشى أن يُشفى من ذلك المسّ الذي أصابه قبل أن ينتهي , بخطٍّ مرتعش كتب كانر:

- انعزاليةٌ توحديةٌ مفرطة
- تأخر وانحرافٌ في اللغة
- ترديد الكلام
- ذاكرةٌ قويةٌ ومقدرةٌ على الحفظ
- حساسيةٌ مفرطةٌ إزاء المؤثرات الخارجية
- الرفض الشديد للتغيير
- تنوعٌ محدودٌ للنشاط العفوي والتلقائي
- قدراتٌ إدراكيةٌ فائقة
- مظهرٌ جسديٌّ طبيعي

توقف كانر و قرأ ما كتبه بحاجبين مرفوعين و كأنه يقرأه للمرة الأولى , وجد أنه لو نشر هذا الكلام لربما لن يفهمه العامة , يجب أن يبسّطه قليلًا , انهمك في بحثه يبسّطه شيئًا فشيئًا حتى وصل لصيغةٍ نهائية , أنهى بحثه و قدّمه للعالم و لم يكن يدري أنه بهذا البحث يهدي العالم هديةً و أن العالم سيكون سخيًا معه بما فيه الكفاية فيأتي بهالة من نور يكسرها و يستخدم النور المتسرب منها ليكتب اسم " ليو كانر " بأحرفٍ منيرةٍ لن ينساها التاريخ قط !

ليو كانر أول من اكتشف مرض التوحد في التاريخ و قد شكّلت أبحاثه و أبحاث الطبيب النمساوي " هانز أسبرجر " مراجع لكل من يهتم بذلك المرض المحيّر...

مرض التوحد !...

*****

العام 1799

غابة أفيرون في فرنسا

تلفت الصيادون الثلاثة حولهم في توتر , هناك شيءٌ ما يتحرك ببطء بين الأحراش , لا يخشون شيئًا و لكن المجهول دائمًا ما يثير في النفس التوتر , ربما لو ظهر لن يشعروا بهذا القلق ... فجأةً ... أشار أحدهم لزميليه أن يصمتا تمامًا , تجمّد المشهد و خشي الهواء أن يتحرك خوفًا

من إفساد تلك اللوحة الفنية التي رسمها الخالق ببراعة , ثلاثة صيادين يتوقفون في حالة جمود بينما هناك أجمةٌ صغيرةٌ كثيفة الأوراق الخضراء تهتز و كأنها تخشى ما يختبئ خلفها , أخيرًا تحرك الصياد الأول في بطءٍ و أشار لزميليه أن يتحرك كلٌّ منهما لاتجاه , شكّل الثلاثة مثلثًا متساوي الأضلاع , ضلعٌ من خوف و ضلعٌ من ترقب و ضلعٌ من توتر , و أشار لهما أنه سيفتح الأجمة و عليهما الإمساك بما بداخلها.

أو قتله !

فتح الأجمة و توقف الثلاثة في ذهول قبل أن تردد الغابة صوت زئيرٍ غريب ,و صوت صراخ !

العام 1799

بلدة قريبة من غابة أفيرون

تقف سيدةٌ عجوز , أرملةٌ ظلمها الزمان فانحنى جسدها احترامًا لقسوته و ارتجف بدنها أمام هيبته , وقفت أمام أحد الصيادين الثلاثة تبكي و هي تقصّ عليه كيف هرب منها " فيكتور " ... ذلك الفتى المتوحش الذي وجدوه في الغابة منذ فترةٍ قليلة , و قد كان يزأر و يأكل و يمشي مثل الوحوش و الضواري , هرب منها و توجه للغابة مرةً أخرى .

ظهر الغضب على وجه الصياد و هو يعدها أن يجد ذلك الوقح و أن يبعث به إلى إحدى المصحات المسؤولة عن مثل حالته .

دخل إلى الغابة و هو ناقمٌ على هذا الفتى الحاقد على النعم التي وفرها له و قد ركلها الفتى بلا مبالاة , حسنًا ستذهب للمصحة و لنرى أيهما أحن عليك من الآخر...

سيدةٌ عجوزٌ تمثل نبعًا لنهرٍ جارفٍ من الحبّ و الحنان أم أطباءٌ لا يعرفون سوى لغة الأسلاك و التوصيلات الطبية و الأهم أنك أخيرًا ستنسى طعم أكل السيدة الشهي و تتذكر طعم المشارط الحادة !

أيها الجاحد !!

العام 1799

المعهد الوطني للصم و البكم

أنفٌ حادٌّ يتوسط عينين بنيتيّ اللون تُشِعّان ذكاءً حادًا يتوسّط الجميع وجهًا أبيضًا حسن المظهر متوجًا بشعرٍ مموّجٍ بنيّ اللون , و الجميع مزينٌ بابتسامة أمَلٍ تكفي لصلاح العالم بأسره , كانت هذه هي الملامح المميزة للطبيب الفرنسي " جون مارك جاسبار إيتارد ".

عمل " إيتارد " لفترةٍ من الوقت كجراحٍ في الجيش الفرنسي قبل أن يتخصص في أمراض الأذن و تعليم الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة .

جلس إيتارد وسط زملائه و قد جمعهم ليخبرهم أمرًا قرر أنه سيكون مفاجأةً لهم , كان الجميع يحترمه و يقدّر نبوغه و اجتهاده في العمل؛ بدأ إيتارد حديثه بابتسامةٍ هادئةٍ و هو يشرح لهم حالة فيكتور...

فيكتور الفتى الذي أتى للدنيا مغمض العينين قبل أن تصفعه الطبيعة بحنان , تأكدت أنه حي يرزق فقررت صفعه بقسوة !

وجد نفسه ملقًى في غابةٍ باردةٍ , بدون طعام , بدون شراب , بدون رعايةٍ و بدون مأوى !

كيف استطاع فيكتور النجاة حتى سن الثانية عشر ! هذا أمرٌ لا يزال لا يعرفه سوى الطبيعة و خالقها !

عندما حوصر فيكتور من الثلاثة صيادين نسي طبيعته البشرية و تحوّل لوحشٍ مفترسٍ يزأر و يخمش و يصرخ و لكنهم تمكنوا منه , حملوه لقريةٍ صغيرةٍ و أشرفت عليه سيدةٌ عجوزٌ جميلة , حنان الأم كاد يحوله لبشريّ و لكنه عندما يحاول الابتسام ينقضّ الوحش بداخله على تلك الابتسامة الرقيقة ليمزّقها و يذكره بأنه وحشٌ و ليس بشرًا !

أراد حريته فهرب !! بهذه البساطة .

و لكن الصياد قبض عليه و انتهى به الأمر في المعهد الوطني للصم و البكم , كحالةٍ ميؤوسٍ منها تركوه و لكن إيتارد الحالم لم يفقد الأمل في تلك الحالةْ , أخبر زملائه أنه سيأخذه لمنزله ليربيه و يعلمه !

دقائق من الصمت ظهرت فيها سحابةٌ غائمةٌ فوق رؤوس زملائه قبل أن يشقها بردُ المرح فتنفجر باكيةً ممطرةً ضحكاتٍ ساخرة ... تلقاها إيتارد بدرعٍ خفيٍّ من إصرارٍ و رغبة و هزمها جميعًا و رحل مصرًّا على تنفيذ قراره

<u>العام 1804</u>

<u>بيت الطبيب الفرنسي " إيتارد "</u>

بعد خمس سنواتٍ يتأمل إيتارد الآن بنفسه ما وصل إليه الأمر ... خمس سنواتٍ مرّت منذ سخِر منه الجميع و الآن فيكتور تعلم العديد من الإشارات , بعض الكلمات التي يستطيع التعبير بها عن احتياجاته , تعلم القليل من المهارات العملية , مهارات الاعتماد على النفس التي كان أبرزها ما يحدث أمامه الآن , فيكتور يتناول طعامه بالشوكة و السكين !

مع ذلك لا يعتبر إيتارد الأمر نجاحًا !! ... مسحةٌ من الحزن ظهرت على وجهه و هو يتأمل فيكتور الذي لا يزال يواجه صعوبةً شديدةً في التكيف الاجتماعي , لم يستطع أبدًا أن يستقل بذاته , لم يستطع

التحدث بشكل تام و بطلاقة , عجز عن نقل المعرفة و التعلم و الخبرة لشخص آخر !

فيكتور كان أول حالةٍ في التاريخ لمرض التوحد !!

أول الحالات على الإطلاق .

*****

أنهى الطبيب كلامه بابتسامةٍ تسمح لشريف بالتعقيب , اتّسعت عينا شريفٍ الذي تمتم و كأنه يحدث نفسه و يردّد الأعراض التي أخبره بها الطبيب منذ قليل :

" انعزاليةٌ توحديةٌ مفرطة ... (توقف الطبيب و هو ينظر له بدهشةٍ بينما الطفل يهرب بعينيه من لقاءٍ كأنه يخاف أن تفضحه عيناه) "

" تأخرٌ وانحرافٌ في اللغة ، ترديد الكلام ... (كان الطفل يغلق فمه بعنفٍ بينما ينبع الهدير من داخله ... يصرخ و لكنه مغلق الفم) "

" حساسيةٌ مفرطةٌ إزاء المؤثرات الخارجية ، الرفض الشديد للتغيير ... (فتح الطفل عينيه بعنف, و هو يتأمل الجدار الموجود أمامه قبل أن يفتح فمه عن صرخةٍ مريعة) "

" تنوّعٌ محدودٌ للنشاط العفوي والتلقائي ... (الأمر العجيب أنه يتأرجح بجسده الصغير للأمام و للخلف في سرعةٍ كبيرة ... يرتجّ بعنف) "

" رباه ! كأنك تصف ما رأيناه للمرة الأولى عندما وجدنا الصبي "

اتّسعت ابتسامة الطبيب و هو يستكمل شرحه للحالة :

" التوحد يعتبر إعاقةً في النمو تصاحب الأشخاص المصابين بها لتؤثر على الطريقة التي يتحدث بها المريض و على طريقة تواصله مع من حوله من الأشخاص , الشخص المتوحد عبارةٌ عن كتلةٍ من المواقف و الأماكن و الأصوات , من الممكن أن تقضي وقتًا طويلًا بجواره تستمع لمقطع صوتي يصدره ، محاولًا فهمه بينما قد يكون يقتل الوقت بإصدار مجموعةٍ من الأصوات التي لا علاقة لها ببعضها , التوحد مرضٌ بلا علاج و لكن مع الرعاية الجيدة و متابعة العلاج المبكر و المكثّف قدر الإمكان يمكن أن يَحدث تغييرٌ جديٌّ و ملحوظٌ في حياة المصابين به , هناك ثالوثٌ يعاني منه كل المصابين بالمرض ... هل استنتجته من حديثي ؟ "

ابتسم شريف و قد لاحظ أن الطبيب يغازل فيه الحس الأمني الذي من المفترض أن يقرأ ما بين السطور ... لذلك بصوتٍ هادئٍ واثق بدأ يجيب :

" اللغة أولهم ، يليها السلوك ... أما الثالث .... "

لم يعرفه فتظاهر بشرب الشاي لكي يسرق لنفسه لحظاتٍ للتفكير و لكن الخدعة لم تنطلِ على الطبيب الذي فضل ألا يحرجه فقال :

" العلاقات الاجتماعية "

ابتسم شريف لللمسة الرقيقة من الطبيب الذي أنهى كلماته قبل أن يتبعها بجملةٍ مرحة :

" أنا محاضرٌ ممل ... لهذا اخترت العمل في المستشفيات و رفضت أن أعيّن معيدًا في الكلية "

أجاب شِريف في سرعة :

" بالعكس تمامًا ... أنت محاورٌ جيدٌ و محاضرٌ لبق "

" إذًا هيا بنا لنطمئن على الطفل و نعود لاستكمال حديثنا "

قام الإثنان و أصرّ شريفٌ ألا يخرج من الغرفة إلا بعد أن يغسل الأكواب جيدًا ... خرجا من الغرفة و تباطأ شريفٌ قليلًا خلف الطبيب و هو منهمكٌ في تجفيف يديه ... فتح الطبيب الغرفة و قبل أن يدخل فتح فمه في ذهول و ارتجف جسده بالكامل و هو يقول بصوتٍ متوتر:

" شريف ... يجب أن ترى هذا !! "

أسرع شريف إلى الغرفة قبل أن يتسمر بجوار الطبيب و هو يهتف بصوتٍ مرتجف :

" مستحيـل ! "

*****

لسوء حظه لم يفقد بهاء الوعي مما أعطى للألم نشوةً غريبة , كان يسري في عروقه يجاور دماءه و يسابقها وصولًا لجسده المنهك ليزوره زياراتٍ مليئةٍ بالوجع , كلّ ذرّة ألمٍ تقافزت في مرحٍ لحضور سيدها , أخيرًا انتهى إله الألم من فرض سيطرته على جسده المنهك و بدأ يعود للواقع ... بدأ يتأمل المكان , كان بداخل مخزنٍ مهجورٍ أحمر الجدران , غير مرتب , بضع أشياء مبعثرةٌ هنا و هناك تقضي وقتها مللًا في ثباتٍ لا تغيره , كان جسده مسجّى على منضدةٍ معدنيةٍ باردة , اعتدل يتأمل كلبه الجالس ينوح تحته , أشار له بصفارةٍ خافتة صاحبَها ارتفاع إصبعه أمام شفتيه يأمره بالصمت , استجاب له و اعتدل و هو يصعد بجواره على المنضدة , تحسس فروه الناعم بيديه و هو يتأمل المكان من حوله حتى توقفت عيناه أمام الباب المعدني ... لحظاتٍ فكر فيها حتى وصل لحقيقة أنه لو فتح هذا الباب فسيلفت الأنظار له و هو في غنًى عن هذا الأمر , زمجر بصوتٍ منخفضٍ في ضيقٍ محدّثًا جروه :

" ماذا الآن؟ ... يبدو أننا في سجن ! "

نظر له الكلب بعينين بريئتين قبل أن يقفز من فوق المنضدة و يعدو لمنتصف المخزن نابشًا في الأرضية للحظات و هو يتابعه بعينيه , لم يفهم ما الذي يحدث , لحظاتٌ مرّت قبل أن يقبض الجرو بأسنانه على قبضةٍ معدنيةٍ مثبتةٍ في الأرض , انتفض بهاء و قام متجهًا إليه , حركته السريعة أصابته بالدوار فترنّح للحظةٍ قبل أن يستعيد توازنه و هو يتجه له , جلس على ركبتيه يتأمل القبضة المعدنية المثبّتة إلى بابٍ

خشبيٍّ صغيرٍ مربع , جذب اليد فرُفِع الباب الصغير ليفتح كوّةً تسمح بمروره , كان المكان بالأسفل منيرًا بمصابيح صغيرة مثبتة على جانبيه , نظر لجروه في تساؤل أجاب عنه الجرو عندما اندفع للأسفل متقافزًا على درجات السلم , لم يملك إلا أن يتبعه مع مراعاة تركه للباب مفتوحًا كمخرجٍ خلفيٍّ إذا استجدّ أي جديد : نزل للأسفل متأمّلًا الجدران المتعرجة التي تظهر بها منحنياتٌ و فراغاتٌ كأنها تجاعيد الزمن , هبط ليجد بابًا مغلقًا , وقف أمامه للحظاتٍ قبل أن يحسم أمره , تحسّس جسده الخشبي بحثًا عن مقبضٍ يسبر به أغوار المكان , أمسك المقبض و هو ينظر لكلبه نظرةً مليئةً بالاستعداد و الحماس , فتح باب الغرفة ليجدها مظلمةً تمامًا لا يرى منها شيئًا , بحث بيده حتى وجد زر الإضاءة , نفسٌ عميقٌ ترك العالم و اتخذ من صدره مسكنًا قبل أن تنير الغرفة , ارتجف جسده بشدةٍ و هو يتأمل الغرفة و الموجودات بها قبل أن يشعر بصوت خطواتٍ تنزل السلم ... لو قتلوه لن يدخل تلك الغرفة الملعونة , أغلق الباب و هو يحاول تناسي ما رآه بالداخل منتظرًا قدره الهابط على السلم في يأسٍ و خوف.

*****

تأمل شريفٌ الغرفة من الداخل بذهول , مرّت لحظاتٌ و هناك العديد من الأفكار تتصارع بداخل رأسه , تحرّكت يده تلقائيًا لتفتح الجراب الخاص بمسدسه قبل أن تتشكل أصابعه على شكلٍ معيّنٍ استعدادًا لتحرير المسدس إلا أن قبضة الطبيب أمسكت يده , التفت ببطءٍ

يتأمل ملامح الطبيب و كأنه يراه لأول مرّة , كان منفصلًا بكيانه عن الواقع متأملًا الغرفة .

جميع الموجودات بالغرفة تراصّت على شكل دائرةٍ مركزها جسد الطفل :

الوسادة

كتابٌ صغير

سماعة طبيبٍ كانت موجودةً على المنضدة

قلمٌ يبدو أنه كان ضائعًا من أحدهم

كل الموجودات بالكامل شكّلت دائرة : نظر الطبيب لشريفٍ و هو يُمسك يده قبل أن يتحدث بصوتٍ هادئٍ واثق :

" من الممكن جدًا أن يلجأ المتوحد لفعل أشياء عديدة كمحاولةٍ لِلفت النظر إليه أو محاولةٍ لتوصيل رسالةٍ ما لا يستطيع إيصالها لنا بسبب افتقاره لأدوات التواصل اللازمة "

" هل ... هل تقصد أنه فعل ذلك ؟؟ "

" لم يدخل غيره الغرفة ... طبعًا هو ... ليست هذه المشكلة التي علينا الوقوف أمامها الآن ... هناك مشكلة أهم "

" ما هي ؟ "

" المشكلة الآن هل فعل الطفل ذلك بهدف لفت الأنظار له ! ... أم أن هناك رسالةً معينةً يحاول أن يوصلها إلينا من رسمه لتلك الدائرة ؟ "

" دكتور ... هناك أمرٌ ما أريد أن أحدّثك فيه و لكن علينا أن نخرج من تلك الغرفة "

" حسنًا "

دخل الطبيب للغرفة و هو يضغط زرًا صغيرًا يقبع ساكنًا بجوار الطفل , ضغطة الطبيب أيقظته فأطلق أزيزًا محتجًا قبل أن يعود لسباته مرةً أخرى , ابتسم له الطبيب معتذرًا قبل أن يصحبه خارج الغرفة و يغلق الباب من خلفه برفقٍ كي لا يزعج الطفل النائم في سبات عميق .

ذهبا إلى الاستراحة مرّةً أخرى و جلس الطبيب بجوار شريف قبل أن يومئ برأسه إيماءةً تعني إشارة البدء ليقصّ ما عنده , ابتسم شريفٌ في حرج, و هو يحاول أن يرتّب أفكاره لتخرج بشكلٍ منسّقٍ حسن الهيئة , أخيرًا قرر أن يقصّ له شكوكه في الأمر :

" في الحقيقة أنا أعتقد أنها ليست حالة توحد ... و قبل أن تتهمني بضيق الأفق أو الجنون أذكّرك أنك لم ترى ما رأيت "

" و ماذا رأيت أنت ؟ "

صمت شريف للحظاتٍ قبل أن يقصّ عليه :

" سأقصّ عليك كل شيءٍ و لكن فلتعلم أنها أسرار مهنتي ... لن تسرّب سرًا واحدًا للخارج ستقضي على مسيرتي المهنية بأكملها "

هزّ الطبيب رأسه مطمئنًا إياه فتابع شريف بنبرةٍ حملت ارتياحًا :

" منذ البداية كانت جريمة القتل بشعة و لا يمكن لبشريٍ مهما كانت قسوته أن يرتكب مثلها , فعلٌ شيطانيّ المصدر و شيطانيّ التنفيذ ... لم يكن هذا فقط ما حيّرني , الطفل نفسه كان يضع يديه على أذنيه و يغلق عينيه بقوةٍ و كأنه يحمي نفسه من شيءٍ ما رآه أو سمعه ... الضوء انقطع بينما نحن نتحرى الأمر و عاد بمجرد أن خرج الطفل من الشقة ... الأمر محيّرٌ للغاية بحق! "

" ماذا تريد أن تقول ؟؟ "

" أشك أن الأمر ليس مجرد حالة توحد ... الأمر خرج من نطاق المرض و دخل حيّزًا آخر أكثر شرًا و أشد طرًا "

" لازلت لا أفهمك ... ماذا تريد أن تقول ؟؟ "

صمت شريفٌ و هو ينظر للأرض , لاحظ رعشةً خفيةً في يده اليسري ناتجةً عن توتره , أخفى يده تحت قدمه و هو ينظر للطبيب في عينيه و

هو يخبره , ارتعش جسد الطبيب عندما سمع الكلمة التي نطق بها شريف و دارت عيناه في محجريهما بقلق , ابتلع ريقه بصعوبةٍ و هو يجفّف العرق البارد الذي نبت في تربة جبينه الخصبة , دقّ قلبه بعدة ضرباتٍ سريعةٍ و هو يبحث عن كلماتٍ يردّ بها عليه , حاول أن يُغمض عينيه ليستعيد تركيزه و لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه , يشعر كما لو كان لن يستطيع إغماض عينيه الليلة مرةً أخرى , قطع حبل مخاوفه و قلقه أزيزٌ حادٌ من غرفة الطفل مع صوت الممرضة التي تناديه بلهفةٍ في المذياع الداخلي الخاص بالمصحة ...خرج يعدو بأرجلٍ هتك عرضها القلق و من خلفه شريفٌ الذي ندم على تصريحه , وقفا أمام الغرفة يتأملان الطفل الذي يفعل شيئًا غريبًا للغاية , ابتلع الطبيب ريقه بصعوبةٍ مرةً أخرى و هو يقول :

" أنت متأكد مما تقول ؟ "

هزّ شريف رأسه ... صمت الطبيب و هو يستعيد كلمات شريف بصوتٍ خافت ...

" إستحواذٌ شيطانيّ ! "

*****

صوت طرقات الكعب الذي ينزل السلم ببطء , بالإضافة لحرارة الغرفة , الانتظار و ارتفاع درجة الحرارة لو تواجدا فالتوتر ثالثهما , أخيرًا

ظهر الرجل الأشقر و من خلفه شابٌ أسمرٌ بشع الخلقة و شابٌ آخر عريض الجسد ممتلئه , يحمل أحدهما منشارًا كهربائيًا و يحمل الآخر حقيبةً قماشيةً فارغةً و صاعقًا كهربائيًا , عندما رأوه توقفوا , ابتسم الأشقر و الأسمر بينما تحفّز الممتلئ ؛ حاول التحرك إلا أن إشارةً صارمةً بيد الأشقر منعته من التحرك , ضغط الأسمر على زرّ الصاعق الكهربائي ففرقع بعنف , شعر بهاء أن الصاعقة الكهربائية الصغيرة التي صدرت من الجهاز تبتسم بشهوةٍ و هي تتذكر ما فعلته به شقيقتها السابقة , فهم بهاء الرسالة فأشار للكلب الذي نام أرضًا و قد مدّ رأسه في استسلام بينما هبط بهاء على ركبتيه و هو يشبك يديه خلف رأسه في استسلام , اتّسعت ابتسامة الرجل و هو يقول بصوتٍ رخيم :

" إعتدل "

اعتدل بهاء في بطءٍ و عيناه تجولان على الثلاثة أجساد , تشمشم بأنوفها عن رائحة الغدر و الخيانة إلا أنها لم تجد فعادت إليه مطَمئِنة مُطْمَئِنة .

وقف بهاء و هو يزيلُ الغبار عن ملابسه , مدّ الأشقر يده إليه و هو يطمئِنه بابتسامةٍ ودودة , مدّ بهاء إليه يده و بمجرد أن لمست يد بهاء يده حتى جذبه بعنفٍ و هو يُدير جسده الصغير و بمجرد أن أصبح ظهر بهاء مواجهًا له حتى جذبه إليه سريعًا و بحركةٍ سريعةٍ أخرج سكينًا حادًا وضعه على رقبة بهاء بعنف و هو يقول بصوتٍ خشن :

" أعطني سببًا واحدًا يجعلني لا أقتلك الآن ؟ "

تحفز الكلب و زأر بعنف و كاد يهجم على الأشقر إلا أن بهاءً قد أشار له بيده فاستكان منكسرًا يراقب الوضع بعينين دامعتين ... حاول بهاء أن يتحدث إلا أن صوته خرج خافتًا مختنقًا :

" أعطني سببًا واحدًا يجعلك تقتلني ؟ "

ضحك الرجل حتى تحشرج صوته من الضحك , بصق على الأرض بعنفٍ و هو يقول :

" سأعطيك أسبابًا عدة : أنا في مركز القوة ... سكيني على شريان حياتك ... تدّخلتَ في عملي بدون إذن ... رأيت ما لا يجب أن ترى "

ضغط طرف السكين و هو يحركه ببطء , خيطٌ رفيعٌ من دماءٍ مشى متتبعًا خطوات السكين قبل أن يشعر بهاء بالألم فتبكي رقبته دمًا من أثر الجرح , شعر بهاء بالدماء الدافئة فهتف بصوتٍ مختنق :

" لالا ... إنتظر ! "

رفع الرجل السكين و إن لم يبعده عن رقبته , و قال بصوت أجش :

" تكلم ! "

شعر بهاء بأن الهواء الذي يتنفسه قد صار أغلى و أثمن , تحدّث بسرعة :

" لم أرَ شيئًا و كنت أبحث عن شادو الذي كان ينام هنا ... بمجرد أن هبطت لأجد شادو وجدتك خلفي "

نظر الرجل للكلب و له بشكٍ للحظات قبل أن يقول :

" و لم تفتح الباب ؟؟ "

أشار بهاء للباب بيده و هو يقول :

" أي باب ؟؟ هذا ؟؟ أقسم لك أني لم أفتحه "

تركه الرجل يسقط أرضًا يتحسس جرح رقبته و هو يسعل بعنف و هو يقول :

" هل تعلم ... سأضمك لقائمة رجالي و ستعمل معي ... هل تعلم لماذا؟"

سأل بهاء بخوف :

" لماذا ؟ "

" لأنك تجيد الكذب ! "

سعل بهاء و هو يعتدل و يقف أمام الرجل و يقول :

" ماذا تعني ؟ "

" أنت دخلت الغرفة ... أُنظر ! "

أشار الرجل لوريقةٍ صغيرةٍ كان يضعها بين الباب و إطاره و بمجرد أن تفتح الباب تسقط أرضًا , ابتسم بهاء لحنكة الرجل و حذره؛ مد الرجل يده إليه مرةً أخرى , ابتسم بهاء و مد يده إليه فكرر الرجل فعلته , جرحه بالسكين في عنقه مرة أخرى و هو يقول بصوتٍ أجش :

" إذا أردت أن تكون من رجالي لا تثق في أي شخص ... و لا حتى أنا !! "

ثم دفعه و ألقاه أرضًا , أشار لتابعَيه , أوقفه الأسمر و فتح الرجل باب الغرفة و تبعه الثلاثة , بمجرد دخول الغرفة و التوغل بداخلها ... تجد أن الهواء النقيّ يفرّ فزعًا من داخل الغرفة ليترك الروائح الكريهة تحتلها و ترفع عليها علَمها الذي يحمل علامة الموت !

عشرات الجثث الآدمية معلقةٌ رأسًا على عقب , جثث رجالٍ و سيداتٍ و أطفالٍ تتدلى من سلاسل معدنيةٍ مثبتةٍ في السقف تنتهي بخطّافٍ ضخمٍ يضم عرقوبي القدمين , تتأرجح بشدةٍ نتيجة إبعاد الرجل و رفيقيه , جثثٌ مفتوحةٌ و تبدو فارغةً من الداخل و تحتها دلاءٌ معدنيةٌ قذرةٌ و صدئة؛ الكلب يزوم خارج الغرفة و يئنّ بألم, يرفض دخولها , تلفّت بهاء حوله و هو يراقب الغرفة بأعينٍ تبكي رعبًا , لم يتحمل بهاء المنظر فانحنى على دلوٍ معدنيٍّ صغيرٍ موضوعٍ أرضًا , بمجرد أن رأى ما

يقبع بانتظاره داخل الدلو حتى تقيأ فيه بشدّةٍ و هو يسمع ضحكات الرجل و رفيقيه تتردد في سخريةٍ عليه , لم يتحمل فتقيّأ مرةً أخرى .

*****

وقف شريف يتأمل المكان أمامه بذهولٍ غير مصدّق , الغرفة الآن مقلوبةٌ رأسًا على عقِب , الهدوء الذي يسود أرجاء المصحّة تحول لضوضاءَ تداخل فيها صراخ الممرضات و صوت الإذاعة الداخلية و صوت أزيز جهازٍ طبيٍّ ما بالإضافة لأنّات ألمٍ واضحة , نظر شريف للطبيب الذي يقف بجواره و الذي استبدل هدوءه و ابتسامته بخوفه و توتره الجليان على وجهه الآن .

هناك ممرضةٌ مسجيةٌ أرضًا تسنُد جسدها اثنتان من زميلاتها و قد انغرس قلمٌ في كتفها من الخلف , الدماء تُغرِق ملابسها و هي تئِنّ في ألم , هناك ممرضةٌ عاجزةٌ تضرب أزرار الجهاز الطبيّ الذي يئنّ بألمٍ دعمًا للمصابة ... يبدو أن الفزع قد أفقدها تركيزها فلم تعد تعلم ماذا تفعل!

تأمل شريف المكان أمامه قبل أن ينظر للطبيب القلق الذي يتأمل الوضع و قد شلّه الخوف , تخيل لوهلةٍ أن الخوف يبتسم له ابتسامةً صفراء لأنه أحكم سيطرته على الأمور , إلا أنه و في لحظاتٍ استعاد حِسّه الأمنيّ و ارتداه سريعًا ؛ صرخ في الممرضة المرتبكة :

" أنتِ ... خذي نفسًا عميقًا و استعيدي تركيزك و تعاملي مع الأمر بهدوء "

بالفعل تصرفت الممرضة بناءً على تعليماته و نجحت في جعل الجهاز يصمُت , نظر للمرضتين اللتين تحملان جسد زميلتهما و أمرهما بأخذها إلى قسم الطوارئ لكي يتم عمل اللازم و علاجها , نظر للممرضة التي أصمَتت الجهاز ثم أمرها بصوتٍ هادئ أن تأتي بشخصٍ ما ليزيل آثار تلك الدماء من الغرفة و أن تصعد لتُطمئِنَ زميلتها في الإذاعة الداخلية و أن تجعلها تصمت قليلًا !

الهدوء راحة ! و لكن لو دام !!

بمجرد أن ساد الهدوء اعتدل الصبي فجأةً على الفراش و هو يتحرك ببطءٍ شديد , رفع يديه و هو مغمض العينين إلى أذنيه و سدهما جيدًا.

لحظة صمتٍ مرّت و الطبيب و شريف لا يقويان على أن يتحركا أو يفارق بصرهما جسد الفتى الذي انهمك في الاهتزاز بعنفٍ للأمام و للخلف و هو يهمهم بكلمةٍ ما بداخله , تخرج مكتومةً بعنف لا يستطيعان أن يميزاها , أشار شريف للطبيب بالاقتراب و تساءل بصوتٍ خافت :

" ماذا يحاول أن يقول ؟؟ "

اقترب الطبيب من الطفل و هو ينصت قبل أن يقول :

" يبدو أنه يقول (تاتم) أو (طاطم) أو شيءٍ ما كهذا ! "

" و ماذا تعني هذه الكلمة ؟؟ و لماذا يفعل هذا ؟؟ "

أنهى كلماته عندما دخلت المرضة الغرفة بصحبة إحدى العاملات المسؤولات عن النظافة و انهمكت في تنظيف الدماء دون أن تسأل ، يبدو أنها ليست المرة الأولى التي ترى فيها دماءً في غرفة مريض !

جذبه الطبيب من يده و هو يشير للمرضة أن تفعل اللازم ، نظر له و هو يقول بتوتر:

" كلٌّ منا يجب أن يشرح للآخر أشياءً لا يفهمها "

وصلا للاستراحة و جلسا بجوار بعضهما ، لم يكن لأحدهما شهيةٌ لتناول أيّ مشروب ، ما حدث و التوتر الناتج عنه أفقدهما شهية الطعام و أكسبهما شهية الفهم و التعلم !

الفضول الآن يلعب دوره على أكمل وجه !!

تحدث الطبيب أولًا :

" هناك في الغرفة لاحظت نظراتك التي فحصت المكان بأكمله قبل أن تلتمع عيناك بشرارة الفهم ...يجب أن أفهم ما الذي حدث و كيف أصيبت تلك المرضة !! "

ابتسم شريف ابتسامةً هادئةً قبل أن يقول :

" سأخبرك ... عندما تمتهن مهنتنا يجب أن تعلم أن مفاتيح الفهم كلها تكمن في التفاصيل ... صغائر الأمور هي أوضحها , عندما دخلنا في المرة الأولى لاحظتُ أن هناك قلمًا في الغرفة و يبدو أيضًا أن تلك الممرضة انشغلت في ترتيب الغرفة بعد حادثة الدائرة , و عندما دخلنا وجدت أن الحامل الصغير سقط أرضًا و محتوياته مبعثرةٌ ... تلك الممرضة كانت ترجع بظهرها عندما تعثرت في الحامل الذي سقط أرضًا و منه انغرس القلم في كتفها بسبب وقوعها بثقل جسدها عليه "

اتّسعت عينا الطبيب في دهشةٍ و هو يقول :

" هل عرفت كل هذا في تلك الثواني القليلة !! "

ابتسم شريفٌ و لم يردّ و إنما تابع في صوتٍ خافتٍ كأنه يحدث نفسه :

" هناك عدة أشياءٍ لا أفهمها ... لماذا لجأ الكائن الشيطانيّ الذي يستحوذ على الطفل لهذا الأسلوب ليبدو الأمر و كأنه حادثٌ بينما قد أعلن عن نفسه بفجاجةٍ في أمورٍ أخرى ؟!! ... و أيضًا كيف عمل هذا الراديو بمفرده ؟!! و ما هي الرسالة التي يحاول الطفل أن يوصلها بكلمته المبهمة "

" سأخبرك أمرًا ما يجب أن تعلمه , تلك الحركة هي ما يسمى بالحركة النمطية الخاصة بمرضى التوحد , تُعرف طبيًا أنها الإصرار على

التماثل و النمطية في التصرف ... ذلك الطفل يُخرج طاقته الحركية في تلك الحركة النمطية التي تختلف من طفلٍ لآخر فقد يختار بعضهم مثلًا رفرفة اليدين كالطيور , الدوران حول نفسه , القفز ... و غيرها من الحركات النمطية الأخرى ... هذه الحركاتُ قد تسبِّب ضعف شعوره بالألم و قد يؤذي نفسه بها ! "

" حسنًا ... ما فهمته منك أن تلك الحركة النمطية شائعةٌ عند العديد من مرضى التوحد ! "

" بالضبط , أما بالنسبة للكلمة الغامضة ... الطفل المتوحّد أو الذاتّوي يعاني من خللٍ في القدرات اللفظية أي أن هناك خللاً في القدرة الكلامية , في بعض الحالات قد يتمكن الطفل من نطق كلماتٍ معينةٍ أو جملٍ ما إلا أنه في الغالب تظهر مشكلاتٌ متنوعةٌ في التخاطب كتكرار ألفاظٍ و كلماتٍ بلا معنى ... أي أنه و باختصار نحن أمام احتمالين : أولهما أن تكون هذه الكلمة عبارةٌ عن مقطعٍ صوتيٍّ بلا معنى , أو أن تكون تلك الكلمة لها معنى و مغزى يحاول أن يوصله و بالنظر لما قصصته لي و بوضع احتمال الاستحواذ الشيطاني في الحسبان سأشك أنها رسالةٌ ما !! "

فكّر شريف بصوتٍ عالٍ :

" طاطم !!! "

صمت الطبيب لحظةً قبل أن تلتمع عينه و هو يقول بلهفة :

" و لماذا لا يكون يحاول أن يقول أنه نادم !! "

نظر له شريف بدهشةٍ و هو يهزّ رأسه موافقًا :

" بالفعل ! ... أنت لم تر المذبحة التي ارتكبها هذا الطفل أو هذا المسخ الذي يكمن بداخله "

في تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف الداخلي الخاص بالاستراحة , استأذن الطبيب و ردّ , لحظات صمتٍ لا يقطعها سوى هزّة رأسٍ أو همهمةٌ تشير بالمتابعة , دقيقةٌ مرّت و وضع الطبيب سماعة الهاتف و قد تغيّرت ملامحه و هو يقول :

" هناك خبرٌ جيد و خبرٌ سيء ! "

تغيرت ملامح شريف بدوره و هو يقول :

" إبدأ بالجيد "

ابتلع الطبيب ريقه و هو يُجبِر نفسه على الابتسام :

" يبدو أن أحد مهندسي الكهرباء الجدد قد أخطأ في توصيل أحد السلوك مما أدى لوصول تيارٍ كهربائيٍ في ذلك القسم المهجور منذ حين و يبدو أيضًا أن الكهرباء عندما غادرت هذا المبنى غادرته فجأةً و

لم تعطِ الفرصة لذلك الراديو القديم أن يلم شتات نفسه و يغفو قبل أن ترحل ... لذا عندما عادت الكهرباء صدح مغنيًا في نشوةٍ فضحته "

ابتسم شريف للغة الطبيب المنمّقة قبل أن تتبدل ملامحه للتوتر و القلق :

" و الخبر السيء ؟؟ "

" الطفل لم يكن يقول نادم !! و إنما كان يقول قادم !!! ابن عم أبيه هنا أتى ليصطحبه ليعيش معه ! و ليس هناك أي مانعٍ صحيٍّ أو قانوني يمنعه من هذا "

اتّسعت عينا شريف في ذهول و ازداد تأكّده أن هناك خطبٌ ما في هذا الطفل .

*****

حمله الرجلان من إبطيه و هما يعدلانه , تمالك نفسه و قاوم الدّوار و هو يقف أمام الرجل الذي يراقبه بشبح ابتسامةٍ و كأنه ينتشي من صدمته , كان بهاء تاركًا جسده لقبضة الجاذبية , ركله أحد الرجلين في قدميه و هو يقول له بصوتٍ أجشّ كلمةً لم يفهم معناها إلا أنه استوعب إثر الركلة فحاول الوقوف دون مساعدتهما , وقف أخيرًا مستندًا إلى قدميه و هو يشعر من بين دواره بشعورٍ غريبٍ و كأنه يجرّب الوقوف للمرة الأولى , مد الرجل يده له بمنديلٍ ورقي فأمسكه و

همّ أن يمسح به شفتيه اللتين تلوثتا بالقيء , هزّ الرجل رأسه في إشارةٍ نافيةٍ و هو يقول :

" لا ! ... لم أعطيه لك لهذا الغرض !! "

هزّ بهاء رأسه في عدم فهمٍ و هو يحاول أن ينطق إلا أن صورة الجثث المفتوحة و الأحشاء التي رآها في ذلك الدلو الصدئ لا تفارق خياله ففضّل الصمت بدلًا من أن يقيء مرةً أخرى , تحرك الرجل ببطءٍ و هو يتحدث , دار حوله في خطواتٍ بطيئةٍ و هو يعطي إشارةً للرجلين أن يتراجعا , وقف بهاء مترنّحًا و الرجل يدور حوله قائلًا :

" أنظر لي جيدًا و افهم ما سأقول ... قدرك قد أوصلك لهذه النقطة و تركك وحيدًا في مواجهتي , ربما تشفيًّا فيك و ربما خوفًا مني !! ... أمامك طريقين يجب أن تسلك أحدهما ... الطريق الأول في نهايته ينتظرك ملاك الموت على أحرّ من جمرٍ ليقبض روحك بعدما أنتهي منك و حسب ما أتذكر أنت رفضت هذا الحل "

هزّ بهاء رأسه موافقًا على كلماته فتابع الرجل :

" الطريق الآخر أنتظرك في نهايته حاملًا المجد و الراحة و الثراء بين يدي ... أنت اخترته أليس كذلك ؟؟ "

أنهى الرجل كلماته و هو يرفع رأس بهاء للأعلى ليواجهه منتظرًا رده , هز بهاء رأسه في موافقةٍ على سؤاله , كان الرجل الآن يواجهه تراجع للخلف خطوةً و أعطاه ظهره محدّثًا إياه :

" يجب أن تتعلم شيئين مهمّين ها هنا ... أولهما أن يموت قلبك و تموت مشاعرك كيلا تموت أنت , يجب أن تتخلى عن كل شيءٍ أحببته ... تنسى كل حلمٍ حلمته ... ترمي بكل معارفك عرض الحائط , يجب أن تعيش وحيدًا متفردًا ... تركل كل نقاط ضعفك و تسحقها تحت قدميك ... لا يجب أن يكون لك ذراعٌ لكي يلويه أحدهم مهددًا إياك "

هزّ بهاء رأسه في فهمٍ و قد بدأ يتمالك أعصابه و يستعيد توازنه , وقف جيدًا دون ترنح و استعاد جزءًا كبيرًا من تركيزه و هو يستمع إلى كلماته باهتمام؛ قرر بهاء و نوى أن يتعلم جيدًا و يخلِص لعمله كيلا يموت أو يُقتَل , لقد وضع قدميه على طريقٍ لا رجعة فيه , فالجحيم من أمامه و النيران من خلفه فمن أين الهروب من الاحتراق ... إذًا فليحترق سعيدًا!!

استكمل الرجل :

" الأمر الآخر ... لا أحد يفسد بضاعتي أو يقيء عليها ... هل تفهم أيها الوغد ؟ "

أنهى كلمته و هو يلكم بهاء بقوةٍ ألقت بجسد بهاء أرضًا قبل أن تبكي شفتيه دمًا و هو يئن في ألم مستمعًا إلى ضحكات الرجلين قبل أن يصرخ فيهما الرجل بعنف :

" صمتًا ! "

و كأنه أعطى الأمر لكل مخلوق على قيد الحياة توقف الرجلان عن الضحك و صمت بهاء عن التأوه حتى الكلب الصغير صمت تمامًا , مدّ يده لبهاء لكي يعتدل بهاء , أعطاه بهاء يده فلواها في حركةٍ سريعةٍ و هو يصرخ به :

" يبدو أنك غليظ العقل ... أخبرتك من قبل ألا تثق في أي شخص حتى لو كان أنا "

لحظة صمتٍ مرّت قبل أن تردد الجدران صوت قرقعة عظام يد بهاء و هي تتكسر في عنف, و صوت صرخةٍ حادّةٍ أطلقها بهاءٌ من داخله متألمًا فيها بإخلاصٍ لا يقبل الشكّ قبل أن يفقد الوعي تاركًا الرجل و أتباعه في عالم مرتحلًا لعالمٍ آخر لا يعرف سوى اللون الأسود فقط !!.

*****

" هناك خطْبٌ ما في هذا الطفل , هذا ليس طفلًا طبيعيًا ! ... أنت لم ترَ كيف قتل أهله ! ... لم ترَ تصرفاته منذ ذلك الحين ... أؤكد لك أنه خطرٌ عليك ... بل خطرٌ على البشرية ... إسمعني جيدًا ! ... هناك كائنٌ

شيطانيٌّ يستحوذ عليه ... لقد رأيتُه جليًا ... منذ رأيته أول مرةٍ و شفتاه ملوثتان بالدماء جالسًا في براءةٍ مصطنعةٍ متظاهرًا بالتوحد, و منذ أن خرج من الغرفة لتعود الإضاءة و كأنها تنتظر خروجه لتعود, المسجِّل الذي عمل وحده مطلقًا أغنيةً غريبةً تتحدث عن حكم الشيطان للأرض !! ... الممرضة التي أصيبت و كأنها أول مرةٍ تعمل بالتمريض , الدائرة التي تكوّنت حوله و كأنها تشير لنا إلى مصدر الخطر الذي يجب أن ننتبه له , أخيرًا و ليس آخرًا تنبؤه بحضورك قبل أن تأتي بساعات !! صدقني يجب أن تتركه هنا تحت المراقبة ... هذا الطفل خطر ... هل تفهمني ؟؟؟ ... خطر! "

أنهى شريف كلماته لخالد , خالدٌ كان ابن عم هاشم و لكن قرابتهم لم تكن شفيعًا لهما لكي يقتربا من بعضهما البعض فكانا مختلفين تمام الاختلاف , خالد كان نحيلًا , حليق الرأس , ذقنه لم تكن قصيرة و لم تكن طويلة !!

كان وجهه مليئًا بالتجاعيد رغم صغر سنّه , يرتدي قميصًا أسود اللون مليئًا بالدوائر الحمراء و بنطالًا أسود: نظر خالد لشريف لدقيقةٍ و هو يتأمل ملامحه قبل أن يدير وجهه للطبيب مرةً أخرى و هو يقول :

" من هذا ؟ "

شعر الطبيب بالحرج فتلعثم في ردّه قائلًا :

" هذا شريف ... المسؤول عن التحقيق في جريمة قتل هاشم ابن عمك و زوجته "

" و ماذا يفعل هنا ؟؟؟ "

" كان يراقب الطفل الصغير ! "

" و ما هذا الهراء الذي يقوله ؟؟ "

" حسنًا لقد رأيتُ بعض هذه الأشياء لذا حاول أن تصدّقه "

" و أنا لم أرَ شيئًا لذا حاول أن تصمت قليلًا "

أمسك بالقلم و هو يستكمل ملأ البيانات اللازمة للانتهاء من هذا الأمر بينما حاول شريفٌ أن يتحدث مرةً أخرى إلا أن خالد قاطعه صائحًا في الطبيب :

" هذا الأمر غير معقول !! ليصمت هذا الشرطي أو سأتهمه بالبلاهة ! "

انفجر فيه شريف بصوت عالٍ لفت لهما الأنظار:

" إلزم حدودك و إلا سأجرّك جرًا إلى القسم و أكتب لك محضراً"

لم يتحمل خالد فانفجر بدوره :

" أي قسم ؟؟ قسم المغفلين ؟؟ "

تدخّل الطبيب ليهدّئ الأمور بينهما قليلًا و أبعد شريف متحدثًا معه بصوتٍ هادئ :

" شريف ! ما بالك ؟؟ إهدأ قليلًا و لا تعطي الفرصة لأيّ شخصٍ أن يمسك عليك زلّةً ما "

تنفس شريف ببطءٍ و هو يهزّ رأسه متفهمًا , عادا لخالد الذي أنهى الاستمارة واضعًا إياها على المنضدة ناظرًا لشريف بتحدٍ لم يُعقّب عليه شريفَ؛ ذهب خالد ليتسلم الطفل الذي علا صوت صرخاته بعض الوقت محتجًا على التغيير الذي سيصيبه , و خرج من المصحّة و هو يُمطر شريف بنظراتٍ غاضبة :

بمجرد أن خرج من المصحة أخرج هاتفه المحمول ناظرًا إليه ضاربًا شاشته التي تعمل بخاصية اللمس باحثًا عن رقمٍ ما قبل أن يضعه على أذنه و يصمت لحظاتٍ منتظرًا الردّ من الجهة الأخرى قبل أن يقول :

" الطفل معي ... أريدك أن تنهي الأوراق الخاصة بالإرث حتى نستحوذ على المبلغ و نعطيك نسبتك و نلقي بالطفل"

أغلق الهاتف و وضعه في جيبه و هو ينظر للطفل الذي يقاوم في حركاتٍ عصبيةٍ حادّة قبلَ أن يمطّ شفتيه في عدم اهتمام راحلًا عن المصحّة بخطواتٍ سريعة .

*****

بعد مرور مدةٍ من الزمن و في جنح الليل تحرّك الثلاثة رجال مستترين تحت لحاف الظلام متّقين شرور الضوء و ما سيحمله لهم من آثام , خطواتٌ بطيئةٌ رتيبة و أجسادٌ تلتصق بالحوائط , أنفاسٌ متقطعةٌ تكاد لا تُسمع , أزياءٌ سوداء كاملة و أحذيةٌ مطاطية , أعَدّوا العدّة جيدًا كي لا تفشل مهمتهم؛ كان أحدهم يتأخر عن الآخرين بمقدار خطوتين , يبدو الارتباك جليًّا على حركاته و قلّة التركيز تُطِلّ بوضوحٍ من بين تصرفاته , حاول استدعاء شيطان التركيز إلا أنه أبى الحضور , وسط حفيف الرياح تحركوا و بين ثنيات الظلام اختفوا , وصلوا إلى وجهتهم المنشودة , توقفوا و أشار لهم رجلٌ يبدو أنه قائدهم , أشار لرجلٍ بيده أن يذهب لناحية اليمين و يبحث عن نافذةٍ يدخل منها , أشار للآخر أن يفعل مثله و لكن من الجهة اليسرى و سيدخل هو من الباب الرئيسي ... كانوا يقفون أمام منزلٍ يتوسط حديقةً غنّاء زاهية , منزلٌ أبيض يتمتع بسقفٍ خشبيٍ بني يحيطه سورٌ كأنه يحتضنه و يخفي الحديقة عن أنظار العابرين , نافذةٌ زجاجيةٌ ضخمةٌ تتوسط كل حائطٍ من حوائط المنزل المزدانة بدهانٍ لامعٍ يبدو سارًّا للناظرين , بابٌ خشبيٌ ضخمٌ قديمُ الطِّراز يتوقف صامدًا أمام محاولات الرجل الذي يعبث فيه بقطعةٍ من السلك محاولًا جعله يتراجع عن صموده : لحظاتٌ مرّت قبل أن يسمع صوت التكّة المميزة لفتح الباب ليقف مبتسمًا في شماتةٍ أمام الباب قبل أن يفتحه ببطءٍ و هو يدخل و من ثم يغلقه مرّةً أخرى بهدوءٍ من خلفه , المنزل من الداخل مظلمٌ تمامًا إلا من أشعة قمرٍ قد تسللت لتُدنّس هذا الظلام المقدَّس , مشى بهدوءٍ محاذرًا أن يلمس أي

شيء، متجهًا لإحدى النافذتين فاتحًا إياها بهدوء مادًّا يده إلى الشخص الذي يقف في انتظاره أسفلها مساعدًا إياه على الصعود , صعد الآخر برشاقةٍ مسندًا يديه على الأرض قبل أن يقفز بقدميه ملامسًا إياهم و الأرض و هو يعتدل لينفض ذرّات الغبار المحتمل أن تلتصق بيديه , تأمل ديكورات المنزل من الداخل قبل أن يطلق صفيرًا حادًّا يدلّ على إعجابه بالذوق العام في المكان , وضع الآخر يديه على شفتيه في إشارةٍ للصمت و هو يشير له أن يفتح النافذة الأخرى , وقف يتأمّل السلّم الذي يفضي للدور العلوي و هو ينظر في ساعته بينما فتح الآخر النافذة و مدّ يده يساعد الآخر المرتبك , ارتفع بجسده و أسند قدمه على حافة النافذة قبل أن يَزِلّ قدمه ليرتطم جسده المندفع بمنضدةٍ صغيرةٍ تتوسطها مزهريةٌ مليءٌ بورودٍ بيضاء ذات رائحةٍ مميزة , تراقصت المزهرية للحظاتٍ و هي تفكر في ترددٍ بين أن تقع لتفضح أمرهم أم تتوقف و تترك لهم فرصةً أخرى , لحظاتٌ مرّت و ثلاثة أزواجٍ من العيون تراقبها في هلع و تدعو أن تتوقف , أخيرًا توقفت المزهرية لتندلع ثلاث زفراتٍ حادّةٍ مصحوبةٍ بتنهيدات ارتياح من الثلاث صدور , أعقبهم نظرةٌ ناريةٌ من القائد للشخص المرتبك ... حاول أن يتجنب النظرة التي أحرقت روحه ببطءٍ و تلذّذ و هو يُشيح ببصره بعيدًا متأملًا السلم .

صعد الرجلان الآخران السلم ببطءٍ و هما يتأملان باب الغرفة المغلق , تركا المرتبك بالأسفل ليراقب الأمور و يحمي ظهريهما , كشف المرتبك عن وجهه عندما اختفيا عن ناظره , ظهر وجه بهاء محتقنًا أحمر اللون , زائغ العينين مرتبكًا؛ راقب الأشقرَ و الأسمرَ و هما يبتعدان ببطءٍ

داخل الغرفة , وقف يفكر في الفترة التي رقد فيها مكسور الذراع لا يستطيع الهرب و كيف كان كلبه العزيز " شادو " بمثابة الأخ و الصديق الوفيّ , راقبهم يعملون حتى فهم آلية العمل , كيف يُفرغ الجثة من أحشاءها , كيف يحفظ الأعضاء المهمة و كيف يُجَهّز الأعضاء المطلوبة , ما هي الأعضاءُ الرئيسية التي ينبغي أن تُنزَع من كل جسد , تعلّم انتهاك الأجساد و شعر بغضبِ الأرواح , لم لا و هو يدنّس طهارة أجسادها بمشارطه المعدنية الصلبة ليرسم على تلك الأجساد علاماتٍ لن ينساها كما لن ينسوها , دائمًا شعر أنه مخطئ و لكنه لا يملك رفاهية التراجع ... قاطع تسلسل أفكاره صوت طلقةٍ خرجت من مسدسٍ كاتمٍ للصوت فلم يلحظها سوى لأنه يعلم و ينتظرها , دقيقةٌ مرّت في انتظار قبل أن يظهر الرجلان على الباب يحملان جثة رجلٍ في العقد الثالث من عمره , غطّى بهاء وجهه بسرعةٍ بعد نظرةٍ لائمةٍ من الأشقر , صعد درجات السلم ليساعدهما في حمل الجثة و همّ الثلاثة بالخروج من المنزل عندما سمعوا صوت طفلةٍ صغيرةٍ تهتف بقلق :

" أبي ... أريد أن أشرب ... أنا عطشى ! "

تسمّر ثلاثتهم في أماكنهم و هم يرفعون أعينهم للطفلة التي تراقبهم من سور السلم و توجّه كلامها لأبيها الذي يحملونه معتقدةً أنه نائم !

تبادلوا النظرات قبل أن يُخرج أحدهم مسدسه من جرابه و هو يعيد تركيب القطعة الكاتمة للصوت لتتصدر المشهد و تتقدم ماسورته في

شجاعةٍ قبل أن يقف بهاء أمامه و هو ينظر له نظرةً غاضبةً و هو يقول :

" إنها طفلة ! "

أجابه حامل المسدس بهمسٍ غاضبٍ و هو يضغط على حروف كلماته :

" و المطلوب ؟ "

" لن نقتلها . "

" لقد رأتنا ! "

" و هي أصغر من أن تميّزنا و لا تعي شيئًا ... ألا ترى نظرتها لأبيها ... إنها لا تعي حتى أنه ميت "

أزاحه بيده بقوةٍ من أمامه مما أدى لاختلال توازنه , سقط بهاءٌ أرضًا على ظهره قبل أن يعتدل بسرعةٍ و هو يقف على قدميه مواجهًا إياه و قد تحولّت النظرة في عينيه إلى رجاءٍ و لانَ أسلوب حديثه :

" أرجوك ! ... إسمح لها أن تأتي معنا و أنا سأقنع الزعيم أن تظلّ على قيد الحياة "

تبادل الرجلان النظرات قبل أن يمطّ الآخر شفتيه من تحت القناع و هو يرفع كتفيه في إشارةٍ منه لأنه لا يهتم حقًّا بمصيرها فقتلُها أو تركها

على قيد الحياة عنده سواء , لقد أتى في مهمةٍ و أنجزها و هذا هو حقًا ما يهمه , لن يهتمّ أو يكترث سوى بهذا الأمر أما تلك المستجِدّات فقد تعوّد تركها بلا أدنى اهتمام كي لا تعوقه , فكر الآخر للحظة قبل أن يمدّ يده إلى كاتم الصوت و هو يفكّه عن ماسورة المسدس و يضعه برفقٍ في جيب المعطف الداخلي و يعيد مسدسه بهدوءٍ و يشير لبهاءٍ ان يأتي بها , ذهب بهاء إليها و جلس بجوارها على السلم و هو يحدثها بصوتٍ خفيضٍ و بابتسامةٍ مطمئِنةٍ قبل أن تبتسم ابتسامةً طفوليةً و هي تقوم من مجلسها و تتجه للأعلى , نظر الرجل لبهاء و هو يكاد يتحدث قبل أن يقاطعه بهاء بهدوء :

" ألم تسمعها تخبر أباها أنها عطشى ؟ ... ستشرب و نرحل جميعًا من هنا "

أشار له الرجل على مكان الساعة في معصمه في إشارةٍ واضحة إلى أنهم تأخروا و الوقت عاملٌ مهمٌّ في مثل تلك المِهن؛ نزلت الفتاة مرةً أخرى فأمسك بهاء يدها بحنوٍّ و هو يقودها إلى الأسفل حتى وصلوا للرجلين , تقدّم أحدهما و فتح الباب و كادوا أن يخرجوا قبل أن تغشى أبصارهم أضواءٌ حمراء و زرقاء منبعها إحدى سيارات الشرطة و التي هدّأت كثيرًا من سرعتها عندما فتحوا الباب ... توقف الجميع حائرين و قد زاغت أعينهم بشدة .

*****

في منزلٍ قديمٍ مهدّمٍ في أحد أحياء القاهرة القديمة دخل خالد من باب شقةٍ تقبع وحيدةً في الطابق الثاني , فتح الباب بمفتاحٍ معلّقٍ وحيدًا في ميداليةٍ مريضةٍ بمرض الصدأ المزمن قبل أن يضعها على طاولةٍ خشبيةٍ كسيحةٍ تقف بخجلٍ إلى جوار باب الشقة , كان الطفل يحاول مقاومته بقوة و هو لا يبالي بحركاته أو بالأصوات و الصرخات القصيرة التي يطلقها الطفل احتجاجًا , اتجه إلى غرفةٍ صغيرةٍ على يسار الصالة , فتح بابها بهدوء متحاشيًا سماع صريرٍ يصدر منه , مدّ يده إلى الحائط متحسسًا إياه برفقٍ باحثًا عن مفتاح الإضاءة , ضغط عليه و انتظر لثوانٍ قبل أن تسطع الغرفة بضوءٍ برتقاليٍّ صادرٍ من مصباحٍ يسبح وحيدًا في سقف الغرفة , نظر إلى السرير الذي يتوسط الغرفة و ذهب إليه , كان كأسرّة الأطفال الصغار محاطًا بسورٍ عالٍ يحذوه من الأربعة جوانب , إلا أن هذا الفراش يتميز عن أقرانه بأنه مزوّدٌ بسقفٍ صغيرٍ يُحبس بداخله الصبيّ كيلا يتحرك و يسبب مشاكل هو في غنًى عنها , وضع الطفلَ في فراشه قبل أن يظلل سمائه بالسقف و يغلق باب الغرفة و يخرج غير عابئٍ بصرخة اعتراضٍ تصدر باستمرارٍ عن الطفل , جلس على أريكةٍ ممزّقة الأحشاء في صالة المنزل و هو يُخرج من جيبه هاتفه المحمول و يبحث عن رقمٍ ما قبل أن يضغط على شاشة الهاتف و يضعه على أذنه ؛ مرّت لحظاتٌ قبل أن يسمع صوت جرس الهاتف متزامنًا مع رنينٍ خافتٍ على السلم الخارجي استنبط منه أن محدّثه بالخارج , أغلق الهاتف و وضعه بجوار المفتاح و هو يفتح الباب ليظهر أمامه شخصٌ بدينٌ يرتدي بدلةً تشبه بِدَل الموظفين القديمة

حيث تتكون من قميصٍ و بنطالٍ متشابهي التصميم من نفس خامة القماش و نفس اللون . يضع منديلًا كبيرًا بين رقبته من الخلف و ياقة القميص في محاولةٍ لمنع العرق عن مهمته الأثيرة في تلويث ياقات القمصان . و يبدو أن المنديل فشل في مهمته بنجاحٍ منقطع النظير حيث تظهر طبقةٌ من الأوساخ السوداء و تقبع بتبجحٍ على تلك الياقة بينما يرسم العرق حدود فانلته الداخلية على قميصه من الخارج بنجاح . دخل و أغلق الباب خلفه قبل أن يجلس على المقعد متحاشيًا اختلال توازنه و السقوط و هو يُسنِد حقيبةً قديمةً مهلهلةً على قدميه و يفتحها و يُخرِج منها أوراقًا قائلًا :

" هذه هي أوراق إثبات أهليتك بـ ..... "

أجابه خالد بابتسامةٍ عصبية :

" صمتًا رجاءً ... لا أريد أن أعرف ماذا ستفعل ... أريدك أن تنتهي من تلك الإجراءات في أسرع وقت ... أنت تعرف جيدًا أنك لست أفضل محامٍ في القاهرة و لكني أتيت بك لهدفٍ ما "

صيحةٌ عاليةٌ من الطفل تردّدت في الصالة لتلفت نظر المحامي الذي نظر للباب بتوتر قبل أن ينظر لخالدٍ و هو يقول بتحدٍ :

" إن لم يعجبك عملي تستطيع أن تأتي بمن هو أفضل مني و لكنك تعلم جيدًا من هو عاصم الديدموني "

صرخةٌ أخرى من الطفل ساهمت في زيادة التوتر قبل أن يجيب خالد :

" من هو عاصم الديدموني ؟؟ مجرد محامٍ فاشل !! و أنا لم آت بك لكي تقنعني بك و إنما أتيت بك لأنك محامٍ فاسد لك طرقٌ تتحايل بها على القانون و أنا أريد أن أنتهي من هذا الأمر في أسرع وقت ... حتى لو اضطررت لأن أسلك طرقًا خلفيةً و أزقةً مظلمةً في القانون "

صرخةٌ من الطفل تبعت حديثه ... صاح عاصم بغضبٍ و هو يجمع أشلاء حقيبته المفتوحة :

" تبًا لي ! لم أكن أعلم أنني رخيص كذلك ... سيدي إسمح لي أن أخفف عنك عبأ عاصم المحامي الفاشل و أنسحب بالبقية الباقية من كرامتي"

قام عاصم ليقف قبل أن يسمع صرخةً من الطفل , أشار خالد له بالصمت و هو ينصت السمع فلم يسمع شيئًا ... نظر لعاصم بهدوء و ابتسامةٌ خفيفةٌ ترتسم على شفتيه و مدّ يده ليجذبه من ملابسه و هو يخرج خارج الشقة و يغلق الباب و بالطبع لم ينس التقاط مفتاحه ؛ تحدّث بصوتٍ خافتٍ و هو يقول للمحامي :

" أتعلم ؟ و أنا أحضر الطفل من المصحة كان هناك شرطي ... يبدو أنه المسؤول عن حالة الصبي و حادث مقتل والديه ... كان يصرخ بكلامٍ لم أهتمّ به ... كلامٌ على غرار أن الصبي ليس طبيعيًا و خطرٌ و هناك

شيطانٌ يريد أن يحكم الأرض و أشياء تافهةً هكذا لم أهتم لها و لكن الأمر الغريب الآن أن هذا الصبيّ يطلق الصرخات بانتظام , كلما أنهى أحدٌ منا كلماته صرخ ليزيد توتر الآخر حتى كاد الأمر أن يفشل ... هذا الطفل يعلم جيدًا ما يدور !! و هذا دليلٌ على أنه ليس طفلًا طبيعيًا ... إنه يعلم و يحاول جاهدًا أن يفسد الأمر "

هزّ عاصم رأسه مصدقًا على كلماته و هو يقول :

" لقد لاحظت بالفعل أنه بعد صرخاته يزداد غضب كلٍّ منا ... و بدون أي سببٍ مقنع ... شيءٌ غريب و لكن سأنصحك نصيحةً , يجب أن نُتِم الإجراءات سريعًا لأنه بمجرد أن تحصل على الإرث سنتخلص من هذا الصبي الملعون فورًا "

" طبعًا يا عاصم "

أنهى عاصم كلماته و هو يرحل و يهتف من على درجات السلم بصوته الخشن :

" لو جدّ جديدٌ سأهاتفك "

دخل خالد إلى الشقة و هو يقول لنفسه :

" بمجرد أن تنتهي الإجراءات و أمسك بالنقود بين يدي سأتخلص من هذا الصبي الملعون و من هذا الخنزير البدين و أتمتع بالنقود وحدي!!"

ضحكةٌ هائلةٌ ترددت في فضاء الغرفة الصغيرة و كأن الصبي يسخر منه ... ارتعد جسد خالد في عنف بعد سماعه الضحكة بينما اتّسعت عيناه في خوفٍ لا حدود له.

*****

توقفت السيارة و ترجّل منها شرطي , تلفت حوله في هدوءٍ قبل أن يثبّت نظراته على المنزل , لحسن حظهم أنه لم يلمحهم , سارع أحد الملثمين بإغلاق الباب مستغلًا الثواني التي أدار فيها الشرطي وجهه بعيدًا عن البيت متأملًا ما حوله , اقترب الشرطي بخطواتٍ بسيطةٍ من المنزل , أحد الملثمين يعيد تركيب كاتم الصوت في توترٍ و يحكم ربطه , الشرطي يقف و يتأمل واجهة المنزل , الملثّم الآخر يُشهر مسدسه أمامه متبادلًا النظرات مع زميله , الشرطي تتجه يده لجراب مسدسه و يتحسسه في بطء , بهاء يحتضن الفتاة التي بدأت تشعر بالتوتر و بدأت أنفاسها تتسارع و هي تنظر لجثّة أبيها متسائلةً كيف ينام في خِضَمِّ هذا التوتر , الشرطي يقترب من المنزل بشدة , بهاء يضع يده على فم الفتاة كاتمًا نهنهات البكاء التي تفجرت من آبار عينيها في خوف , الشرطي يتلفت حوله للمرة الأخيرة قبل أن يمد يده و يحل حزامه مختبئًا خلف شجرةٍ مطلقًا العنان لجسده لكي يلبي نداء الطبيعة في هدوء ... تنهيدة ارتياحٍ من أحد الملثّمين و هو يعيد حلّ كاتم الصوت و يخفض سلاح زميله المتوتر قبل أن ينظر نظرةً ناريّةً للفتاة الصغيرة جمّدت الدمع في عينيها خوفًا قبل أن تجمّد الدماء في عروقها , صمتت الفتاة بينما

يراقب هو الشرطي الذي يحكم إغلاق ملابسه قبل أن يلقي نظرةً أخيرةً على المنزل ليتأكد أن أحدًا لم يره , ركب سيارته و أدارها و رحل من أمام المنزل قبل أن ينتظر الجميع حوالي دقيقةٍ حتى اطمأنت قلوبهم إلى أنه رحل و لم يعد هناك مصدرٌ للقلق , أشار الملثّم الأول و الذي يبدو أنه الأشقر من بين ثنيات قناعه و يبدو أنه قائد المجموعة من تحركاته و تصرفاته للجمع بالتحرك , خرج الجميع واحدًا تلو الآخر , الأسمر في البداية و من خلفه بهاء ممسكًا بيد الصغيرة برقّة و هو يُطمئنها برسائل خفيّةٍ يحملها قلبه لتجري في عروقها و تصل لقلبها ليرتجف نشوةً بتلك الرسائل فتبتسم له بالمثل , و يعقبهم أخيرًا الأشقر حاملًا الجثة على كتفه و مسدسه يتقدمه في شجاعةٍ و هو يغلق الباب من خلفه.

<u>بعد برهةٍ من الوقت و في مقرّهم :</u>

دخلت المجموعة من باب المخزن ليجدوا أن القائد يجلس وحيدًا مُسندًا قدميه على دلوٍ مقلوب, مرتخي الجسد على كرسيه و أمامه زجاجةٌ فارغةٌ و كوب ممتلئٌ حتى نصفه بسائلٍ أحمر اللون باهته, محتقن الوجه زائغ العينين, وقف عندما رآهم , ترنّح لوهلةٍ قبل أن يُحكِم وقفته كيلا تهتز صورته أمامهم : توقف الجميع أمامه و هو يتجّه لدلوٍ مليءٍ بالماء و شاهدوه يغسل وجهه منه أكثر من مرة : يقال أن صدمات الماء البارد تزيد من الانتباه كما يقال أيضًا الكثير من الأشياء ... و يقال أن كل ما يقال لا يصدق.

ظهرت عليه علامات الانتباه , أشار لهم بكشف وجوههم بحركةٍ سريعةٍ من يده , كشفوا جميعًا وجوههم , أشار للأشقر أن يتقدم ليريه فريسته , أسجى جثة الرجل أمامه على المنضدة بعد أن أزاح الكوب و الزجاجة بيده في حركةٍ عصبية , اندفعا أرضًا ليتدحرج الكوب بعيدًا بينما تهشّمت الزجاجة مسببةً انقباضًا في قلب الصغيرة التي تتأمّل أباها نائمًا , تأمّل القائد الجثة للحظاتٍ قبل أن يبتسم و هو يشير للأشقر أنه أتى بالمطلوب , نظر للأسمر و بهاء ليهنّئهم بنجاح تلك العملية أو للمزيد من الدقة بنجاح الجزء الأول من العملية , و فجأةً اختفت الابتسامة من على وجهه و اسوَدّ وجهه و اكتسى بظلام الغضب الذي حل عليه و هو يتأمل الصغيرة قبل أن يصرخ فيهم بصوتٍ شرس :

" من هذه ؟؟ "

و كأن الأجواء ارتعدت خوفًا من صيحته , نسمة هواءٍ باردةٍ هاجمتهم فاصطكّت الأسنان خوفًا و بردًا ... حاول بهاء أن يفرد جسده في شجاعةٍ أمام الفتاة إلا أن رجفة الخوف أبت أن تفارقه لتعبث بجسده و هو يقول بصوتٍ متهتكٍ من الخوف :

" إنها ابنته ... كانوا يريدون قتلها "

نظر القائد للأشقر بغضب :

" كنت تريد قتلها ؟ "

أجابه الأشقر بصوتٍ واثقٍ و إن شابه بعض التوتر:

" أجل "

" إذًا فلتشرح لي لماذا هي حيةٌ و لماذا أتيت بها لمقرنا ؟؟ "

ارتبك الأشقر و هو يشير لبهاءٍ بيده و يقول :

" لقد طلب منا أن نتركها على قيد الحياة ... و قال أنه سيقنعك بهذا الأمر ! "

ابتسم القائد و هو يبعد خصلة شعرٍ من على وجه الأشقر لتظهر عيناه و كأنما يتغذى غضب القائد على الارتباك الموجود في عينيه , صاح به بصوتٍ عنيفٍ و قد تبدّل وجهه من الابتسامة إلى التجهّم في خِضَمِّ ثوانٍ : " هل تتلقى الآن أوامرك من طفل ؟! "

ازداد ارتباك الأشقر قبل أن يقول بصوتٍ خافتٍ و هو يشعر بحُمق ما فعل :

" بالطبع لا و لكن ... "

قاطعه بإشارةٍ من يده فصمتَ تمامًا ؛ نظر للأسمر فتراجع للخلف و هو يشير للطفل في حركةٍ مسرحيةٍ يخلي بها مسؤوليته تمامًا عمّا حدث , اقترب القائد من بهاء و هو يركع على ركبتيه حتى واجهه , اقترب منه بشدةٍ و هو يلصق جبهته بجبهة بهاء, و في كلماتٍ تحمل عبَق الكحول

أخبره كلماتٍ همسًا لم يسمعها سوى بهاء الذي اتسعت عيناه هلعًا و هو يهزّ رأسه نفيًا , حاول أن يتراجع برأسه فزعًا بعد ما قيل و لكن القائد أمسك رأسه بيديه محافظًا على جباههما ملتصقتين ؛ لحظاتٌ مرّت و بهاء يستنشق أنفاسه المعبّقة بالكحول قبل أن يشعر بالبدء في تنميلٍ كثيفٍ يهاجم مقدمة رأسه يعقبه جيوشٌ و جيوشٌ من الصداع التي تفتك برأسه , لا يعرف ما يحدث حقًا و لكنه أخذ يهلوس , يرى كائناتٍ سوداء مبهمة الأشكال تهاجم رأسه و يرى قائده يقودهم , يحاولون اقتحام رأسه و مع كل محاولةٍ هناك ألمٌ رهيبٌ يقتحم جمجمته ... يشعر أن رأسه يُثقَب ... ابتسامةٌ على وجه القائد الذي عاد مرةً أخرى أمامه و هو يترك رأسه لتختفي كل هذه الكيانات و يرى نفسه في المخزن مرةً أخرى , كان يشعر بالألم و الدوار ... شعر بسائلٍ دافئٍ على شفتيه ... مد يده ليمسحه قبل أن ينظر ليده ليراها مليئة بالدماء , غامت الدنيا أمام عينيه و كاد يفقد وعيه إلا أن نظرةً أخيرةً لفزع الفتاة و مصيرها من بعده جعله يكزّ على أسنانه بقوةٍ و إرادة , و هو يطرد ذلك الظلام السخيف الذي يحاول السيطرة على عالمه , قام من مكانه و مشى خطوتين قبل أن يسقط على ركبتيه ؛ تجاهل الألم و هو يتمالك و يقوم مرةً أخرى , هذه المرة لم يستطع السير سوى خطوةٍ قبل أن يسقط مرةً أخرى ... تجاهل نظرات الجميع المصوبة إليه ... تجاهل الخط الدافئ من الدماء الذي ينهمر من أنفه و هو يستند بيديه أرضًا ليعاود الوقوف , نظرةٌ حائرةٌ من عيني الطفلة بين أبيها المسجّى على المنضدة و بين بهاء الذي يقاوم و بعنفٍ للوصول إليها , حسمت

أمرها أخيرًا و قرّرت أن تعدو نحو بهاءٍ الذي كاد يسقط أخيرًا و يفقد الأمر إلا أنها تلقفت جسده الثقيل نسبيًا عليها و تحمّلت بشدةٍ ظهرت من بين قسمات وجهها قبل أن تحتضنه برفق و هو يترك جسده يرتجي بين يديها و قد اطمأن نسبيًا قبل أن يسمع صوت القائد يهتف بالرجلين :

" اترَكوا هذا الأحمق و تعاليا معي ... هناك مهمةٌ لم تُنجز بعد ".

*****

جلس عاصم الديدموني "المحامي الفاسد" أو "محامي الشيطان" - كما كان يُطلق عليه - أمام خالدٍ في الشقة و هو يحمل مجموعةً من الأوراق ... كان العرق يتجمع على جبهته و على ذراعيه بشدّة بينما بدأت قطراتٌ من العرق تتساقط لتبتل الأوراق التي يحملها في يديه , قطراتٌ أخرى تسللت لما داخِل عينيه لتحرقهما بملح العرق ؛ تأمّل خالدٌ قطرات العرق التي سقطت لتتمدد على الوريقات قبل أن يمدّ يده ليخطف منه الأوراق باشمئزازٍ و هو يصرخ به :

" ما بك ؟؟ "

" الجوّ هنا حارٌ للغاية ... لماذا لم تأت بمروحة ؟ "

" لا شأن لك بهذا الأمر... إمسح عرقك هذا لكي تشرح لي ما حدث. "

نظر له عاصمٌ بدهشةٍ و هو يقول :

" أوَلَم تخبرني أنك لا تريد أن تعرف شيئًا ؟ "

ابتسم خالدٌ ابتسامةً ماكرةً و هو يقول :

" عاصم ... عاصم يا صغيري ... برغم أنك محامٍ فاسد, و المفترض أنك ذكيٌّ لكي تستطيع أن تتحايل على القوانين , إلا أنك تثبت لي كل مدةٍ أنك عبقريٌّ داخل إطار المحاماة , غبيٌّ لا يشقُّ له غبارٌ خارجها. "

" كيف هذا ؟ "

" الأريَحية ... الأريَحية يا صديقي هي كلمة السر, لو أنك عملت و أنت تعلم أنني سأعرف كل شيءٍ كنت لتشعر بقيودٍ خفيّةٍ و إن كانت بسيطةً تسبب لك الضيق , كل ما فعلت أنا أنني أعطيتك كامل الحرية , شعرت أنت بالأريَحية و عملت على سجيتك بالكامل , لم تستأثر لنفسك ببابٍ خفيٍّ لا تريد أن تقتحمه خوفًا من أن أعرف. "

ظهر التوتر على وجه عاصم و هو يقول :

" لقد وثِقت بك ! "

" و أنا أيضًا وثِقت بك, و الدليل أنني لم أفرض عليك قيودًا و إنما من حقي أن أفهم ماذا يحدث , خصوصًا و أنني .... سأدفع "

تبدّلت علامات التّوتر على وجه عاصم إلى جشعٍ و هو يُزيل المنديل عن الياقة الخلفية لقميصه السكري و يمسح به عرقه الغزير ثم يعيده إلى مكانه دونما اكتراثٍ ببلله أو اصفرار لونه عن الطبيعي ؛ تأمّله خالدٌ باشمئزازٍ و هو يتساءل بينه و بين نفسه كيف يطيق هذا الشخص أن يحيى بمثل تلك الطريقة ... نظر له عاصم و هو يقول :

" هل سمعت من قبل عن شخصٍ يدعى (مهيب الصاوي) ؟ " .

*****

تصاعد صوت الموسيقى الهادئة و عاصم يقف على باب المطعم الذي اختاره رجل الأعمال الشهير (مهيب الصاوي) للقائه ... هذا اللقاء الذي استطاع أن يحدده بعد وقتٍ طويلٍ و مجهودٍ أطول , سلم جسده لاثنين من الثيران البشرية يتحسّسونه في نهمٍ بحثًا عن سلاحٍ ما مختفي في أيّ مكانٍ بين ثنيات جسده السمين , أشار لهم مهيب بيده أن يتركوا عاصم يمر , دخل عاصم و وقف باحترامٍ أمام مهيب المنهمك في تقطيع شريحةٍ سميكةٍ من اللحم و أكلها , دقائق مرّت قبل أن يضع مهيب الشوكة و السكين بجوار الطّبق و هو يشير للجالس بجواره بيده ليمسك بالأطباق التي لا تزال ممتلئةً حد التّخمة بأنواعٍ مختلفةٍ من الطعام سال لعاب عاصم عليها إلا أنه حاول تجاهل هذا الأمر و التركيز في المهمّة التي أتى من أجلها , ابتلع ريقه بصعوبةٍ و هو يتأمل مهيباً الذي أخرج من حقيبةٍ بجواره علبةٍ من الخشب الذي نُحِت عليه

بخطٍّ عربيٍّ أصيل ... فتحها أمامه و هو يُخرج منها كيسًا من أجود أنواع التّبغ و ورقاً من ذلك الذي يُستخدم للفّ السجائر و ولاعةً و ماكينةً صغيرة للفّ السجائر , عدة أدواتٍ يستخدمها للف سجائره الخاصة , انهمك في لفّ مجموعةٍ منها , تكاثرت أمامه على المنضدة حتى عجز عاصم عن أن يعدّها , بدأ عاصم يشعر بالتوتر جراء الصمت المحيط به , أخيرًا قطع الصمت صوت زناد القداحة و هو يعطي الأمر للسانٍ من اللهب أن يتحرر و يُحرِق طرف إحدى السجائر التي اشتعلت مستسلمةً بين يدي مهيب , نظر له مهيب قبل أن يغلق عينيه باستمتاعٍ و هو ينفث عامودًا من الدخان في الهواء و علامات اللّذة تظهر عليه؛ تحدّث مهيب أخيرًا بصوتٍ رخيمٍ واثق :

" لا يوجد أفضل من لفّ سجائرك بنفسك ... بالنسبة لي أقصى متعي هي لفّ سجائري و التّمتع بدخانها و هو يملأ رئتيّ و أمرٌ آخر ... أتعلم ما هو ؟؟ "

هزّ عاصم رأسه في توترٍ و هو يبتلع ريقه بصعوبةٍ فتابع مهيب بابتسامةٍ صغيرة :

" تدمير كلّ من تسوّل له نفسه أن مهيب الصاوي عرضةٌ للنصب أو السرقة ! "

هزّ عاصم رأسه في توترٍ نافيًا تلك التهمة عن نفسه و هو يقول :

" لا ... بالطبع لا ... الأمر بأكمله و ببساطةٍ أن .... "

قاطعه مهيب :

" إختصر "

صمت عاصم للحظةٍ قبل أن يقول و هو يزفر بعمقٍ محاولًا السيطرة على أعصابه :

" هل لك أن تشتري بنايةً سعرها خمسة ملايين جنيهٍ مصريٍّ بثلاثة ملايين فقط ؟؟ "

صمت مهيبٌ و هو ينفض الوجه الرماديّ عن مقدمة سيجارته التي تحترق بين شفتيه بإخلاصٍ و هو يقول :

" إشرح "

" هل سمعت من قبل عن شيءٍ يدعى المركز الحسي ؟؟ "

" المركز الحسي !! "

اعتدل عاصم و هو يبدأ بالشرح :

" المركز الحسي هو مركزٌ مسؤولٌ عن إدارة تركات القُصّر و عند وصولهم لسنّ الرشد تسلمهم تلك التركات ... أي أن دورهم هو الحفاظ على ممتلكات الصغار كي لا يضيعوها في أشياء لا قيمة لها "

" و ما علاقتي بهذا الأمر ؟؟ "

" هناك طفلٌ قد توفيَ والداه و تركا له تلك البناية و الطفل نُقِل لمصحةٍ ليتمّ ملاحظة حالته الصحية ريثما يظهر أحد أقربائه ليتسلمه ... علمت أنا أن هناك قريباً له و استطعت الوصول له و أقنعته أن يتسلم الطفل من المصحة قبل أن يبلغوا المركز الحسي بحالته و بالتالي تضيع علينا تلك البناية ... الآن هذا القريب الجشع يريد أن يبيع البناية و يستفيد من نقودها لنفسه و هكذا نستطيع أن نمارس عليه الضغط لننتفع نحن بسعرٍ جيدٍ لبناية أكثر من رائعة "

" إستمر "

" حسنًا ... الطفل الآن معنا و تركته لم يُبَلّغ بها المركز الحسي , تبقى الخطوة الأصعب و الأخيرة ... كيف تتحصل على تركته , بمراجعة أملاك والده الفقيد و والدته الراحلة تبين لي الآتي : تلك البناية التي يقطنون بها هي ممتلكه الوحيد , كانوا قد استثمروا كل أموالهم بها , لذا لا يوجد حساباتٌ في البنك أو عقاراتٌ أو أراضي ... البناية فحسب ... يتبقى لنا أمرٌ أخير ... كيف يبيع لك القتيل بنايته قبل أن يتوفى ؟ "

" قبل أن يتوفى ؟؟ و لكنه توفى !! "

" أعلم جيدًا لذلك تمّ تزوير عقد بيعٍ بتاريخٍ قديم و تمّ توقيعه بتوقيعٍ مشابه لتوقيع الفقيد و تذييله بتوقيع قريبه و سيتم توثيقه بالشهر العقاري بتاريخٍ قديم ... و بذلك يكون البيت ملكك "

" و لكن حسب ما فهمت منك أن الفتى له تركةٌ من والده و هي مقدار ما دُفع طبقًا للعقد "

ضحك عاصم و جسده السمين يهتزّ بشدة :

" و هل تعتقد أن مثل تلك الملحوظة الصغيرة قد مرّت على بتلك البساطة ! ... بالطبع هذا لم يحدث "

" هل لي أن أفهم ؟؟ "

" حسنًا ... البناية سعرها يفوق الخمسة ملايين جنيه ... ستشتريها بثلاثة ملايين و هكذا تستطيع توفير مليونين من الجنيهات لتستغلها في أعمالك الأخرى بينما قريب الطفل خالد سيبيعك إياها طبقًا للأوراق بنصف مليونٍ فقط و يتحصل هو على مليونين و نصف المليون ... و بهذا ستكون تركة الصبي نصف مليون جنيه "

*****

صمت عاصم بعد أن قصّ على خالد ما دار بينه و بين مهيب في كلماتٍ سريعة , فكّر خالد للحظاتٍ قبل أن يتساءل في حيرة :

" يبقى هنا السؤال الأهم ... كيف ستُدخِل النصف مليون جنيه إلى المركز الحسبي ؟ "

" أنت بنفسك ستذهب إليهم لتقصّ الأمر و كأنك اشتريتها من أبيه و لكن لم تتوافر معك النقود سوى الآن و لا تنسى أن تزيّن حديثك بآهةِ ألم و دمعة فراق "

ضحك بشدةٍ و هو يقول :

" هل تعلم يا عاصم ... بالفعل كان اختياري لك صحيحًا ... كنت أعلم أنك ستفعلها "

أعطى خالدٌ الأوراق لعاصم بعد أن تفحصها , وضعها عاصم بداخل الحقيبة و وضع الحقيبة على المنضدة الصغيرة و هو يتهيأ للانصراف :

" سأترك لك الحقيبة ... و سأمر غدًا لتأتي معي ... أمامنا يومٌ طويلٌ في الشهر العقاري و المحكمة "

نظر خالدٌ للحقيبة بشكٍّ و هو يقول :

" حسنًا "

" لا تنظر لها بمثل ذلك الشكّ !! ... الأمر و ما فيه أن الشهر العقاري أقرب لك مني ... بدلًا من حمل الحقيبة ذهابًا و إيابًا سأتركها عندك ...

و لا تخشَ شيئًا أنا أثق بك و أعلم أيضًا أنك لا تستطيع أن تفعل شيئًا بهذه الأوراق فالتصاريف تصاريفي و الأمر كله بيدي "

ضحك ضحكةً هائلةً قبل أن يهبط درجات السلم و الفضاء يردد صدى ضحكته بوحشيةٍ مطلقةٍ لا يقطعها سوى صوت طرقات حذائه الثقيل و هو يهبط تاركًا خالد يقف بمفرده حانقًا قبل أن يسمع صوت ضحكة سخريةٍ تصدر من غرفة الطفل لينظر إليها و هو يُغلق الباب من خلفه بعنفٍ تردد صداه لبعض الوقت .

*****

كان بهاء ينام أرضًا يحاول فهم ما حدث له !!

كيف سبّب له القائد تلك الهلاوس التي رآها و شعر بها ؟؟

ما سرّ تلك الكائنات السوداء التي هاجمت رأسه محاولةً الدخول إلى رأسه مسبّبةً له ذلك الصداع الخارق ؟؟

أسئلةٌ عديدةٌ دارت في ذهنه المرهق بينما يشعر بأيدي الفتاة الصغيرة تمرّ برفقٍ على جبهته لتمسح له العرق الذي يفرزه جسده بغزارةٍ و بيدها التي مسحت الدماء عن وجهه , كان رأسه على قدميها , فتح عينيه برفقٍ و هو يتأمل عينيها الزرقاوين و هما تلتمعان بالدموع بسبب عدم فهمها لمصير أبيها أو حتى لمصير الفتى الذي اهتمّ بها و رعاها , شعر بشيءٍ يعبث في قدميه , نظر تجاه قدمه بصعوبةٍ فوجد

شادو , كلبه الصغير ينام بجواره في قلق و كل حينٍ يضرب أنفه بقدم بهاء في انتظار صحوةٍ قادمة ... بصوتٍ مرتعشٍ مرهقٍ هتف في حنان :

" شـــادو ! "

انتفض جسد الكلب و هو يسرع إلى سيده و ينظر له بعينين حزينتين زجاجيتين , ابتسم بهاءٌ في وجهه فاطمأن قليلًا , اقترب بشدةٍ و هو لا يزال يطالع وجهه قبل أن يُخرج لسانه و يلعق وجه بهاءٍ عدة مرات محاولًا تنظيف وجهه بحنانٍ بالغ , قهقه بهاءٌ في إرهاق و هو يتابع بعينيه ابتسامة الصغيرة التي ارتجف لها قلبه البكر.

نظر الأسمر لبهاءٍ الذي يقهقه و هو نائمٌ على الأرض بينما اجتمع حوله الفتاة و الجرو يداعبانه و يروّحان عنه قبل أن ينظر لقائده في قلقٍ و هو يقول :

" أنا قلقٌ منك !! "

" مني ! "

" نعم منك ... ألم ترَ ما فعلت ؟؟ "

" ماذا فعلت ؟؟ "

" أنت أمسكت برأس الطفل و ألصقت جباهكما معًا قبل أن يتشنّج جسده و تزوغ عينيه لتطارد أشياء لم نرها ... ظهر الصراع على وجهه للحظاتٍ قبل أن تنزف أنفه و تظهر عروق رقبته و يصيبه الدوار !! "

أجابه القائد بابتسامةٍ غامضة :

" الحقيقة أنني لم أفعل شيئًا "

تحدث الأشقر للمرة الأولى منذ جلوسه :

" و هذه هي المشكلة !! أنت لم تفعل شيئًا ! "

" و ؟؟ "

" و كيف أصابه ما أصابه طالما أنك لم تفعل شيئًا ! "

اعتدل على كرسيه و هو يقول :

" الحرب النفسيّة ! "

هتف الاثنان بصوت واحد في دهشة :

" الحرب النفسيّة !!! "

" الحرب النفسيّة , التلاعب بالعقول عن طريق الإيحاء , التحكّم عن طريق الوهم , أن تسود دون أن تفعل شيئًا حقًا ... سأقصّ عليكما

قصةً ما ثم أشرح لكما ما حدث : فى أثناء الحرب العالمية الثانية ... وعندما خالف ثلاثة ضباطٍ أمر القائد النازيّ أدولف هتلر ... قرر حبس كلٍّ منهم فى سجنٍ انفراديّ , وقيّد كلّ واحدٍ منهم ووضع أمامه ماسورة مياهٍ تسرّب نقاط المياه ببطءٍ شديدٍ فى حركةٍ دوريّةٍ مملّة , وقال لهم أن السجن به تسربٌ لغازٍ سامٍّ سيقتلهم خلال ستة ساعات , وبالفعل وبعد مرور أربعة ساعات ، ذهب هتلر ليتفقدهم فوجد اثنين منهم قد ماتا والثالث يلفظ أنفاسه الأخيرة ... الحقيقة أن هتلر ابتدع فكرة الغاز السام ... فلم يكن هناك أيّ تسربٍ غازي ... إلا أنه استخدم طريقة الحرب النفسيّة أو " القتل بالإيحاء " معهم ... فجعل عقولهم هي التي تقتلهم ... وذلك بسبب اقتناعهم التام باستنشاقهم غازًا سامًا مما جعل أجسامهم تُفرز هرمونًا معيّنًا أثّر سلبًا على القلب وأدّى إلى توقف أجهزة الجسم والموت "

تبادل الإثنان النظرات في دهشةٍ فابتسم و هو يقول :

" أنا لم أكن طفل شوارعٍ مثلكما و قررت أن أصبح مجرمًا !! لقد تخرّجتُ من أشهرِ كلية طبٍ في العالم و استهواني كثيرًا الجسد البشري و تشريحه "

لمعت أعينهما بالفهم للحظةٍ قبل أن يستكمل كلماته و هو يتحرك ليدخل إلى الغرفة الصغيرة التي تُستخدَم كثلاجةٍ و التي يرقد بداخلها جسد الأب , أغلق الباب خلفه بعد أن تبعه الإثنان و وقف أمام الجثة

و هو يفتح درجًا صغيرًا ملحقًا بالمنضدة المعدنية الباردة و يتناول منها قفازًا يغطّي به يديه, و كأنما يحافظ على عذريتهما أمام الدماء و هو يتناول المشرط و يبدأ في غرسه في منتصف الصدر جاذبًا إياه للأسفل, قبل أن يظهر خيطٌ من الدماء و هو يطارد المشرط في رحلته , تأمّل الدماء قبل أن يغرس إصبعه فيها و هو يتأملها للحظة و يضع إصبعه في فمه ليمتص الدم بنهمٍ و نشوة , نظر الإثنان لبعضهما البعض قبل أن يتحدث القائد أخيرًا :

" كل ما فعلته أنني أوحيت إليه أنني سأعاقبه بشكلٍ ما , و عقله تولى باقي المهمة عني ... أنا لم أفعل أيّ شيء و لا أدري أيضًا بمَ شعر أو ماذا رأى و لكنني أهتمّ حقًا بأنني حقّقتُ مرادي "

كان يمسك شيئًا ما بيده بينما الدماء تتساقط منه و هو ينظر للأشقر و يقول برجاء :

" هل من الممكن أن تعطيني دلواً ؟؟ "

أعطاه دلوًا معدنيًا فأشار له أن يضعه تحت قدمه قبل أن يحركه بقدمه بعض الشيء و هو يُفرغ فيه ما بيده ... تحدّث الأسمر أخيرًا و هو يقول :

" سيدي ... سأعترف لك ... أنا حقًا أخشاك "

ضحك القائد بشدّةٍ و تردّدت ضحكاته بين جدران الغرفة ... و في الخارج سمع بهاء صوت الضحكة و قد بدأت سحابةٌ من صفاء الذهن تطفو على جسده و عقله و بدأ يستعيد تركيزه و يسيطر على أفكاره ؛ نظر للصغيرة في حنانٍ و هو يقول :

" يجب أن أخبرك شيئًا مهمًا ... لقد سافر أباك و لن يعود قريبًا "

ظهر الخوف في عيونها التي اغرورقت بالدموع في وهنٍ فأمسك يدها برقّةٍ و هو يقول :

" لقد أخبرني قبل أن يرحل أن أهتم بكِ "

نظرت له بدون أي تعبيرٍ على وجهها , وقف أمامها لحظةً قبل أن ينحني في حركةٍ مسرحيةٍ و هو يقول في احترام:

" هل تسمح لي أميرتي الصغيرة أن أنّصبها ملكةً على حياتي و أرعاها كخادمٍ وفيّ ؟ "

ضحكت و صفّقت بيديها كثيرًا في جذلٍ طفوليّ , شادو الجرو الصغير هو الآخر انحنى تحت قدميها و كأنما يقدّم فروض الولاء للأميرة الجديدة , اختفت الدّموع من عينيها لوهلةٍ قبل أن يعود الحزن ليسترد مملكته الأثيرة , القلوب!

سألته في حزن :

" لن يعود ؟ "

" سيعود "

في تلك اللحظة خرج القائد من الغرفة و هو يحمل في يده ثلاجةً صغيرةً من النوع الذي يستخدم في نقل الأعضاء , أشار لبهاء في صفارةٍ حادّةٍ اخترقت حصون قلبه ليرتعش و هو يتذكر ما أصابه , التفت له بخوفٍ فأشار له القائد :

" هيا معهما لتتعلم كيف تدير زمام الأمور ... أريدك أن تتعرّف على هذا العميل و أن تكسب ثقته "

ثم بنظرة حادة للفتاة :

" يبدو أننا سنعمل على توسيع النشاط قريبًا "

نظرةٌ حائرةٌ من الفتاة محملةٌ بعبق خوفٍ دفين رماها بها بهاء, لتتلقفها بعيتين لامعتين قبل أن توئدها بداخل روحٍ متوترةٍ تحمل رفات أمانٍ قد زال , نظرة وداعٍ هي آخر ما رآه و هو يخرج من باب المخزن .

*****

في الصباح استيقظ خالدٌ من نومه المتقطّع شاعرًا بثقل رأسه , لم ينعم بساعةٍ كاملةٍ من النوم بسبب ذلك الصبيّ , صرخات استهجان ،

آهات ألم ، ضحكاتٌ هيستيرية ، أصواتٌ غريبة ، كلمةٌ يرددها باستمرارٍ و كأنه يغنيها بلحنٍ سوداويٍ جنائزيٍ حزين

" طـــار"

" طـــار"

" طـــار"

شعورٌ بالإرهاق مصحوبٌ بلعنة تكسير العظام يغزو جسدًا بلله العرق في معركةٍ محسومة النتائج , شعرٌ خفيفٌ متطايرٌ يقف على جانبي الرأس احترامًا للألم، الرفيق المقدس لقلّة النوم , عينان زائغتان مرهقتان تدوران في محجريها في عدم تركيز , خطواتٌ بطيئةٌ متوترةٌ مشى بها نحو الباب الذي يُطرق خشبه بإلحاحٍ و كأنه طارقه يدعو الألم لبذل مجهودٍ مضاعفٍ في جنبات جسد خالد ...مد يده يتحسّس بها جسد الباب الخشبيّ قبل أن يصل لمزلاجه و هو يفتحه و يترك الباب و يرحل متجهًا إلى المطبخ؛ دخل عاصم من الباب صائحًا في حماس :

" يبدو أنك كنت تغطّ في نومٍ عميق ! "

وضع خالد يده على شفتيه في إشارةٍ لعاصم بالصمت قبل أن يشير له على أذنه و على باب غرفه الطفل و كأنما يدعوه للمشاركة معه في هذا اللغز

" طـــار "

" طـــار "

" طـــار "

ابتسم عاصم ابتسامة سخريةٍ و هو يقول :

" يبدو أنه يقصد أن إرثه من أبيه قد طار "

أنهى كلماته مرفقًا بها ضحكةً صاخبةً اهتزت لها أركان رأس خالدٍ الذي أشار له بعصبيةٍ هذه المرة ليصمت و هو يشير له إلى الكرسي الذي ملّ وحدته في بهو منزلٍ كبير ليجلس عليه مؤنسًا إياه ريثما ينتهي من بعض الأشغال , تركه خالد و دلف إلى المطبخ , قبلةٌ ساخنةٌ بين الغاز و النار أشعلت إحدى شُعلات الموقد لتكلّل تلك القبلة بنجاحٍ تام , أمسك ببرادٍ صغير و ملأه بالماء قبل أن يضعه على الموقد و يتركه ليمارس هوايته المفضلة في الغليان و هو ينهمك في تحضير كوبٍ من القهوة الثقيلة قبل أن يُشبعها بالماء المغلي ليصنع المشروب السحريّ و المخدّر الوحيد المسموح به حول العالم ... القهوة ... ذلك الكائن البنيّ الذي يحمل بين قطراته إكسير الحياة ليبثه في العروق عندما يجري بها ليعيد حماستها و يزيدها نشاطًا.

بضع رشفاتٍ سريعةٍ من كوب النشاط الذائب و بدأ الصداع في الفرار من أمام جيوش القهوة العاتية النشاط محمّلًا بأذيال الخيبة واعدًا

بالانتقام في يومٍ عصيبٍ آخر , ألقى الكوب في الحوض بلا اهتمام و هو يخرج لعاصم المنهمك في البحث بعينيه عن شيءٍ ما , ابتسم خالد بمكرٍ و هو يسأله بنبرةٍ تحمل معنًى غامض :

" هل تبحث عن شيءٍ ما ؟ "

كفّ عاصمٌ عن البحث و هو يراقب ردود فعل خالد متسائلًا : " أين الحقيبة ؟؟ "

" الحقيبة في أمان و لكن هناك شيءٌ ما جدّ في الأمر "

" شيءٌ جدّ ؟؟ ... هذا لم يكن ضمن الاتفاق ! "

" عاصم ... شروط الاتفاق تُحدّد بناءً على طلبي و ليس شيئاً آخر "

" طــــار "

" طــــار "

" طــــار "

" هذا الفتى بدأ يستفزّني يا خالد فمن فضلك لا تتلاعب بأعصابي أكثر من ذلك "

استند خالد على الحائط بكتفه و هو يراقب عاصم مرسلًا له رسالةً مفادها أن آخر ما عنده قد قيل .

أخرج عاصم هاتفه المحمول من جيبه و هو يضغط أزراره بعصبيةٍ قبل أن يضعه على أذنه و ينصت قليلًا منتظرًا أن يأتيه الردّ من الجهة الأخرى :

" أستاذ مهيب ... معك عاصم "

" .... "

" نعم ، أعلم سيدي أنه هاتفك الشخصيّ و أعلم أنك طلبت مني ألا أحدثك عليه "

" .... "

" سامحك الله يا سيدي ... الناس مقاماتٌ و أنت مقامك عالٍ لذا فلن أرد عليك "

" .... "

" آسف ... آسفٌ للغاية "

" .... "

" أريد أن أراك اليوم ... هناك أمرٌ طارئٌ قد حدث "

" .... "

" أعلم و لكنني في حاجةٍ ضروريةٍ لأن أقابلك اليوم "

" .... "

" حسنًا ... حسنًا في الثالثة تمامًا سأكون أمامك "

" .... "

" أعلمه جيدًا ... حسنًا ... شكرًا لك و آسفٌ للمرة الأخيرة "

" .... "

" حسنًا ... مع السلامة "

أغلق الهاتف و نظر لخالد بحقد , متأملًا ابتسامته الواسعة التي تملأ وجهه قبل أن يدخل للغرفة غير عابئٍ بصرخات الاحتجاج التي تأتي من غرفة الطفل .

<u>مطعم " دو لا بينا " للمأكولات البحرية</u>

<u>القاهرة – الزمالك</u>

<u>الساعة الثالثة عصرًا</u>

للمرة الثانية يقف عاصم أمام مهيب إجلالًا و هو يتناول طعامه يراقبه بعينين تملأهما الشهوة التي يحرص عاصم أن يداريها جيدًا , كان يقف

جوار خالد مزدانين بحلاتٍ فقيرة الهيئة رخيصة السعر , تضاءلت أناقتهما أمام لمعة حذاء مهيب !!

كان منهمكًا في تقطيع شريحةٍ من لحم سمك التونة لقطعٍ صغيرةٍ قبل أن يضع السكين بجوار الطبق مبدِّلًا الشوكة ليده اليمنى متناولًا طعامه بهدوءٍ قاتل , دقائق قليلة مرّت قبل أن يشير للنادل الذي حضر سريعًا و توقف أمام منضدته منحنيًا في احترامٍ و هو يرفع الطبق راحلًا , أشار مهيب لعاصم و خالد بالجلوس , جلسا متجاورين و شعورٌ بالخجل و الضآلة يجمعهما , ملتصقين ببعضهما كتلميذين ينتظران عقابًا , أتى نادلٌ آخر في سرعةٍ و هو يضع أمام مهيب طبقًا صغيرًا ممتلئًا حتى حافته بكريّاتٍ صغيرةٍ عرف فيها خالد الكافيار و إن لم يحدد نوعه , تناول مهيب بضع كرياتٍ بطرف ملعقته قبل أن يضعها في فمه و يتذوقها و هو يغمض عينيه في نشوةٍ احترامًا و تقديرًا لجودة الطعام و لذّة مذاقه...

فتح عينيه و هو يعتدل و يشير لمحتويات الطبق قبل أن يشير إلى أذنيه محركًا رأسه بهدوءٍ مع اللّحن الرائع المنبعث من بين مسامات الـ sound system الخاص بالمطعم

أخيرًا تحدّث مهيب بصوتٍ هادئٍ واثقٍ مخيف :

" أتعلم ... أنا في انتظار هذا الطبق الصغير منذ أربعة سنوات ... أنت الآن تنظر لشيءٍ يقدّر عمره بحوالي 120 مليون عامًا ... هذا النوع

الفاخر من الكافيار يسمى بالكافيار الماسيّ ... لا يوجد سوى بإيران و يقال أنه ينتمي لفصيلةٍ معينةٍ من الأسماك عاشت و عايشت الديناصورات ... لا يُقدّم عادةً إلا في إنجلترا و لكن مهيب الصاوي لا يُرفض له طلب ... حضر على طائرةٍ خاصةٍ بأقصى سرعةٍ إلى هنا ... اتعلم هذا الطبق الصغير كم تكلفته ؟؟ "

هزّ الإثنان رأسيهما في دلالةٍ على غياب تلك المعلومة عن رأسيهما , ابتسم و هو يتناول ملعقةً أخرى من الطبق مستمتعًا بنشوةٍ تفوق أيّ نشوة ؛ أجاب و هو يهتز برأسه طربًا بين طبقات صوت الرائعة " Christina Perri " التي تصدح برائعتها مذهلة الجمال " A Thousand Years " :

" ستة عشر ألف دولار أمريكي ... أي ما يقارب الربع مليون جنيهًا مصريًا"

ضحك و هو يتأمل اتّساع عيونهما مصحوبًا برقصة جنونٍ من بؤبؤين ذُبحا من قسوة الدهشة قبل أن يقول و هو يشير للنادل الذي أتى و حمل الطبق الفارغ :

" خير ؟ "

تنحنح عاصمٌ و هو يجيب بصوتٍ خافت :

" لا أعلم ... خالد هو من أصرّ على مقابلتك "

ابتسم مهيب في وجه خالدٍ و هو يقول :

" جرّةٌ من القلوب "

" لا أفهم "

حدّثه مهيبٌ بإنجليزيةٍ سليمة :

" Jar Of Hearts ... أعشق تلك الأغنية ... شيءٌ عبقريٌّ سواءً على مستوى الكلمات أو على مستوى الموسيقى "

ابتسم خالد قبل أن يحدثه مهيب الذي بدت عليه علامات الرضا عندما لمح بعينه النادل القادم يحمل كأسًا من النبيذ :

" ها قد أتى نبيذي المفضل ... تحدث يا خالد "

ترك خالد يتحدث و هو يرشف أولى رشفاته من الكأس الكريستالي , أتاه صوت خالد قويًا و هو يقول :

" لقد غيرت رأيي ... لا أريد النقود "

كاد يختنق و هو يسعل بعنف متأملًا خالد الذي حان دوره ليبتسم للمرة الأولى منذ حضر.

*****

اتّسعت عينا مهيبٍ و هو محمرّ الوجه مختنقٌ من أثر السعلة الحادّة التي سعلها و هو منهمكٌ في شرابه , نظر لخالد و هو يتناول منديلًا يمسح به عن وجهه آثار معركةٍ خسرها على يد الدهشة , وضع منديله المبتلّ بقطرات نبيذٍ ثائرةٍ على المنضدة و هو يشير بإصبعه دون أن ينظر لنادلٍ يحاول فهم المطلوب , في لحظاتٍ كان قد بدّل الكوب و أتى بآخر جديد وضعه على المنضدة مستسلمًا لاسترسال النبيذ المتساقط من فوهةٍ زجاجيةٍ حمراء اللون , انتهى النادل فصرفه مهيب بإشارةٍ من يده , تجاهل صوت الموسيقى بعصبيةٍ و بدأ يشعر أن الهواء قد زاد سخونته , أشار لأحد العاملين أن يخفض درجة حرارة المكيف , لحظاتٌ مرّت قبل أن يهاجمه جيشٌ عاتٍ من النسمات المثلجة التي نفخها التكييف من بين شفتيه ليلطّف الأجواء قليلًا , كان مهيب الصاوي غاضباً بشدّة , محمرّ الخدين و شحمتي الأذن , يطرق بأصابعه بعصبيةٍ على المنضدة الزجاجية المستديرة , راقب مهيب بعينين تشتعلان غضبًا ابتسامة خالدٍ المتّسعة قبل أن يُغمض عينيه للحظاتٍ و هو يتنفس بعمقٍ محاولًا السيطرة على بركان الغضب الذي يحاول أن يثور بداخله, لأنه يعلم جيدًا أن ذاك البركان لو ثار فسيحرق بحممه أشخاصًا كثيرين قبل أن تخمد تلك الثورة , فتح عينيه فجأةً و هو يتأمل خالد قبل أن يقول :

" لِمَ تبتسم ؟؟ "

ارتبك خالدٌ الذي لم يتوقع السؤال فاختفت ابتسامته للحظاتٍ قبل أن يستعيد رباطة جأشه و هو يحاول رسم ابتسامةٍ باهتةٍ مرةً أخرى قائلًا :

" أعتقد أنك تعرف ... "

كان عاصم يجلس مراقبًا المبارزة النفسيّة التي تتم صامتًا , لا يريد أن يخسر مهيب الصاوي الذي أثقل كاهله بتهديداتٍ يعلم جيدًا أنه يستطيع أن ينفذها و لا يريد أن يخسر خالد لكي لا تضيع نسبته من إرث الصغير , سمع صوت مهيبٍ يأتي واثقًا ساخرًا :

" أعلم أنك فَرِحٌ لأنك فاجأتني ... أعترف لك أنني تفاجئت "

" ظهر عليك الأمر "

" هل تعلم أنني لم أتفاجأ منذ حين ؟؟ "

" لهذه الدرجة ! "

" هل تعلم أن هذا الكون يمشي وفق تخطيطات و تعليمات مهيب الصاوي "

" غرور ؟؟ "

" ثقة ! "

" زائدة ؟؟ "

نظر مهيبٌ له لبرهةٍ و هو يمتص شفتيه دلالةً على محاولةٍ لكبت الغضب , للحظاتٍ مسّ أنفه و كأنه يطمئن على وجودها و هو يقول لخالدٍ ناظرًا لحذائه الذي فقد لمعته :

" أتعلم ... يبدو أنك حسن الحظ "

"هل لي أن أعلم لماذا ؟؟ "

" يقولون أن الموسيقى تهدّئ البشر ... إشكر كريستينا فهي السبب أنك ستعيش ليوم آخر"

" هل لي أن أشرح ؟؟ "

" هل لك أن تختصر ؟؟ "

" حسنًا يجب أن تعرف أن معرفة حضرتك تساوي عندي كنوز الكون كله "

" إختصر يا خالد "

" لا أريد النقود ... أريدك أن تستثمرها في أحد مشروعاتك و تجعلني مساهمًا فيها ... عملي معك شرفٌ كبيرٌ لي "

أشار مهيبٌ لعاصم إشارةً معناها أن الوقت انتهى , في صمتٍ شعر خالدٌ بيدٍ تقبض على مرفقه برفق , استدار ليجد شخصًا يبدو من مظهره أنه الحارس الشخصيّ لمهيب , مفتول العضلات حليق الرأس و الوجه , سماعةٌ إلكترونيةٌ في أذنه , شفتان غليظتان تتناسقان مع وجهٍ ظهرت عظامه بضراوةٍ لتعلن عن أصله المصريّ الخالص , حتى جِلّته السوداء اللامعة شعر خالد بجوارها بالضآلة , لم يُقاوم و إنما جذب ذراعه من يد الحارس و راضاه بابتسامةٍ لطيفة , لا يريد أن يحتدّ الأمر , مشى و أمامه عاصم يهتز بدنه من الانفعال : خرجا لتصفعهما نسمة هواءٍ حارّةٍ تختلف كلّ الاختلاف عن درجة حرارة جسديهما و كأنها تعاقبهما على تهور خالد , نظر له عاصم بجنونٍ و جسده يرتجف بانفعالٍ لا يخفى على أحد , هناك زلازلٌ و براكينٌ و أعاصيرٌ تتصارع بداخله و لكنه يمسك بزمام أموره كيلا ينفجر أمام أو بجوار مهيب , أمسك بيد خالد كأنما يجذب طفلًا صغيرًا و مشى به , تركه خالد يقوده و هو يفكّر في الأمر الذي لم يدرس جنباته جيدًا قبل أن يتفوّه به , يفكّر في القنبلة التي أمسكها بيده قبل أن يكتشف أن فتيلها قد جُذب منذ حين , ستنفجر فيه لا شك , وصل عاصمٌ به لشارعٍ جانبيٍّ بعيدٍ عن الأعين , بمجرد أن دخلاه ترك عاصم يده و هو يدفعه بعنفٍ للحائط و يلصق ظهره فيه و هو يضغط على عنقه بيده و يقول بصوتٍ مبحوحٍ خافتٍ و بؤبؤا عينيه يرقصان في جنون :

" مهيب الصاوي لا يلعب ... أنا عندي أطفالٌ أريد أن أحيا لأربيهم ... من الآن أنت لوحدك "

" إسمعني "

كثعبانٍ يبصق سمّه في وجه ضحيته وضع عاصمٌ كلماته في إطار حازم ثم قذف بها في وجه خالد :

" إسمعني أنت ... من الآن أنت بمفردك ... سنذهب الآن إلى الشقّة و ستحضر حقيبتي ... انتهت علاقتنا "

لم يردّ عليه خالد و قد يئس من جنونه و قلّة صبره , رفع كتفيه قليلًا و هو يمطّ شفتيه في إشارةٍ لعدم الاكتراث : جذبه خالدٌ من ياقة قميصه بعنفٍ و هو يصرخ به :

" هيا "

وصلا الشارع الذي تقبع به العمارة و قبل أن يصعدا السلم لاحظا شيئًا غريبًا من النافذة التي تطِلّ على سلم الشقة , هناك ضوءٌ برتقاليٌّ يتراقص بعنف, و هذا دليلٌ على شيءٍ واحدٍ فقط ... الزهرة البرتقالية هنا ... النار!

*****

خرج بهاء من باب المخزن ماشيًا ببطء, يرغب لو يعود بالزمن للحظة لقائه بهذا الرجل و أن يرفض منه الشطيرة التي كانت السبب في كل ما يحدث له , تورّط مع عصابةٍ قاتلةٍ تتاجر في الأعضاء البشرية من أجل حفنةٍ من النقود , منظمةٌ أباحت حرمة الجسد البشري من أجل أوراقٍ ملوّنة !!

قطع تفكيره صوت خطواتٍ تعدو خلفه , انتفض جسده و هو يشعر بالخوف , عرقٌ باردٌ أفرزه جسده ليغطيه , لحظةً واحدةً أمامه و هو يسمع صوت الأقدام تقترب منه , يده تقبض على الحقيبة التي تحمل شعار أحد أهم مطاعم البيتزا في المدينة و المليئة بالثلج الذي يحفظ هذا العضو من التحلل , قدماه تتوتّران و يسمع صفيرًا مُزعجًا في أذنه ... يركض أم يقف ؟؟

الوقت يمرّ ... فليركض !!

قبل أم يتحرك خطوةً من مكانه أمسكت يدٌ قويةٌ بكتفه , تسمّر مكانه و كأنما توقف الزمن , التفت برأسه للخلف ببطءٍ فوجد الأشقر و الأسمر يقفان خلفه مبتسمين ابتسامة سخريةٍ تحمل بين ضفتيها الكثير من الشرّ و الغضب , توتّرت ملامحه و انقبضت عضلات وجهه و هو يراقبهم للحظةٍ قبل أن يسألهم بلهجةٍ جافّةٍ و إن شابها رعبٌ متوتر:

" لماذا أتيتم ؟؟ "

بادره الأشقر بالسؤال و هو يصفعه برفقٍ على مؤخرة رأسه :

" أين ستذهب يا عبقريّ زمانك ؟؟ "

أجابه بحدّةٍ و هو يتحسس رأسه مكان الصفعة :

" سأذهب لتسليم تلك الطلبية للعميل الذي يرغب سيدي في أن أتعرّف عليه "

أجابه الأسمر و هو يحرك رقبته بعنفٍ ليستمع بهاءٌ لصوت قرقعة عظامها تنتفض في نشاط :

" و أين العنوان ؟؟ "

احتلّ ملك الصمت جسد بهاء, و أعلن رفع راياته فوق سكونه و وجومه أمام السؤال , يبدو أنه انهمك في أفكاره الكثيرة متناسيًا السؤال عن العنوان , بهدوءٍ تناول منه الأشقر الحقيبة القماشية و قد ظهر في لهجته الحنوّ و إن كانت السخرية موجودةً و كأنها ركنٌ أساسيٌّ من أركان تعاملاتهما معه :

" يا بهاء يا صغيري , أنت الآن من رجالنا بغضّ النظر عن بلاهتك أو صغرك , يجب أن تركّز ... قلّة التركيز في مهنتنا تعني الموت ... و الموت فقط "

هزّ بهاء رأسه في خوفٍ متوقعًا صفعةً أو ضربةً و لكن هذا لم يحدث , تناول الأسمر طرف الحديث برفقٍ فقال له :

" هذا العميل مهمٌ جدًا ... أهميته تكمن في أنه يتعامل مع الصفوة ... وزراء ... نجوم مجتمع ... أدباء ... سينيمائيون "

قاطعه الأشقر :

" يتعامل مع كل من لا نستطيع الوصول إليهم "

فكر بهاء بصمتٍ للحظات قبل أن يسأل :

" و لماذا لا نتعامل معهم مباشرّة بدلًا من الوساطة ؟؟ ففي تعاملنا معهم فائدتين ! "

سأل الأسمر و قد بدأت علامات التفكير تظهر على وجهه :

" الفائدة الأولى هي الأموال ... سنحصل على أموالنا كاملة دون أن تُخصَم منها نسبة الوسيط ... أتفق معك فيها تمامًا و لكنني لا أعرف ما هي الثانية ؟؟ "

ابتسم بهاءٌ و قد شعر أنه ملك زمام الحديث لأول مرة :

" الأخرى في النفوذ ... إذا كنت المورِّد الوحيد لسلعتك عند صفوة المجتمع فسوف يحمونك بنفوذهم كي تظل سلعتك متاحةً و بالتالي لن

تضطر لأن تعمل في الظلام و إنما ستنقل عملك إلى النور محتميًا بظلّهم هم "

ابتسم الأشقر و هو يقول في لهجةٍ خلت منها السخرية و لأول مرة :

" يبدو أن المُعلم لم يكن مخطئًا عندما اختارك برغم صغر سنك ... فكرتك جيدةٌ جدًا و سأعمل على توصيلها للزعيم عند عودتنا "

رفع يده في الهواء على طريقة التحية الأمريكية الشهيرة (Hi five) ليصدم بهاء كفيهما برفق دون أن يلاحظ أيٌّ متهما نظرات الأسمر التي تكاد تأكلهما أكلًا , استمر الجميع في المشي بين الأزقة الخالية و الشوارع المظلمة , الميادين المهجورة و البنايات المهدمة حتى وصلوا إلى بنايةٍ مهدمةٍ خربةٍ من الخارج , أشار لهم الأشقر بالصمت و هو يعطي الحقيبة للأسمر و يخطو أولى خطواته إلى بهو البناية المهجورة , وقف بداخلها و هو يصفّق بيديه لحن أغنيةٍ حزينة , لحظات صمتٍ ثقيلٍ مرّت عليهم قبل أن يسمع الجميع صوت صفير شخصٍ يستكمل لحن الأغنية, لم يتوقف الأشقر و إنما استمرّ في التصفيق للحظاتٍ قبل أن يرى الجميع شخصًا يظهر من خلف أحد الحوائط المهدمة , جسدٌ رياضيٌّ ممشوق القوام , حليق الشعر و الوجه كثيف الشارب الذي ينسقه بطريقةً تُذكّرك بالأمراء الأتراك , على عكس العادة يرتدي قميصًا ضيقًا بعض الشيء و إن كان هذا الأمر يبدو مقصودًا من أجل إبراز بعض العضلات التي وضِحت من خلاله , بنطالًا من خامة الجينز

الشهيرة يميل للون الأزرق الفاتح و عليه حزامٌ من الجلد الطبيعي أسود اللون ينتهي بإبزيمٍ فضي , حذاءٌ رياضيٌّ أبيض اللون تحيطه من الجانبين خطوطٌ جلديةٌ سوداء تنتهي عند الكعب الذي يتوسّطه اسم الشركة المصنّعة في علامتها التجارية الشهيرة , تحرّك بخطواتٍ واثقة , الغريب أنه عندما اعتدل لَمَح مسدسه الذي يقبع تحت إبطه مستكينًا في جرابه دون حراك , لم يحاول إخفاءه أو أنه كان يرتدي فوقه جاكت , إذًا هو ليس بمفرده و يبدو أن هناك سيارةٌ قريبة ؛ كان هذا آخر ما فكر به بهاء قبل أن يشعر بحركةٍ خافتةٍ من خلفه , و شعر بكيسٍ قماشيٍّ يوضع على رأسه ليمنع عنه الرؤية و إن كان مصَنّعًا بطريقةٍ لا تمنع دخول الهواء , حاول أن يقاوم إلا أنه سمع صوت الأشقر يأمره بالاستسلام , هكذا شروط المقابلة و هكذا يقتضي اللقاء , ترك نفسه يتحرّك طبقًا لتعليماتٍ يصدرها له مرافقه بدفعاتٍ صغيرةٍ تحدّد له الاتجاه الذي سيمشي فيه , جذبةٌ صغيرةٌ من ملابسه أمرته بالتوقف , لحظاتٌ مرّت قبل أن يسمع صوتًا خافتًا لباب سيارةٍ يُفتح في رفق , دُفع بعنفٍ ليركب السيارة فاصطدمت رأسه بالإطار المعدنيّ للباب فتأوه باحتجاج , لم يلتفت له أحدٌ و هو يعتدل على كرسي السيارة و يشعر باثنين من المرافقين يحيطانه من الجهتين , عرفهما من إحساسه بأجسادهما الضخمة و رائحتهما الممتزجة بعرقٍ مكتوم؛ سارت السيارة ببطءٍ ميّزه من صوت هدير محركها الناعم , دقائق طويلةٌ مرّت قبل أن يسمع صوت ضوضاءٍ ظهرت للحظاتٍ و اختفت , دقائق أخرى و ساد

هدوءٌ تامٌّ و توقفت السيارة , ترجّل منها بناءً على زجرةٍ من مرافقه , وقف يشعر بنسمات الهواء البارد قبل أن يميّز صوت ماء !!

هناك أمواجٌ تصطدم بالحائط برفق , يعلم جيدًا مثل هذا الصوت , أخيرًا رُفع عن رأسه الغطاء , تأمّل الأضواء التي أغشت عينيه قبل أن يتأمل المكان ببصره , ابتسم عندما رأى الماء و شعر بالموج الذي يدغدغ الحائط الصخري ليندلع الصوت المحبّب له , صوت قهقهة الماء عندما يتكسّر فوق الحائط , تأمّل الحضورَ أمامه للحظاتٍ قبل أن يسمع صوت الرجل الذي رآه من قبل و هو يخاطبهم بلهجةٍ واثقة :

" أندرو قادمٌ خلال لحظات "

شعر الجميع بالأجواء تتوتر , جميع الحرس يعتدل في احترامٍ و هيبة , السجائر المشتعلة دُفِنت تحت الأقدام و تمّ وأدها سريعًا ... و ظهر أندرو أمام الجميع .

*****

في خطواتٍ سريعةٍ مجنونةٍ قطع خالدٌ المسافة القليلة التي تفصله عن مدخل المنزل المتهدّم , و كأن الحلَق الخشبي للباب يشاركه ذعره , اصطدم به خالدٌ ليرتجف مُسقطًا بضع ذرّاتِ غبارٍ كانت متراكمةُ تنام بهدوءٍ بين ثنياته , التفت للخلف نصف التفاتةٍ يراقب بطرف عينه من بين تعجله عاصمًا الذي يجري خلفه بسرعةٍ تتناسب مع جسده البدين الذي كان يهتز , تركه خالد و هو يصعد درجات السلم في قفزاتٍ

غير منتظمة , يأكل بقدميه درجات السلم مثنى و ثلاث في كل قفزة , استند بيده على الحائط عندما هاجمته إحدى الدرجات التي انهارت مقدمتها مما جعل قدمه تكاد تزلّ , رفع يده ليرى قليلًا من الجير المدهونة به الحوائط يتعلق بيده , نفضها سريعًا في ملابسه و هو ينظر خلفه و يكاد يحذر عاصم منها و هو يصعد بسرعة , لم يستطع أن يحذّره , راقب عاصم و هو يزلّ ليقع على وجهه على درجات السلم , انزلق جسده درجتين أو ثلاثة للأسفل قبل أن يتمالك نفسه و يستند بيديه إلى السلم رافعًا جسده للأعلى: بأنفٍ أدمته السقطة و عينين تقاومان الألم خاطب خالدًا الذي فهم رسالته بلا حروف , أكمل خالد طريقه متجاهلًا درجات سلمٍ معوقة تحاول اعتراضه و أجزاءً من سور سلمٍ تعيقه عن رحلته , وصل أخيرًا إلى الدور المنشود , توقف للحظةٍ قبل أن يقرر أن يستكمل طريقه , تأنّى قليلًا كيلا تصيبه النار بضرر , درجةً بدرجةٍ كانت المسافة بينه و بين الباب تقصر , انتهى السلم و التفت جهة اليسار متوقّعًا أن يواجه نيرانًا عاتية: توقع أن يرى باب الشقة و قد انهار تحت وطأة النيران , إلا أنه وجد نفسه وحيدًا أمام باب الشقة المغلق بإحكام , للحظةٍ توقع أن النيران داخل الشقة و لكن صوت الهدوء أثناه عن فكرته , لا صوت لقرقعة نيران , و أيضًا لو كانت بداخل الشقة فلم يكن ليراها من مكانه بالأسفل , بيدٍ مرتجفةٍ من اندفاع الأدرينالين بحث في جيبه عن المفتاح المعدني الذي مدّه إلى الباب ليفكّ شفرة صموده و يتراجع أمامه مفسحًا له طريق الدخول , تأمّل الشقّة بعينيه و تأكد من وجود الطفل في مكانه , كان يجلس في

فراشه متأملًا الحائط ممسكًا بيديه مجتمعتين , ترك خالد جسده يهبط على الكرسي محاولًا تمالك أعصابه , ارتجاف جسده , صدره الذي يصعد و يهبط بعنف , أنفاسه المتلاحقة , عرقه الذي غطى جسده , جلس للحظاتٍ ينهج محاولًا استعادة انتظام أنفاسه , ظهر عاصم مترنّحًا على السلم , يبدو أنه كان يعرج جراء سقطته , منديله اليتيم يغطي أنفه الذي أصابه بعدوى اللون الأحمر , نظر له و هو يهتز و يحاول التقاط أنفاسه و سأله بصوتٍ مكتوم :

" هل أطفأتها ؟ "

ارتجف خالد غضبًا و هو يرد :

" طبعًا أطفأتُها و واريت آثار الخراب و جفّفتُ الماء الذي استخدمته في عملية الإطفاء !! ... ماذا ترى ! "

أجاب عاصم و هو يكظم غيظه :

" لا أفهم !! "

" كما ترى ... صعدتُ إلى هنا لأجد ما ترى ... لا نيران ... لا حرائق ... لا شيء و الطفل يجلس و كأن شيئًا لم يحدث "

" إذًا تخيّلت الأمر ؟؟ "

" هل سمعت من قبل عن حالة تخيّلٍ ثنائية !! ... هناك شيءٌ خاطئٌ لا أعرفه و لكن هل تذكر ما قلته لك عن كلمات الشرطي المختلّ في المصحة "

" ماذا قال ؟؟ "

" قال شيئًا يشبه أن هذا الطفل مستحوذٌ عليه من قبل شيطانٍ و أنه خطرٌ و غير طبيعيّ و كاد يرجوني ألا أُخرجه من المصحة لكنني لم أصدقه حينها "

" و الآن هل تصدقه ؟ "

" منذ البداية أصدقه , و صدّقني ... سأكشف الستار عن هذا الغموض قريبًا "

" أعطني حقيبتي ... سأرحل بلا عودة ... إبحث لك عن محامي آخر "

" تعقّل يا عاصم ... لقد بدأنا هذا الطريق سويًا و لن نتراجع أمام بضعة مشاكل "

" خالد ... أخبرتك من قبل ... عندي أطف.... "

" هل تعتقد أنك الوحيد الذي أنجب في مصر !! ... يا سيدي الفاضل أتِمّ الأمر و ارحل وستبيت معي اليوم و غدًا في الصباح الباكر سنتحرك إلى الشهر العقاري لنوثق الأوراق و ينتهي الشِقّ الخاص بك في العملية

مادمت مصممًا على الرحيل و انا سأنتظر إشارة من مهيب لنُتِمّ الأمر بأكمله "

" مهيب !! هل جُنِنت ... مهيب لن يحدثك ... مهيب سينتقم "

" لن ينتقم ! "

" كما يحلو لك ... لتعرف فقط شيئًا واحدًا ... عندما سيأتي الطوفان لن أشاركك قمة الجبل وسأقفز في السفينة و أتركك بمفردك "

" نَم يا عاصم ... نَم و غدًا نتحدث ... هل ستبدل ملابسك؟ "

شعر عاصم بالإحراج فهو يعرف أن مقاس خالد لن يناسبه و قرر ألا يُحرج نفسه أكثر من هذاوازدرد لعابه في خجلٍ و هو يقول :

" لا سأنام بملابسي ... النهار قريب "

نظر له خالد لبرهةٍ بوجهٍ جامدٍ لا يحتوي بين ثنياته على أي تعبير قبل أن يهزّ رأسه متفهمًا :

" كما تحب ... نم أنت على الفراش في الغرفة و أنا سأنام أرضًا في غرفة الطفل "

تردّد عاصمٌ للحظاتٍ قبل أن تُذكّره آلام جسده بسقطته بالأسفل و تئنّ عظامه إحتجاجًا على محاولة التفكير التي يفكر فيها , نظر للحمام , سيغسل وجهه و يستحم قبل أن ينام بملابسه الداخلية علّ اليوم

ينقضي على خير , دخل عاصم إلى الحمام و فتح المياه مستمعًا لهديرها بصمت مفكرًا قبل أن يضمّ راحتي يديه و يملأهما بالمياه و يرمي المياه على وجهه بقوةٍ لتصطدم بوجهه قبل أن يغسل وجهه بيديه جيدًا و من بين قطرات المياه لمح ظِلًا يتحرك في خفّةٍ خلفه , توقف للحظةٍ و هو ينادي : " خالد ! "

لم يسمع ردًا , قرر أن يتم عملية التنظيف قبل أن يتحرى عن حركة خالد الغامضة , في هدوءٍ لمح نفس الحركة و إن كانت في اتجاهٍ معاكسٍ لما سبق , لم يلق بالًا و إنما غسل وجهه و مشى متجهًا للصالة و هو يخلع ملابسه بتمهّل , وقف أمام غرفة الطفل يتأمل خالدًا المسجّى أرضًا يوليه ظهره , قرر أن ينادي عليه لغرضٍ ما في نفسه :

" خالد !! ... خالد !! "

لم يتلق ردًا من الجسد المسجّى أرضًا و استنتج نومه من الحركة المنتظمة لتنفسه , مطّ شفتيه و رحل دون أن يفكر , قرر أن الأمر لا يتعدى التهيؤات بسبب الصدمة , وقف في الغرفة متأملًا إياها قبل أن يفتح النافذة متمعًا بنسمةٍ من الهواء البارد , أسجى جسده على السرير مغمضًا عينيه , تاركًا الارهاق يرحل من جسده على هيئة موجاتٍ يشعر بها تتسلل من جسده متجاهلًا الألم الحارق في أنفه المصاب , لم يدر بنفسه مرة أخرى .

*****

متجاهلًا الارتفاع الخارق لدرجة الحرارة , و صوت القرقعة الذي يبدو كأنه لأسواطٍ تتلوّى في الهواء بحثًا عن أجسادٍ تسدّ جوعها الساديّ , متجاهلًا الرائحة الخانقة التي ملأتْ الغرفة , تقلّب عاصمٌ على الفراش قبل أن يفتح عينيه ليراقب المشهد أمامه بأعينٍ طردت النعاس ذهولًا , اعتدل على الفراش المعدني الصغير قبل أن تزل يده لتمس الهيكل المعدنيّ الخاص بالفراش , صرخ في ألمٍ لا يقاوم و هو ينتفض , ترجّل من عليه متحاشيًا لمسه و شقّ طريقه وسط طيات الضباب و الدخان التي تجاهد لاحتلال فراغ الغرفة ...سعل مرتين قبل أن يتنبه لأنه كان يمتصّ كميةً كبيرةً من الدّخان لتلوّث براءة رئتيه , كتّم أنفاسه متحسّسًا طريقه بأعينٍ أحرقها الدخان فأبكاها , وصل إلى باب الغرفة , قبل أن يرحل حانت منه التفاتةٌ لنافذة الغرفة ... كانت مغلقة !

ألم يفتحها قبل أن ينام ؟؟

لم يستغرق وقتًا طويلًا في التساؤل وسط الدخان و النيران التي تقرقع بعنفٍ ملتهمةً الدولاب الخشبيّ الصغير , النيران , الوحش الأبدي الذي فشل الإنسان في ترويضة و لم يسلم أيّ مخلوقٍ من زلّات غدره , الزائر الذي يأبى أن يرحل دون ترك علامةٍ مؤلمةٍ جسديًا و نفسيًا و كأنه يمهر الجسد بتوقيعه , كانت الشقّة بأكملها تحترق و كأن النيران تقيم احتفالًا هنا , تخيّلَ أنهِ يحلم أو يتخيل كما تخيلا هو و خالد النيران التي اندلعت في الشقة و عندما صعدا لم يجدا شيئًا , لكن وخز الألم اللعين و صراخ الخلايا التي تحتضر في كفه أنبأه أنه لا يحلم و لا

يتخيل , الأمر جديٌّ جدًا؛ بخطواتٍ مترنّحةٍ لجسدٍ أسكرته الصدمة وصل غرفة خالد , خالدٌ النائم بلا حراكٍ و كأنه لا يشعر بشيء

" خالد !! ... يا خالد !! إستيقظ ! "

لا رد من جسد خالد , تحرك عاصم بخطواتٍ بطيئةٍ و هو يضع يده على نصف وجهه السفلي متحاشيًا استنشاق المزيد من الدخان , دخل إلى الغرفة , هزّ جسد خالد بركلةٍ خفيفةٍ من جسده و هو يسعل محافظًا على ثبات يده على وجهه , لم يتحرك الجسد المسجّى على الأرض , شعر بحركةٍ من خلفه , نظر خلفه بسرعةٍ لكي يرى سرّ تلك الحركات و التي شعر بها أكثر من مرّة , لم يرَ شيئًا , هل فُتِح باب الشقة قبل أن يدخل لتلك الغرفة !! ... لم يفكر كثيرًا و هو ينحني على جسد خالد محركًا إياه بيده الحُرّة , هذه المرة أيضًا لم يلق استجابة , قرّر أن يتخلى عن خط دفاعه مضحيًا بأنفه عرضةً لهجمات الدخان الضبابي , كتم أنفاسه بقوةٍ و هو يسحب جسد خالد بيديه الاثنتين على ظهره , تراجع للخلف و هو يشهق بعنفٍ مستنشقًا سحابةً دخانيةً هائمةً قبل أن تجد لها ملاذًا بداخل رئتيه؛ تراجع للخلف و هو يرمق وجه خالد الشاحب الخالي تمامًا من معالم الحياة , رقبته التي يتوسطها قطعٌ عرضيٌّ يشير لذبحٍ محترف , المتسبّب في هذا الأمر يعرف جيدًا ماذا يفعل , جرحٌ عميقٌ قطع كل موصلات و مسببات الحياة عن الجسد , لفت نظره للمرة الأولى منشفةٌ بيضاء ملطخةٌ بالدم و أخرى كانت

بيضاء قبل أن يحتلّها اللون الأحمر القاني فارضًا عليها سلطاته , يبدو أن القاتل استخدمهما لكي يجفّف الدماء ... لماذا ؟!!

تراجع للخلف يراقب عيني خالد اللتين فقدتا كل معالم الحياة , لم يستمرّ في المزيد من التراجع قبل أن تلفحه النيران من خلفه ليفاجأ بالدولاب الصغير يشتعل و من فوق تحتل الحقيبة التي تحتوي على الأوراق قمّته في نشوةٍ مستمتعةٍ بالنيران و هي تلتهمها بلا أدنى مبالاة , نظر لفراش الصغير الذي يحترق هو الآخر دون أن يجد أيّ أثرٍ للصغير , صرخ بعنفٍ فَزِع :

" يبدو أن خالد كان محقًا ... أنت لست طفلًا طبيعيًا ... أنت لست طبيعيًا عليك اللعنة "

خرج يعدو من الغرفة متجاهلًا النيران التي تمد له بألسنةٍ من لهبٍ محاولةً أن تطاله لتحرقه و لكنه كان أسرع منها , خرج من الباب المفتوح و هو يعدو على السلم , يحاول ألا يتعثّر فيسقط , مازال أنفه يؤلمه و إن انضمت لها يده في سيمفونية الألم الحارق , مستندًا بيده على الحائط الدافئ الذي تشبّع بحرارة النيران متجاهلًا ترتيب درجات السلم التي يهبطها في سرعةٍ و عنف , وصل أخيرًا للشارع الهادئ مرتميًا أرضًا شاهقًا بعنف سامحًا لموجاتٍ من الهواء النظيف أن تدخل لرئتيه في مهمة تنظيفٍ سريع , لاحظ أن هناك بضع أيادٍ امتدّت له تعينه على الوقوف و هناك ذرّات مياهٍ يشعر بها على شفتيه , لا تزال

عينيه مصابةً بحالة من الاحتراق مسببة له انعدامًا مؤقتًا في الرؤية ... فتح شفتيه مستسلمًا للماء الذي أخذ دوره سريعًا مساعدًا للهواء النقي ... بدأ يشعر بالدوار و الاختناق يتقهقران سريعًا ... وضحت الرؤية أمامه و إن كانت لا تزال مهتزّة ... هناك تجمهرٌ و يبدو من نظراتهم أنهم لم يكونوا يعرفون أن هناك أشخاص مقيمين في هذا المنزل المهجور رغم صعوده و نزوله أمام أهل و سكان الشارع أكثر من مرة , شعر بمن يضع تحته كرسيًا و يساعده على الجلوس , جلس ملتقطًا أنفاسه قبل أن يسمع صوتًا يقول له :

" هل كنت بمفردك ! "

نظر على يساره ليجد امرأةً عجوز تحمل علامات الطيبة و الحنوّ بين قسمات وجهها الصبوح , ابتسم لابتسامتها و هو يقول :

" نعم يا أمي ... أنا بمفردي "

ربّتت على كتفه مطمئنةً إياه :

" حمدًا لله على سلامتك يا بني "

" سلّمك الله يا أمي "

لاحظ بدء تجمع الناس حوله و سمع صوت سيارات الإطفاء من بعيد , قرّر أن لا مكان له هنا , سيكتشفون جسد خالد و ربما يكتشفون

عملية الذبح , وقف ببطءٍ و هو يتابع وصول أول سيارات الإطفاء الحمراء الضخمة و هبوط ثلاثةٍ من رجالها قبل أن تتوقف حاملين خرطومًا مطاطيًا باحثين عن أي مصدرٍ للمياه متجاهلين قدومهم متأخرين حوالي نصف الساعة و كأنه كان أمرًا طبيعيًا , بدأت أنظار الناس تتجه تلقائيًا لرجال الإطفاء يتابعون حركاتهم بإعجاب و داعين لهم بتمتماتٍ تحمل رائحة الطيبة و الحب , بخطواتٍ بطيئةٍ من قدمين أعياهما المجهود تحملان جسدًا ليس خفيفًا بدأ يتحرك بطريقةٍ بسيطةٍ كي لا يلفت إليه الأنظار , ابتعد عن محيط الحريق بنجاح و دلف إلى شارعٍ جانبي؛ استغرق لحظاتٍ لهندمة ملابسه التي اسوَدّ معظمها , تلفّت حوله متأكدًا أنه وحيد , رحل بخطواتٍ تختفي في الظلام , و لم يلحظ الشخص المتّشح بالسواد الذي يراقبه عن كثَبٍ منذ خروجه من البناية عادًّا خطواته و حاسبًا أنفاسه ... لم يلحظ اللّمعة التي التمعت في عينيه بنشوةٍ غريبة !.

*****

نظر بهاء إلى أندرو و هو يتأمله ببطء , كانت ابتسامةٌ واثقةٌ تحتل شفتي أندرو في ثقةٍ زائدة , مدّ يده للرجل الذي قابلهم و أتى بهم إلى هذا المكان ليتناول منه الحقيبة و هو يفتحها و ينظر بداخلها للحظاتٍ قبل أن ينظر في ساعته و هو يسأل الأشقر:

" كم مرّ من الوقت ؟ "

نظر الأشقر في ساعته بدوره قبل أن يجيب بصوتٍ متشكك :

" حوالي الساعتين ! "

اتّسعت ابتسامة أندرو و هو يجيب في حماس :

" حسنًا ... مازال هناك متسعٌ من الوقت "

نظر لمساعده الذي أتى ليُحكم إغلاق الحقيبة مناولًا إياها لأحد الواقفين في ثباتٍ قبل أن يميل بجسده عليه ليهمس له ببضع كلماتٍ في أذنه , هزّ الأخير رأسه متفهّمًا و هو يتحرك بسرعةٍ قابضًا على الحقيبة , وصل لإحدى السيارات و خاطب السائق بلغةٍ لم يفهمها بهاء , سرعان ما كانت السيارة تنطلق بسرعةٍ مصحوبةً بصرير احتكاك الإطارات بالطريق: نظر أندرو للأشقر و هو يقول له :

" إذهب الآن و أخبر سيدك أن أندرو سيحضر له النقود فيما بعد "

تردّد الأشقر للحظاتٍ و هو يتبادل النظرات مع الأسمر الذي مطّ شفتيه بتبرّمٍ و بدت علامات عدم الرضا على وجهه ... نظر الأشقر مرةً أخرى لأندرو و هو يقول :

" و لكن ... ! "

تجهّم وجه أندرو و هو يسأله بغضب :

" أتعلم منذ متى لم أسمع كلمة و لكن ! "

تردد الأشقر و هو يسأل في خوف :

" منذ متى ؟ "

" منذ هذا الصباح ... كانت زوجتي تهدّدني و كدت أعترض "

ضجّ المكان بضحكاتٍ ساخرةٍ من الأشقر الذي احمر وجهه و هو يعبث في شعره النّاعم محاولًا إخفاء خصلةٍ شاردةٍ خلف أذنه في ارتباك , نظر للأسمر الذي بادله نظراتٍ باردةٍ دون أن يتحدث , بهاء كان يتابع الموقف برهبة لا يدري هل هذا الأمر طبيعي , جذب يد الأسمر الذي تنبّه له فقطع سيل النظرات المرسلة للأشقر تاركًا إياه وحيدًا على جزيرةٍ تسبح وسط بحار عدم الفهم , انحنى الأسمر نصف انحناءةٍ ليواجه بهاء الذي شد قامته و هو يسأل :

" هل هذا الأمر طبيعي ! "

ردّ الأسمر بصوت باهت :

" لا ... في العادة يتسلّم الرجل الأول السلعة و يعطينا النقود لنعود بها للزعيم ... تلك هي المرة الأولى التي نقابل أندرو فيها وجهًا لوجه "

نظر بهاء لأندرو مرّةً أخرى يتأمله , ذقنه المرسومة بعنايةٍ لتلفّ وجهه في إطارٍ من وسامة , شعره الأسود الذي يختلط به بضع شعيراتٍ

بيضاء , عيناه الرماديتان و قامته المنصوبة , التقت أعين بهاء و أندرو للحظات ارتجف بهاء فيها من برودة نظرته , أعاد أندرو نظراته للأشقر مرةً أخرى و هو يسأله في غلظة : "

لماذا تقف هنا ؟؟ ... ألم آمرك بالرحيل ! "

نظر له الأشقر قبل أن يستجمع شتات نفسه و هو يقول بصوتٍ حاول أن يجعله قاسيًا :

" نعم و لكني لن أرحل سوى بنقودي "

ابتسم أندرو و هو يردّد بصوتٍ ساخر:

" نقودك ! ... كنت أحسب أنك مجرد عامل توصيلٍ عند زعيمك "

" أقصد نقوده "

" حسنًا ... لك ما أردت يا فتى "

مد أندرو يده إلى جيب جاكت البدلة الداخليّ في بطء , و أخرج يده بسرعةٍ وهي تحمل مسدسًا رماديّ اللون التمع و كأنه فَرِح بخروجه للحرية , مدّ يده التي تنتهي بالمسدس ليصوبه إلى جبين الأشقر الذي ارتعد و هو يحاول التراجع للخلف إلا أن دفعةً غادرةً أعادته مرةً أخرى للأمام , أنظاره معلقةٌ بالمسدس , يداه ترتجفان؛ رفع أندرو يده للأعلى مصوبًا المسدس إلى قمة رأسه , شعر بالمعدن البارد يُقبّل جبهته و

يُجبره على الركوع أمام أندرو , ركع على ركبتيه و هو يبتلع ريقه الجّاف , يشعر أن قلبه يكاد يتوقف توترًا , هناك رجفةٌ لا يستطيع التخلّص منها تسري في جسده , العرقَ البارد يغزوه , ركع منكِّسًا رأسه ... سمع صوت أندرو يأتيه ببطءٍ و كأنه يأتي من هوّةٍ سحيقة :

" أُطلب ما أتيت من أجله "

حاول أن يتكلم :

" الر... الرحمة "

" هل أتيت بحثًا عن الرحمة ؟؟ "

" لا ... أنا آسف ! "

سمع أندرو صوت خطواتٍ تقترب منه و صوت جلبةٍ بين الرجال فالتفت ليجد بهاء يقاوم أحد الرجال بعنفٍ مُنشِبًا أسنانه في يديه بوحشيةٍ مدميًا إياها و راكلًا الرجل بين قدميه قبل أن ينسلّ من بين يديه ليذهب و يقف بجوار الأشقر و هو ينظر لأندرو بثقةٍ لا تتناسب مع سنّه الصغير:

" أرجو أن يكون مسدسك محشوًا ... فنحن ثلاثة "

اتّسعت أعين أندرو بدهشةٍ للحظاتٍ قبل أن يصوّب المسدس إلى رأس بهاء ... بمجرد أن لامس المعدن البارد رأس بهاء انتفض للحظةٍ قبل أن

يتمالك أعصابه و هو يرفع يده إلى فوهة المسدس و يسحبها ببطء و يضعها بين عينيه و هو ينظر لأندرو قائلًا في ثقة :

" أعتقد أن هذا المكان أفضل "

اتّسعت أعين أندرو في دهشةٍ للحظاتٍ قبل أن يظهر الغضب جليًا في عينيه و هو يجذب أجزاء مسدسه , و يعيد التصويب بين عيني بهاء الذي أغمض عينيه في هلعٍ حاول إخفاءه و عضّ بقوةٍ على لسانه مدميًّا إياه , لحظاتٌ مرّت قبل أن يشعر أن المسدس يبتعد عنه , نظر فوجد أن أندرو يعيد مسدسه إلى جيبه مرةً أخرى بينما الأشقر ينظر له مشدوهًا , مدّ يده خلفه و بفرقعةٍ من أصابعه ظهر شخصٌ من أتباعه يحمل حقيبةً جلديةً من طراز (سمسونيت) ... وضعها أمام بهاء و هو يعالج أقفالها المعدنية الصغيرة لتُفتح أمام عينيه ليراقب الأوراق المالية ترتص بجانب بعضها البعض في نظام , أغلقها بعد برهةٍ و عبِث في أقفالها ليزيل أي آثارٍ لأرقامها السرية , لفّها حول نفسها في حركةٍ استعراضيةٍ و هو يعطيها لبهاءٍ الذي حملها بحرصٍ خائفًا متردّدًا إلا أن ربتةً خفيفة على كتفه أزالت كل تلك الشكّوك , حملها و هو يعطيها للأشقر في احترام , فمهما حدث لا يزال أكبر منه سنًا و شأنًا في منظمتهم الصغيرة , ابتسم أندرو و هو يتابعهما يرحلان ليقفا بجوار الأسمر الذي لم يتحرّك من مكانه : تبادل بهاء و أندرو النظرات للحظة قبل أن يبتسم له بهاء ابتسامة عرفانٍ بالجميل و هو يوليه ظهره و يرحل , سمع بهاء صوت أندرو يأتيه من الخلف مناديًا :

" أيها الفتى "

توقف بهاء مكانه للحظةٍ قبل أن يستدير بهدوءٍ ليجابه نظرات أندرو إليه , تحدّث أندرو بصوت عالٍ مليءٍ بالفخر : " أخبر زعيمك أنه يحتاج للرجال من أمثالك و ليس من أمثال هؤلاء "

ابتسم بهاءٌ و هزّ رأسه متفهمًا و هو يرحل مع زميليه الصامتين , بمجرد أن تواريا عن المكان و تابعا خطواتهما في محاولةٍ لاستكشاف أين هم حتى ظهرت على الأسمر علامات الإدراك , قال متفهمًا :

" أنا أعرف هذا المكان جيدًا ... نحن قريبون من المخزن "

قال بهاء بصوتٍ متردّد :

" لماذا فعل هذا !! "

أجابه الأشقر بصوتٍ مرتعد :

" لا أحد يعرف يا بهاء ... لا أحد يعرف "

و تابعوا رحلتهم بصمتٍ يجهلون دوافعه أو أسبابه .

*****

اعتدل شريفٌ على الشيزلونج , نظر لها و هي تبتسم ابتسامةً رقيقةً زادت شفتيها شهوة , نظر لها بتساؤل ... لماذا تبتسمين؟... أجابته و هي

ترفع منظارها الطبيّ لتضعه على الطاولة الصغيرة أمامها و تضغط زرًا صغيرًا يختفي أسفل الطاولة , الغرض منه ألا يلاحظه أحد لكن عين ضابط الشرطة حسّاسةٌ تعوّدت أن تلاحظ كل الأشياء مهما بلغ صِغَرها أو قلّة أهميتها : الشيطان يكمن في التفاصيل ... هكذا يؤمن شريف , ابتسم هو الآخر , رفعت أحد حاجبيها بدهشةٍ و إن لم تتخلَ عن ابتسامتها , سألته بصوتٍ حنون :

" لمَ تبتسم يا شريف ... لقد وصلت لجزءٍ كبير جدًا من الموضوع ... أحسنت ... لو استمر الأمر بنفس الطريقة فأعتقد أنك اليوم ستنال مرادك "

أجابها شريفٌ بصوتٍ واثق :

" سرّك الصغير ... الزرّ الخفي ... بالطبع الآن سيدخل الساعي لتطلبي منه أن يحضر لنا كوبين من القهوة أو العصير البارد ... تستغلّين عامل المفاجأة لتُحكمي سيطرتك على مريضك "

اتّسعت ابتسامتها و لم ترد : استغلّ وجوده في مركز القوة ليستعرض قوته , رفع يده و هو يعد بصوتٍ عالٍ :

" ثلاثة ... إثنين ...واحد ... الآن "

مع آخر حروف كلماته فُتح الباب فهزّت الطبيبة رأسها في إعجاب , دخل الساعي فعلًا فاتسعت ابتسامة الثقة لتغمر وجهه , نظرت له نظرةً أخيرةً و هي تكتم ضحكةً تجاهد للهروب من سجن شفتيها :

" عم ابراهيم , من فضلك اعتذر لكل المرضى بالخارج و حدّد معهم مواعيد جديدة ... و لتعلم أننا اليوم سنسهر حتى وقتٍ متأخر , أخبر سناء أن ترحل في موعدها و ستسهر أنت معي ... تستطيع استخدام الهاتف لتطمئن زوجتك "

هزّ عم ابراهيم رأسه بتفّهمٍ و بدا كما لو أنها ليست المرة الأولى التي يسمع فيها هذه الكلمات , بدأت ابتسامة الثّقة تفرّ من بين شفتي شريفٍ الذي تجهّم وجهه و تبدّلت ملامح الثقة لتتوارى خلف ستارٍ من الخجل ؛ خرج عم ابراهيم و أغلق الباب خلفه قبل أن تناديه مرةً أخرى بصوتٍ مرحٍ :

" و أحضر كوبين من الليمون يا عم ابراهيم من فضلك حتى لا يحزن ضابطنا الهمام "

خرج عم ابراهيم و أحكم غلق الباب خلفه قبل أن يسألها شريف :

" هل من أصول الطبّ النفسيّ أن تسخري من مرضاك !! "

" المغرورين منهم فقط "

احتقن وجهه و هو يعود لينام مرّةً أخرى على الشيزلونج متجاهلًا الساعي الذي حمل كوبين من العصير المثلج و وضعهما على الطاولة و رحل بعد أن حمل كلمة شكرٍ رقيقةٍ منها , بمجرّد ان أُغلِق الباب بدأ يستكمل حكايته مرةً أخرى .

*****

فتح عاصم عينيه بألمٍ و هو يمد يده بإرهاقٍ ليتحسّس رأسه , آخر ما يتذكره هو فراره من مكان الحريق و دخوله لأحد الأزقّة ليعدل هندامه قبل أن يستكمل طريقه , قرب نهاية الزقاق المظلم شعر بخطواتٍ بطيئةٍ تقترب منه في صمت و قبل أن يلتفت ليرى ما يحدث هناك فوجئ بضربةٍ قويّةٍ على رأسه ليسود الظلام .

وجد نفسه ملقًى أرضًا في مكانٍ واسع , استند مرفقه على الأرض و هو يعتدل و يتحسّس رأسه متأوهًا , وقف و هو يستند للحائط المجاور له بهدوء ... تأمّل المكان من حوله ... مكانٌ واسعٌ , خالٍ من أي معدات , الجدران مغطاةٌ بطبقةٍ سميكةٍ من مادّةٍ تشبه المطاط , هناك منضدةٌ تتوسط الغرفة وجهها خالٍ من أي شيء ؛ لم يميّز المكان و لم يعرف ما الذي أتى به إلى هنا , قرّر أن ينادي بصوتٍ عالٍ علّ أحدًا يستجيب له:

" هل من أحد هنا ؟؟ "

لم يسمع أيّ ردّ , قرر أن يصيح بصوتٍ أعلى :

" هل من أحدٍ هنا ... النجدة "

سمع صوتًا معدنيًا يأتي من سماعةٍ معلّقةٍ بالسقف :

" كفاك ضجيجًا ... صوتك مزعجٌ أيها البدين "

نظر للأعلى فلاحظ كاميرا صغيرة و سماعةً تجاورها , اهتزّ صوته و هو يقول :

" من .... من أنت ؟؟ لماذا تحتجزني هنا ؟ "

ضحكةٌ ساخرةٌ تردّدت للحظاتٍ قبل أن يصمت الصوت تمامًا , دقيقةٌ مرّت و عاصم يقف في صمتٍ يتلفت حوله , يكاد يجنّ دون أن يعرف أين هو قبل أن يسمع صوت تكّة قفلٍ صغيرةٍ تأتي من خلفه , التفت بسرعةٍ ليجد جزءًا من الحائط يُفتح ... يبدو أنه بابٌ سري , حاول أن يعدو إليه إلا أن فوهة مسدسٍ ظهرت مجبرةً إيّاه على التراجع للخلف , نظر للوجه الذي يقف خلف الفوهة قبل أن يركع على ركبتيه أمامه باكيًا , ضامًّا يديه أمامه متوسلًا بصوت خاشع:

" مهيب باشا ... الرحمة ... لقد احترق المنزل و اختفى الطفل "

أشار له مهيب بالصمت قبل أن يدخل شخصان من الباب و يُخرج مهيب من جيبه جهاز تحكمٍ إلكتروني ليغلق الباب بصوتٍ هادئ , تأمّل عاصم الثلاثة أشخاص بأعينٍ دامعةٍ و هو يُراقب مهيب يضع الجهاز في

جيبه بعد أن ضغط زرًا صغيرًا ليفتح أحد الحوائط و يبدو من خلفه دولابٌ خشبيٌّ صغيرٌ يحمل تصميمًا غريبًا و يُفتح لأعلى , يشبه كثيرًا الأماكن التي تُحفظ فيها الأسلحة كما يراها عاصم في الأفلام الغربية , ترك الأمر برمّته و هو يسأل مهيب برجاء :

" أين نحن؟ ... سيدي ... الرحمة !"

تجاهله مهيبٌ و هو يعطي المسدس إلى أحد الشخصين الذي تناوله منه باحترافيّةٍ دلّت على أنها ليست أول مرّةٍ يحمل فيها سلاحًا , مدّ يده إلى الشخص الآخر الذي ناوله سيجارًا كوبيّ الأصل فاخر المظهر , وضعه مهيب بين شفتيه و دون أن يلتفت له شعر بشعلة نارٍ تنطلق من قدّاحةٍ فضيّة اللون ذات تصميمٍ رائع , اشتعل السيجار بين شفتيه فسحب منه نفسًا عميقًا تأجّجت له مقدّمة السيجار بنشوة ؛ نظر لعاصمٍ الراكع أمامه و هو يُطلق سحابةً دخانيّةً في وجهه و هو يسأله باهتمام :

" عاصم يا صديقي ... هل سمعت من قبل عن مصطلح (بيت القتل)؟"

ردّد عاصمٌ الكلمة بصوتٍ مُبهَم :

" بيـ ... بيت القتل ! "

" نعم ... إنه مصطلحٌ غربيٌ يعني وجود شقةٍ أو قبوٍ مرفقٍ بفيلا كبيرة ... هذا المكان يكون مجهّزًا بأدواتٍ منها الحديثة و منها القديمة ... يؤتى إليه بالشخص المراد تعذيبه ليتم تعذيبه قدر الإمكان ... هذا المكان يتميز بوسع المساحة ... مبطنٌ لكي يكون عازلًا للأصوات "

" تعذيب !! ... ليس أنا بالطبع ... أليس كذلك "

" أنت !! و لماذا أعذّبك ؟؟ هل وعدتني بشيءٍ و لم تكمله ؟؟ هل أتيت بأشخاصٍ غرباء إلى مكاني المفضل لتفسدوا طعامي ؟؟ هل لعبت بي؟!"

توحّش صوته في السؤال الأخير مما أدى لزيادة خوف عاصم , ارتعد صوته و هو يقول بخوف :

" كنت أنوي أن أعوّضك ... أقسم لك "

" لا شيء قادرٌ على تعويضي سوى رؤيتك تتألم ... الألم فقط هو ما يُشبِعني"

" و ماذا ستستفيد من ألمي ؟؟ "

" سأُرضي غروري ... سأُشبع شهوتي ... سأُثبت لي و لك أن مهيب الصاوي لا يُستهان به "

" سيدي أنت بالفعل لا يُستهان بك و انا أعلم هذا جيدًا ... إرحمني أرجوك "

" أ ر حـ مـ ك !! ... لا أعلم معنى تلك الكلمة !! لا وجود لها في قاموسي "

" و لكن الله غفورٌ رحيم و أنت عبدٌ من عباده ... ألا تكون رحيمًا !"

" لا أعلم لما لا تصدّقني ... لا أعلم معنى تلك الجملة "

شعر عاصمٌ باليأس , قرّر أن يحاول التبجح عندما علم بأن التوسل و الاستجداء لا نتيجة منه ؛ وقف أمام عاصم و هو ينفخ صدره و يصيح به بصوتٍ عالٍ و إن كان مرتعدًا :

" من تعتقد نفسك ... مهيب الصاوي !! تبًا لك ... بل ألف تبًا أيها الأحمـ "

صوت عيارٍ ناريٍ سمعه لمرةٍ واحدةٍ قبل أن تئن أذناه بصفيرٍ حادٍ ناتجٍ عن قرب مكان إطلاق الرصاصة منه , تأمّل قدمه بألمٍ قبل أن يُطلِق صرخةً وحشيةً و هو يرتمي أرضًا ممسكًا بقدمه في ألم , تلوّى أرضًا و هوّ يتابع الصراخ و يتأمل ركبته الدامية , أطلق عليه أحد الأوغاد رصاصةً استقرّت في عظام ركبته , اتّسعت عيناه ذعرًا و هو يراقب مهيب يضع إصبعه على شفتيه , حاول كتم صراخه و أنّاته و هو يكتم أنفاسه هي الأخرى , كان ينهج بألمٍ و هو يحاول الصمت ... مُمسكًا

بركبته متأملًا مهيب المبتسم الذي قال له بصوتٍ سمعه بغير وضوح نتيجةً للصفير اللعين الذي لا يفارق أذنيه :

" من الجيّد أنك تنصت للكلام و تنفذ الأمر ... يبدو أننا سنستمتع سويًا "

كتم عاصمٌ آهاته بصعوبة و هو ينظر لمهيبٍ الذي اقترب من أحد رجاله و همس في أذنه بكلماتٍ لم يسمعها عاصم , هزّ رأسه و وقف أمام الباب منتظرًا تمام انفراجه , بمجرد أن فتح الباب خرج الرجل و غاب في الخارج لمدةٍ تجاوزت الدقائق الثلاث , دخل مرةً أخرى يحمل مرطبانًا زجاجيًا لم يميّز عاصم محتوياته , وقف بجوار مهيبٍ الذي ابتسم و هو يشير للرجل الآخر الذي خرج منذ قليل من مجال رؤية عاصم , ظهر الرجل و هو يحمل في يده فأسًا حادًّا تلتمع بلطته في شهوةٍ غريبة , رفعه الرجل قبل أن يهبط به في حدّةٍ على قدم عاصم , لا يستطيع أي مخلوقٍ حيٍّ أن يتخيل حجم الألم الذي شعر به عاصم , لا وصف له و لا كلمات تعطيه حقه ... فقد عاصمٌ النطق ، القدرة على التفكير ، قدرته على الصراخ ، صوته و عقله ... فقد كل شيءٍ و هو يتأمل قدمه التي تركت جسده و رحلت , نافورة الدّم الأحمر التي انطلقت لتملأ المكان , وجه مهيبٍ الذي يضحك بتلذّذٍ و الدمّ يغطي وجهه : الدوار يكتنف رأسه و لكن يبدو أن الرحمة ليست ضمن القاموس الخاص بمهيب , شعر عاصم بألمٍ حادٍّ مرّة أخرى فوجد الرجل الآخر يكوي قدمه ليوقف نزيف الدماء , استمر في كيّها و استمر

عاصم في محاولة إخراج أيّ صوت , الصدمة العصبية أفقدته القدرة على النطق ؛ انتهى الرجل و أعطى الإشارة لزميله الذي اقترب في صمتٍ مُبهَم ملفوفًا بابتسامةٍ شريرةٍ محاطةٍ بإطارٍ من غموضٍ قاسٍ , رفع فأسه للمرة الثانية و عيناه تضحكان في جنونٍ ماجن , هبط بالفأس ليعلن انفصال قدمه الأخرى , لم يتحمّل عاصم أكثر من هذا ... فقد الوعي و ترك الظلام ينتشر في خلايا روحه المنهكة .

*****

فتح عاصم عينيه في تثاقلٍ و هو يتأمل مهيب الواقف أمامه , كان يشعر بألمٍ لا يوصف , جسده بأكمله يئنّ ؛ تأوّه و هو ينظر لقدميه , لم تعودا هناك , تخلّتا عن جسده و رحلتا , نظر للجرح الذي كوي بإهمال , حاول أن يحرّك يديه إلا أنه شعر بألمٍ غريب ... هناك إحساسٌ لا يوصف يشعر به , نظر بحرصٍ إلى يديه لتفجعه الصدمة ... ذراعاه تنتهيان عند الكوع , أطرافه بالكامل ذهبت في رحلة ذهابٍ بلا عودة ... هو شعورٌ يُحَسّ و لا يوصف , نظر ليديه بجزعٍ قبل أن يبكي و هو ينظر لمهيبٍ الذي يجلس أمامه متجاهلًا الدماء التي تناثرت على قميصه و على وجهه و على رجاله , نظر له مهيب بسخريةٍ قبل أن يقول :

" مرحبًا ... كنت سأحزن للغاية لو توفيت قبل أن أستطيع العبث معك "

حاول أن يتحدث إلا أن صوته خرج كهمهماتٍ ضعيفةٍ لم يسمعها مهيبٌ الذي وضع يده على أذنه في إشارةٍ لأنه لا يسمعه جيدًا , قبل أن يشير له بالصمت و الكفّ عن محاولة التحدث بلا فائدة قائلًا :

" أعتقد أنك ستسأل لماذا أو ماذا بعد أو غيرها من الأسئلة التافهة التي لا يهمني أن أسمعها, و لكن من حقّك عليّ قبل أن ترحل أن تسمع مني شيئًا يريحك "

نظر ليمينه و هو يتناول المرطبان الصغير و يلوّح به أمام أعين عاصمٍ المرهقة و يهزّه في رفقٍ و يقول له :

" سأخبرك شيئًا واحدًا ... سأُخنفِسك !!!! "

لم يفهم بهاء ما يريد أن يقوله !!! ... نظر له و مازال لا يصدق ما هو فيه ؛ أخبره مهيب بصوت مرح :

" لقد كويت الجروح كي لا تموت من فقد الدماء الغزير و لكنك ستموت , أريد أن أعبث معك أطول فترةٍ ممكنةٍ قبل أن تموت , أريد أن أشفي ساديتي ... بالمناسبة , كنت سأفعل هذا بك سواء تمت المهمة أم لم تتم , أنا لم أحببك و أنت لست أول من يزور هذا البيت , مجنونٌ أنا أو ساديّ , لا يهمني رأيك فيّ ... ما يهمني هو قدر النشوة و اللّذة التي أشعر بها و أنا أراك تتعذب , و أنا أرى روحك تنازع جسدك في رحلة الخلاص ... نشوةٌ تفوق نشوة الجنس بمراحل , نشوةٌ تعادل كل

نشوات العالم مجتمعةً ؛ ربما أكون مجنوناً , ربما أكون ساديًا ... ألف ربما و ربما ... لكن الأكيد أنني سأستمتع ... سأستمتع جيدًا للغاية "

لم يستطع عاصم الرّد , أشار مهيبٌ لأحد الرجلين فخرج من مجال رؤية عاصمٍ الذي لا يستطيع الحركة , سمع عاصم أزيزًا خافتًا من خلفه , توقّع أن يكون مثقابًا و سيخترق رأسه إلا أنه شعر بماكينة حلاقةٍ تُزيل شعره , أزال الرجل شعره بأكمله و ترك رأسه عاريةً إلا من بضع خصيلاتٍ تناثرت هنا أو هناك ؛ ابتسم مهيب و هو يمسك بيده طاسةً معدنيةً مقعّرة , فتح البرطمان ببطءٍ و وضع ما فيه على رأس عاصم , غطى رأسه بالطاسة و هو يعود ليجلس مكانه , ابتسم و هو يراقب علامات القلق على وجه عاصم , قال له :

" من حقك عليّ أن تفهم قبل أن ترحل ... ما سيحدث الآن يدعى الخنفسة , و هي وسيلة تعذيبٍ قديمة , هذا نوعٌ نادرٌ من الخنافس ... سيبدأ الآن في استكشاف البيئة الموضوع فيها و إدراك حدودها , و عندما يدرك أنه لا مفر سيشعر بالجوع ... في البداية ستشعر به يأكل فروة رأسك ... ألمٌ خفيفٌ غير موجعٍ بالدرجة الكافية , ثم تأتي المرحلة الثانية و هي أكثر وجعًا من سابقتها ... ستبدأ الخنافس في اختراق جمجمتك بفكوكها الحادة , ستحاول جاهدةً حتى تثقب جمجمتك و عندما تتمكن من ثقبها ستبدأ المرحلة الثالثة و الأكثر ألمًا سيلتهمون مخك ... ستشعر بكل قضمةٍ و كل حركةٍ لهم و هم يلتهمون مخك ... ستشعر بذبذباتٍ كهربائيةٍ و ستشعر بالألم الذي لا يوصف ... ستشعر

بكل شيء ؛ إذا كان القدر رحيمًا بك ستموت قبلها ... أما لو كان القدر مثلي ساديًا فستموت بعد أن تلتهي الخنافس من مهمتها ... أتمنى لك خنفَسَةً سعيدة , أما أنا فسأصعد لمكتبي لأسجل تفاصيل كل شيء ... سأحب حقًا أن أشاهدها مرةً أخرى في أوقات فراغي ... سلام و ليشملك الله برحمته "

تركه و صعد لمكتبه و قبل أن يغلق الباب انطلقت صرخات عاصم تحمل ألمًا لا يوصف و قهرًا لا مثيل له , تردّدت الصرخات للحظاتٍ قبل أن يُغلق الباب ليسود الصمت و كأنه حزينٌ على مصير عاصم .

*****

كان يومًا باردًا , الرياح كانت تزأر في عنفٍ محاوِلةً إخافة القلّة القليلة من المارة التي جازفت و نزلت في مثل هذا الوقت الباكر من صباح هذا اليوم البارد , هناك سبَتٌ مصنوعٌ من الخوص يرقد أرضًا في استسلام, يحتوي طفلًا يجلس داخله متجاهلًا البرد القارس الذي يحيط به متجاهلًا الزرقة التي تمتد بلا رحمةٍ إلى أطرافه الصغيرة , متجاهلًا سُحُب البخار التي تنطلق من بين شفتيه مع تنفسه , متجاهلًا ندى الصباح المثلج الذي يهبط من السماء غير عابئٍ بأي شيءٍ سوى أداء مهمته الأزلية ... السقوط!

كان الطفل يجلس جلسته المعتادة , إحدى ساقية مثنيةٌ بأسفله و الأخرى تمتدّ أمامه بلا حراك , يجلس و قد وضع يديه على أذنيه

ليسدّهما و إن كانت عيناه مفتوحتان تصرخان أشياء عديدة ... بردٌ قارس ، وحدةٌ مخيفة و كلماتٌ لا يستطيع أن يعبر عنها و لا يفهمها سواه , يجلس منذ حوالي الربع ساعة ؛ صوت خطوات شخصٍ يرتدي حذاءً ثقيلًا , توقفت الخطوات خلفه , لا يزال يكتم أذنيه و يهتزّ في تلقائيةٍ مريبة , صوتٌ خافتٌ يدلّ على الاستسلام اندلع من بين شفتين قبّلهما البرد , يدٌ تختبئ من قسوة البرد بداخل قفازٍ صوفيٍّ يحتويهما في حنان انقضّت على أيدي السلة و حملتها من أذنيها ... لم يمشِ سوى ثلاثة خطواتٍ و توقف أمام بابٍ زجاجيٍّ ضخمٍ يحتوي على شعارٍ ضخم و بأسفله اسم طبيبٍ نفسيٍّ شهير , طرق بقبضته الباب و تعمّد أن يطرق الزجاج و ليس الإطار المعدني الذي يغلفه , انتظر لحظاتٍ قليلةٍ قبل أن يطرق الباب بغضب , كاد الزجاج أن يستجير لحدّة غضبه و ينكسر, لكن من حسن الحظ فقد فتح الباب قبلها , تأمّل الشخص الذي يرتدي ثيابًا بيضاء تدل على أنه ينتمي لطاقم التمريض في هذه المصحة النفسية , قال له باستسلام :

" هل تعرفني ؟؟ "

تلعثم الممرض الشاب قبل أن يقرر أن يخمن الإجابة :

" هل أنت الضابط الذي أتى مع الطفل ! "

أجاه شريف بسخرية :

" حسنًا ... يبدو أن لدينا رابح "

رفع أمامه السلة التي يجلس بها الطفل الصغير , صمت الطفل متأملًا جدار المشفى في اهتمام , نظر شريف إلى الجدار في يأسٍ قبل أن تتبدل ملامح اليأس لتختبئ خجلًا خلف جدارٍ من برودٍ و قسوةٍ رسمهما على ملامحه في حزم :

" هل تميّز هذا الطفل !! "

للمرة الثانية يجيب الممرض في تلعثم :

" هذا الطفل الذي أتيت أنت معه "

بسخريةٍ لاذعةٍ هذه المرة أجابه شريف :

" عبقريّ ... يبدو أنك عبقريّ المصحة "

احمرّ وجه الممرض الشاب في خليطٍ من الخجل و الغضب فأجابه بصوتٍ خافتٍ تكسوه الحدّة :

" ألم يرحل الفتى و ترحل خلفه ... لماذا أتيتما مرةً أخرى "

غضب شريفٌ من حِدّة الممرض فأجابه منفجرًا :

" لأن الطفل يقبع في الخارج منذ ربع ساعةٍ أو يزيد , و أنتم هنا تنامون أو تتكاسلون أو تلعبون أو لا أعلم ما الشيء الذي تقبضون رواتبكم

من أجله , أخبرني هل تقبض راتبك لتترك مرضاك في الشارع يتجمدون !"

" و كيف لي أن أعرف أنه يقبع بالخارج !! "

" حسنًا ... هذه هي المرة الثانية التي تحدثني بها بأسلوبٍ غير لائق ... هل تعلم ماذا يعني هذا الأمر ؟؟ "

" لا ... لا أعلم "

" يعني أن لديك مرةً أخرى تخاطبني فيها بتبجح و سأعتقلك بتهمة التقصير في أداء مهامك الوظيفية و الإهمال في رعاية مريضٍ عندك مما أدى لاقترابه من الموت "

تأمله الشاب بأعين مفتوحةٍ دهشَة قبل أن يشير لإحدى الممرضات اللاتي تتابعن المشهد من بعيد , حضرت لتتناول السلة من يد شريفٍ الذي أخبرها بصوتٍ لا يتناسب مع طريقة حديثه الجافّة مع الفتى :

" من فضلِك أطعميه و أدفئيه ... شكرًا لكِ "

بدّل نظراته للشاب و سأله برفقٍ هذه المرة :

" ألا تعمل الكاميرات المثبّتة بالخارج ؟؟ "

" تعمل و لكننا فعلًا لم نرَ الحقيبة يا سيدي "

" حسنًا ... لقد وصلت لي رسالةٌ نصيّةٌ على هاتفي المحمول من رقمٍ خاصٍ تخبرني بمكان الفتى ... من حسن الحظّ أنني كنت قريبًا منه و إلا فالله وحده يعلم ما كان سيحدث له ! "

" حمدًا لله "

" سأذهب في زيارةٍ سريعةٍ لمديري و سوف أحضر مرةً أخرى لأتابع حالة الطفل ... من فضلك اهتم به ريثما أعود"

" حسنًا يا سيدي "

*****

بطرقاتٍ خفيفةٍ طرق شريفٌ باب مديره العقيد كامل منتظرًا إشارة الدخول لتأتيه ... أذِنَ له العقيد بالدخول فدخل للمكتب و أغلق الباب خلفه و وقف أمام مكتب المدير و شدّ قامته بقوةٍ و هو يؤدي التحيّة العسكرية بصرامةٍ مما أدى لابتسام العقيد :

" صباح الخير يا شريف "

" صباح الخير يا سيدي "

" أيّ رياحٍ طيبةٍ أتت بك إلى هنا في مثل هذا الصباح البارد ؟ "

تنحنح شريفٌ و هو يسعل بخجلٍ متفاديًا نظرات مديره إليه , تأمّل ما خلف مكتب مديره , تأمّل علم مصر المرفوع على عمودٍ معدنيّ , تأمل صورة الرئيس الحالي و الصورة المحاطة بإطارٍ ذهبيٍ تحمل آيتان من الذكر الحكيم قرأهما في سره فاطمأن قلبه , بصوتٍ خافتٍ وقورٍ أخبره:

"سيدي الأمر بخصوص الطفل ... أعلم أنني قد أخبرت سيادتكم بأن الأمر انتهى بتسليمه لقريبه ... و لكن الحقيقة أن قريبه قد احترق حتى الموت و إن كانت التقارير المبدئية القادمة من الطب الشرعي تنبئنا بأنه ذُبِح أولًا قبل الاحتراق ... و الطفل اختفى من تلك الشقة , الأمر الغامض أنه حتى الآن رجال البحث الجنائي و رجال الطب الشرعي لم يعثروا على سببٍ الحريق !! "

صمت مديره مفكرًا قبل أن يشير له بيده في صمتٍ أن يستكمل , استكمل شريفٌ حكايته بصوتٍ خافت :

" هناك عدة ألغازٍ تواجهنا , كيف ذُبِح قريبه و من ذبحه و أين سلاح الجريمة !! ... كيف رحل الطفل من الشقة و وصل إلى المصحة بمفرده : الشهود أخبرونا أن هناك محاميًا قد هبط من البناية لحظة احتراقها و أنه اختفى على الفور و بعمل بعض التحريات ثبت اختفاء المحامي نهائيًا و كأنه تبخر !! ... الرسالة التي وصلت لي من رقمٍ مجهولٍ عجز حتى رجال الأمن الوطني عن تتبعه , و آخرهم تلك الوريقة التي

وجدتها بجوار الطفل في السلة ... مدّ يده بورقةٍ تجعّدت و ابتلّت و لكن الخط واضحٌ فيها و الكلمات المخطوطة بخطٍ قويٍ و جميل تُظهر:

(السادة المختصّون)

برجاءٍ الحفاظ على الفتى هذه المرة فليس كل مرة يسلم الأمر.

(فاعل خير)

قرأ العقيد كامل الكلمات ببطءٍ و هو يقول :

" هذا يجعل الأمر جليًا و يضعنا أمام خيارٍ واحد ... هناك من يساعد الفتى و بالطبع هو القاتل و المتسبب في الحريق ... إبحث عن هذا المحامي جيدًا "

" بحثنا يا سيدي ... و الحقيقة أن لي رأيًا في هذا الأمر "

" تكلم يا شريف "

" هل سمعت عن ظاهرة الاحتراق الذاتيّ ! "

" ماذا تقصد بهذا ... أوضح كلماتك "

أخرج شريف ورقة أخرى مكتوبةً بخطّه و يبدو أنها كُتِبت في سرعةٍ و تعجّل , أحكم فردها أمام عينيه و هو يقرأ منها بصوتٍ واضحٍ و إن شابه قليلٌ من التردد و الخوف :

" الاحتراق الذاتيّ يا سيدي هي ظاهرةٌ حيّرت الكثير من العلماء على مر الزمان , تعدّدت النظريات التي توضّح أسبابها كـ (تناول كمياتٍ كبيرةٍ من الخمور مما يؤدي لتشبع الجسد بالكحول و بالتالي يصبح أكثر عرضةً للاحتراق) و (احتواء الجسد على نسبةٍ عاليةٍ من الدهون) أو (محاولة الربط بين كهرباء الجسد الساكنة و حدوث نوعٍ من توليد الطاقة الداخلية الكبيرة) و كلها نظرياتٌ تم رفضها و إثبات خطئها , لدرجة أن السير آرثر سي كلارك الروائيّ و المخترع البريطاني الشهير علّق على تلك الظاهرة قائلًا : (هناك لغزٌ واحدٌ أسأل عنه أكثر من أي شيءٍ آخر , إنه الاحتراق الذاتيّ الذي يبدو في بعض الحالات تحديًا للواقع و تفسيره غير منطقي و يترك شعورًا مخيفًا) , من المعروف أيضًا يا سيدي أن حالات الاحتراق الذاتيّ لا تصيب الأشخاص في حالات السكون أو الكمون و إنما في حالات الحركة فقط ؛ هناك العديد من الحالات ... طفلة في لندن ... سكّيرٌ في فرنسا ... على مدار 300 سنة حدثت أكثر من مائتي حالة احتراق ذاتيّ , بعضها تحول لرماد أمام أعين الشهود , هناك كتابٌ شهير كتبه الكاتب الفرنسي يوناس دوبونت يتحدث فيه بالتفصيل عن بعض حالات تلك الظاهرة "

قال العقيد بخفوت :

" هل تريد أن تخبرني أن قريب الطفل احترق ذاتيًا !! و هل ذُبِح ذاتيًا و بعثَ لك بالرسالة النصية و أرسل الطفل للمصحة ذاتيًا و أخفى المحامي أيضًا ؟؟ "

" بالطبع لا يا سيدي "

تنهد العقيد بارتياحٍ و هو يقول :

" اعتقدت أنك قد جننت "

" الطفل هو من فعل الباقي "

" تأكدت الآن من أنك قد جننت يا سيادة الرائد "

" إسمعني فقط يا سيدي "

أمسك العقيد بقلمٍ كان ينام على المكتب و تناول ورقةً صغيرةً وضعها أمامه و أخذ يعبث بها القلم , استكمل شريف حديثه :

" أنت تعلم مثلي أن هذا الطفل شيطانيّ و أنا الآن أؤكد لك على حالة الاستحواذ الشيطاني تلك ... سنفترض أنه مريضٌ بالتوحد , ربما كل مرضى التوحد مستحوذٌ عليهم ... هذا الشيطان قد تحرّر بناءً على أوامر الطفل الذي أمره بذبح الرجل و ربما حرقه , حمل الطفل إلى المصحة , أرسل لي تلك الرسالة , خطّ الوريقة بخطّه و عاد مرةً أخرى ليُتِمّ استحواذه على ذلك الطفل أو أيًا كان ما يفعله "

" سنفترض معًا بشكلٍ جدليٍّ لا يحتمل الصحّة أن ما تقول صحيح ... أين المحامي ؟؟ "

" المحامي هو الشيطان "

انفجر فيه العقيد :

" محامٍ شهير ... فاسد ... موجود على الكوكب منذ ثلاثين عامًا ... اختفى و أنت تخبرني أنه شيطان" !

" لا أقصد هذا الأمر و إنما أقصد أن هذا المحامي استخدمه الشيطان لغرضٍ ما و عندما انتهى من غرضه أخفاه أو أرسله إلى الجحيم أو أحرقه أو أيًا كان "

" شريف ... كفاك هراءً ... عمرو اقترب من التوصل لحقائق هامةٍ في قضية الزوجين الراحلين , أمامك ثلاثة خيارات : أن تساعد عمرو , أن تتابع الطفل كما طلبت , أن تأخذ أجازةً لتريح أعصابك المرهقة "

وقف شريف يؤدي الخدمة العسكرية قبل أن يدور على كعبيه و يرحل في صمت , سأله العقيد بصوت عالٍ :

" إلى أين أيها الرائد ! "

" إلى المصحة "

خرج شريفٌ من الغرفة و أغلق بابها خلفه و هو يرحل و لم ينتبه للوريقة الصغيرة الموضوعة على مكتب العقيد و قد خطَّ فيها بقلمه جملتين متجاورتين لا يفصل بينهما سوى علامة ترقيمٍ صغيرة :

(الاحتراق الذاتيّ – الاستحواذ الشيطانيّ)

*****

دلف بهاءٌ من الباب المعدني للمخزن و أغلقه خلفه في سرعةٍ بعد أن تسللت بضع كرياتٍ من الثلج لداخل المخزن ... كان يحمل حقيبةً جلديةً في يدٍ تختبئ بردًا داخل قفازٍ صوفيّ , يغطي نصف وجهه و رقبته بشالٍ صوفيّ ثقيل و يرتدي قلنسوةً تقيه شر البرد , مشى حتى نصف المخزن و وضع الحقيبة من يده و خلع قفازيه , وضعهما بجوار الحقيبة و فرك يديه ببعضهما البعض مناجاةً للدفء , لمح شادو كلبه العزيز يأتي إليه ؛ كبر شادو و لم يعد مجرد جروٍ صغير و كبر بهاء و لم يعد طفلًا , أصبح شابًا على حافة العشرين من عمره , بجسدٍ قويٍ و قامةٍ مشدودة , منكبين عريضين و معدةٌ صلبة , شاربٌ سميكٌ يزيد وسامته يعلو شفتيه , شعرٌ طويلٌ أملسٌ و عينان بنيتان , مرّت السنوات على بهاء لتعيد تربيته ؛ أتى شادو إليه ركضًا و وقف على قامتيه الخلفيتين و هو يحتضنه و يلعق وجهه للحظاتٍ قبل أن يهبط و يتكور على نفسه أسفل قدميه , انحنى بهاء جالسًا على ركبته و هو يُمشي يده برفقٍ و حنانٍ على جسد شادو و هو يخاطبه بصوت ليّنٍ حنون :

" أعلم أنك غاضبٌ مني ... و لكني لم أستطع أن آخذك معي و أنت مريض ... الجوّ في الخارج صقيع ! "

سمع صوت باب القبو يُفتح , لم تمر لحظاتٌ حتى ظهر الزعيم و من خلفه رجلاه , ابتسم الجميع عندما رأووا بهاء , صفّق له الأشقر في مرحٍ بينما ابتسم الأسمر و التمعت عينا القائد في رضا , تناول الحقيبة و هو يُبعد القفاز للخلف قليلًا و يفتح الحقيبة , تأمّل العملات الورقية المتراصّة بجانب بعضها البعض قبل أن يتناول منها رزمتين و يعطيهما لبهاء , تناولهما بهاء برضا و قنوع قبل أن يشير القائد للأسمر الذي فهم إشارته فأحضر كرسيين و زجاجةً من الخمر , اعتذر بهاءٌ عن الشرب بينما صبّ القائد لنفسه كوباً صغيراً ... جلسا متقابلين ... ابتسم القائد و تحدّث بصوتٍ فخور :

" اليوم أعلنك رسميًا رجلاً لا يستهان به , اليوم كانت مهمتك الفردية الأولى و أتممتها بنجاح ... اليوم أعلن أنك رجلٌ تستحق الاحترام ... منذ عرفتك لم تخطئ سوى مرةٍ واحدة ... أتذكرها ؟؟ "

احمرّ وجه بهاء بخجلٍ و نكّس رأسه يتأمل حذاءه الجلديّ الأسود , تابع القائد كلماته :

" الفتاة الصغيرة ... التي صمّمتَ أن تُحضرها ... تتذكرها بالطبع ... هل تتذكر ما فعلت بنا ؟؟ بك تحديدًا "

هزّ بهاءٌ رأسه دلالةً على تذكره و لكن القائد تابع :

" أخبرتك منذ اليوم الأول ألا تتعلق بأحد و لكنك تعلّقت بها , أحضرتها هنا و اهتممت بها و رعيتها و أطعمتها و ماذا كانت مكافأتك ؟؟ ... أن تستيقظ في الصباح لتجدها قد سرقت أموالك و طعامك و هربت "

أجابه بهاء بصوتٍ خافت :

" و من يومها تعلّمت ألا أثق في أحدٍ حتى أنت "

أنهى كلماته و هو يمدّ يده بحركةٍ سريعةٍ لينتزع سكينًا كان يحمله القائد و يقربه منه بخفّةٍ من أسفل المنضدة , قهقه القائد بقوةٍ و هو يقول :

" أحسنت يا صغيري ... أحسنت "

تساءل بهاء بصوتٍ خافت :

" ألا ترى أن تذكيري بعثرتي الوحيدة يوم نجاحي الأول أمرٌ غريب "

" بالعكس ... تذكيرك بأخطائك و زلّاتك في خِضَمِّ نجاحك أمرٌ مهم ... كي لا يتلبسك النجاح لتظن أنك الذي لا يقهر و هذه هي بداية النهاية ... طالما فشلك أمام عينيك لم تنسه ستنجح ... إذا وضعت نجاحك نصب عينيك ستسقط "

هز بهاء رأسه متفهمًا , شرب القائد كأسه الثالث و احمر وجهه نتيجة جريان الكحول في دمائه , حمل القائد حقيبته و هبط للقبو وحيدًا , تبادل الثلاثة رجالٍ النظرات فهم يعلمون جيدًا أنه سهبط لكي يضع النقود في الخزانة المعدنية الصغيرة ذات الرتاج الإلكتروني الحديث الذي يقول الخبراء أنه لا يُقهر؛ مرّت دقائق و صعد القائد ليجلس وسطهم , سعل بقوةٍ ليلفت انتباههم التام , تحوّلت النظرات لتحيط به و التفّت حوله الأعين , حتى شادو وقف بتأهبٍ و هو ينظر تجاهه , خجل بهاءٌ أن يكون جالسًا و زميلاه واقفان , حاول الوقوف إلا أن الأشقر وضع يده على كتفه في إشارةٍ أنه لا داعٍ لذلك , انتبه الجميع بينما بدأ القائد كلماته :

" اليوم سنبدأ التخطيط لعمليةٍ مهمّة ... ربما تكون أهمّ و أكبر عملياتنا ... لن تكون في تجارة الأعضاء ... الأمر مختلفٌ تمامًا ... بالطبع تعلمون أن هنري – مشيرًا بيده للأسمر – هو من اقترح علينا تلك المهمة و أقنعني بربحها الضخم ... قررت المجازفة – متجاهلًا ابتسامة هنري – المهمة هذه المرة تدور في مجال المخدرات ... ذلك المخدر الجديد (الذبابة المجنونة) ... حباتٌ حمراءٌ ناريةٌ صغيرة ... تُضيع العقل و ترفع مستوى الأدرينالين في الدم ... تجعلك تعيش مغامرةً في خيالك ... ربما في جسدك ... ربما في جسدٍ آخر ... ربما في جسد كائنٍ آخر غير البشر ... سنتولى توزيعها هنا في تلك الدولة ... لن أخفيكم

سرًا أنني سأضع كافة نقودي في تلك المهمة لذلك أخبركم بهاء ، هنري و ماثيو إذا فشلت المهمّة لأي سببٍ من الأفضل ألا أراكم "

تحدث بهاء بصوتٍ خجول :

" سأصطحب شادو معنا "

" للمرة الثانية يا بهاء تتعلق بكائنٍ ما ... بهاء من فضلك .... "

" من فضلك سيدي ... شادو هو صديقي و أخي و لا أعتبره حيوانًا أليفًا و أنت تعلم أنه الآن في شيخوخته و أفضل ألا أتركه وحيدًا "

مطّ القائد شفتيه في عدم اقتناعٍ و هو يهزّ رأسه في إشارةٍ أن الأمر لا يعنيه , فلتصطحب معك من أردت طالما ستتم المهمة على خير وجه ؛ نظر بهاء لشادو الذي بادله النظر في امتنان كما لو أنه يفهم ما حدث , ارتفع صوت القائد و هو يقول :

" هل فهم الجميع ؟؟ "

هزّ الجميع رأسهم بتفهم , نظر لهم برضا و هو يقول بصوتٍ حنونٍ كما لو أنهم أبناؤه :

" بهاء و هنري سيحملان النقود ... ماثيو أنت المسؤول عن التفاوض "

رفع هنري يده و هو يقول :

" سيدي ... هل لي أن أقترح اقتراحًا "

" تكلم يا هنري ... كلّي آذان صاغية "

" من الأفضل أن يظلّ ماثيو مسؤولًا عن التفاوض ... بينما أكون أنا مسؤولًا عن النقود و بهاء مسؤولًا عن تأميننا دخولًا و خروجًا "

نظر له القائد بتشككٍ للحظةٍ قبل ان يهزّ رأسه موافقًا و قد بدأ الخمر يعبث بيدٍ فوضويةٍ في عقله , هزّ الجميع رؤوسهم في اتفاقٍ قبل أن يعطيهم القائد إشارة الرحيل , ذهب الجميع للنوم استعدادًا ليوم صعبٍ و طويلٍ في الغد , أشار بهاء لشادو بيده فتبعه إلى ركنه الدافئ ليناما سويًا .

*****

وقف شريفٌ في المصحّة يتابع بعينيه إجراءات تسليم الطفل للأسرة الصغيرة التي حضرت لاستلامه , أسرةٌ يبدو من مظهر أفرادها أنهم ينتمون للطبقة التي تكاد تنقرض , الطبقة المتوسطة .

رجلٌ أربعينيٌّ بدينٌ أصلع الرأس يطوّق رأسه من الجانبين بَوَاقي شعرٍ خفيفٍ أشعث , يحمل وجهًا مألوفًا و ملامح عادية , وجهٌ مصريٌّ تقابله يوميًا أثناء حركتك فلا تتذكره , صفرة أسنانه عقابًا له على جريمة التدخين تظهر جلية , بجواره سيدةٌ يغلب عليها طابع البدانة , تختبئ بداخل عباءةٍ سوداء اللون واسعة تخفي تضاريسها , و ترتدي حجابًا

بسيطًا تحرص على ألا تخرج منه شعيراتها التي تظهر فيها حمرة الحناء تخضّب الشعيرات التي فرّت من سواد الشقاء لابيضاض اليأس , وجهها بسيطٌ لا يحمل آثارًا لجمالٍ زائل و لا تغطي ثناياه مستحضراتٌ تجميلية , فتاةٌ عشرينيةٌ منهمكةٌ في العبث بهاتفٍ جوّالٍ تصدر منه أصوات الرسائل الجديدة التي تصل لها على تطبيق التواصل الشهير " واتس آب " ... تارةً تضحك و تارةً تبتسم في ولَهٍ و تارةً ثالثة تتجهم ملامحها و هي لا تفارق السطور الإلكترونية , محبوسةً في سجنٍ إلكتروني , تظن أنها حرّة إلا أن قيوده تكبّلها و بعنفٍ لتُغرقها بين مياه التكنولوجيا بعيدًا عن جزر الحياة الطبيعية , فتى صغير لا يتجاوز السنوات العشر يقف بجوار أمه بأنفٍ سائل , لا يلبث أن يمسح أنفه بكمّ قميصه الذي أتت به أمّه أوسع من مقاسه كي يعيش معه أطول فترةٍ ممكنة , و باليد الأخرى يتشبث في ملابس أمه و كأنه يخشى عليها أن تضيع ؛ ظهر على وجه الرجل الضيق عندما انتهى من الإمضاء الأخير و حمل الطفل الذي صرخ بقوة لافتًا نظر المصحة بأكملها للضيف الجديد و أسرته المتواضعة , اقترب شريفٌ من الأسرة و هو يجذب الهاتف من يد الفتاة التي احتجّت بصوتٍ مكتوم عندما رأت نظراته الصارمة بينما أعطى الصغير منديلًا يرحم كمه قليلًا و أعطى الهاتف لأمها التي تأملتها لبرهةٍ قبل أن تفتح حقيبتها و تضع الهاتف بداخلها , احتجّت الفتاة :

" أمي !! "

أجابتها أمها بصرامة :

" أصمتي ! "

مد شريف يده للرجل المنهمك في الحدّ من حركة الطفل و محاولة السيطرة على صراخه و لكنه لم يزد الأمر إلا سوءًا , مدّ شريفٌ يده و تناول الطفل و وضعه بجواره على منصة الاستقبال بجوار الأوراق التي انتهى الرجل من تذييلها بتوقيعه فصمت الطفل و انهمك في النظر للحائط بلا هدفٍ محدّد , مدّ شريفٌ يده مرّةً أخرى و هو يصافح الرجل معرّفًا إياه بنفسه :

" الرائد شريف ... المسؤول عن حالة الطفل ... هناك عدة ملحوظاتٍ يجب أن تعلمها "

أجاب الرجل بكثيرٍ من الضيق و هو يتأمل الحائط الذي ينظر له الطفل محاولًا اكتشاف سرّ اهتمامه بهذا الحائط :

" أعلم ... الطفل متوحد , تشكّون في حالة استغلالٍ شيطانيّ أظن و هناك الكثير من التكهنات الحمقاء تدور حوله بلا أدلةٍ منطقية , الشخص الذي رعاه قبلي توفيّ محترقًا مذبوحًا , لا أخفيك سرًا أنا لا أرغب به و إذا حدث أي شيءٍ يثير الريبة و الشكّ عندي فسأعيده إلى هنا ... أنا تسلّمته كي لا تطاردني صحوة الضمير , فعلت ما يمليه على ضميري "

أجابه شريف :

" استحواذ و ليس استغلال "

" لا يهمني ... المهم أنني سأحضره عند أول بادرة جنون, و سأُخلي مسؤوليتي التامة عنه "

هزّ شريف رأسه و هو يعطيه كارتًا شخصيًا يحمل رتبته و اسمه الثلاثي و رقم هاتفه الشخصي :

" أرجو أن تشرفني بمكالمةٍ إذا جدّ أي جديد "

هز رأسه بالموافقة و همّ بالرحيل ؛ استدار شريف و رحل حتى أوقفه نداء صغيرٌ من السيدة :

" سيادة الرائد ... لي شقيقةٌ تريد أن تحج على نفقة الدولة ... أنت تعلم ضيق اليد و قلة النقود ... ألا ... "

قاطعها شريف برفق و هو يخرج وريقة صغيرة و قلم من جيبه :

" أعطِني اسمها يا سيدتي و سأرى ما يمكن فعله "

أملَته اسمها و هي تمطره بوابلٍ من دعواتٍ بصوتٍ فرح و ما إن استدارت و رحلت حتى ألقى بالوريقة في أقرب سلة مهملاتٍ باستهتار و

هو يراقب الطفل الصارخ المنهمك في الحركة المعترضة و هو يبتعد مع أسرته الجديدة.

*****

أدار الرجل مفتاح شقّته في قفلها و هو يفتح الباب الذي احتجّ بصريرٍ خافت , دخل إلى الشقة متجاهلًا صراخ الطفل , دخل أفراد أسرته الصغيرة من خلفه , أغلقوا الباب و هو يضغط بيده على قابس الإضاءة لتتألق الشقة بضوءٍ أبيضٍ واضح يكشف الموجودات , شقّةٌ صغيرة الحجم , كثيرة الأثاث مزدحمةٌ بأشياء لا نفع لها و لكن وجودها في البيوت أصبح ضرورة , كراسي ضخمة تجلس متجاورةً أمام باب الشقة عليها بضع قطع ملابس يبدو أنها مستعملة ؛ نظرت الأم لابنتها و هي تقول :

" من فضلك يا لمياء ... أزيلي تلك الملابس و ضعيها في الحمام "

صاغرةً أجابت لمياء نداءها فهاتفها لا يزال أسيراً عندها , خرجت من الحمام تمدّ يدها أمامها ففهمت أمها الأمر , أعطتها هاتفها و هي تقول لها :

" كالعادة سأعتبر أن لا ابنة لي و سأجهّز طعام العشاء بمفردي "

لم تردّ الفتاة فقد كانت منهمكةً في متابعة ما فاتها , صمت الطفل قليلًا عندما وضعه الرجل على أحد المقاعد ؛ بدّل الرجل ملابسه

بسرعةٍ و خرج يجلس أمام الطفل الذي هرب بعينيه اتقاءً لشر لقاء أعين لا يريده أن يتم , ابتسم الرجل و هو يقرب يده من شعر الطفل بابتسامةٍ خافتة , بمجرد أن لمس شعره احتجّ الطفل بخفوتٍ و هو مستمرٌ في عض إصبعه , بصوتٍ عالٍ نادى الرجل على زوجته :

" عفاف ... من فضلك جهّزي طعامًا للطفل يبدو أنه جائع "

ابتسمت أثناء عملها في المطبخ و لم ترد , الطفل الصغير جلس أمام شاشة التلفاز متجاهلًا ما يحدث حوله أسيرًا لأحد أفلام الأطفال التي تخلب لبّه دائمًا : خاطب الرجل الطفل بصوتٍ حنون :

" أعلم أنك تعاني من مرض التوحد و على حد معلوماتي هو مرضٌ لا علاج له حتى الآن ... لن أخفيك سرًا لا أستطيع أن أحتفظ بك هنا كثيرًا ... الإرث يا صغيري هو السبب في الاحتفاظ بك ... ليناء قد شبّت و أصبحت عروسًا و أنا لا أقوى على مصاريف زواجها ... لا تحزن يا صغيري فإن فرج الله قريب "

أنهى كلماته متابعًا الصغير الذي استمرّ في النظر الجهة الأخرى , سرعان ما التمّ شمل الأسرة على منضدة الطعام , تناول الجميع طعام العشاء بسرعةٍ و كلٌّ منهما يفكر في أمرٍ بعيدٍ عن تفكير الآخرين : انتهت عفاف من إطعام أسرتها و تأكدت أنهم يأكلون في نهمٍ و ذهبت لكي تُطعم الطفل , كان الطفل يبدو عليه الجوع الشديد , وسط صرخاتٍ و حركاتٍ مضطربة و محاولاتٍ منه للهجوم على أطباق الطعام بشهيةٍ

مفتوحة , استمرت في رد هجماته بهدوء و هي تلاحظ أن وجهه اتّسخ و يداه و ملابسه فقدت نظافتها , لم تيأس , قاومت وسط الصرخات و هي تحاول مرةً تلو الأخرى ألا تفقد أعصابها , تأكدت عفاف من أن الطفل التهم طعامه برغم المجهود الشاق الذي بذلته , تأكدت من نظافته الشخصية وسط حركته المضطربة , وضعته في فراشٍ صغيرٍ جهزته له على عجل بهدوء و تأكدت من تدفئته بغطاءٍ صغيرٍ و دلفت إلى غرفتها بعد أن تأكدت أن أضواء الشقة كلها مطفأة , كان الطفل متعبًا للغاية فسقط في دوامةٍ من نومٍ عميق على الفور , غرقت الشقة في ظلامٍ دامسٍ و ساد الصمت , سويعاتٌ قليلة مرت و ارتفع صوت تنفس أعضاء الأسرة دلالةً على ذهابهم في رحلةٍ خياليةٍ بين ضفاف النوم .

استيقظ الطفل في نشاطٍ غير مبرر , يبدو أن طعامه احتوى على قدر كافٍ من السكريات , هبط من فراشه متجاهلًا الغطاء الذي وقع أرضًا , تحرّر منه في حركةٍ سريعةٍ و هو يمشي ببطءٍ في الممر الصغير الذي يصل الصالة بالمطبخ , لفت نظره الصوت الخافت الذي تُصدره الثلاجة , زحف بجوارها فوجد مجموعةً من القدور ترقد أرضًا بلا حراك , زحف إليها و بصوتٍ خافتٍ أصدر صيحةً فرحة , أمسك بأوّلها و وضعه أرضًا برفقٍ أمسك بالقدر الثاني محاولًا وضعه فوق الأول إلا أنه كان أصغر منه , وضعه أرضًا و أمسك الأول و وضعه فوقه فغطاه تمامًا , صفق بجذلٍ و هو يتناول الثالث إلا أن كان أكبر من قدرته على حمله , حاول مرةً تلو الأخرى بلا يأس : ظهر فجأةً على باب المطبخ و

كأنما نبَت من العدم ... طيفٌ أسود اللون بطئ الحركة بشكلٍ ملفت , ببطءٍ تحرك الطيف الأسود حتى وصل إلى الطفل , تأمّله لفترةٍ في صمت , يبدو أن الطفل شعر به فاعتدل بهدوءٍ و هو يهرب بعينيه , بدأ الطفل يهتزّ في توترٍ و لكن بدون صوت , للحظةٍ توقف الزمن بين هزّات الطفل المتكرّرة و صمت الطيف , سوادٌ يغطيه من رأسه لأخمص قدميه ؛ مدّ الطيف يده بهدوءٍ حتى لمس بها رأس الطفل متوقّعًا أن يصيبه الهياج وسط نوبةٍ من البكاء أو أن يصمت الطفل و يتجاهله تمامًا , أمسك الطفل بيده و حرّكها نحو القدر الثالث يريده أن يحمله عنه , أمسك الطيف القدر و ساعد الطفل في وضعه فوق شقيقيه ليغطيهما و كأنه يحيطهما بحمايته , للمرة الأولى يوجه الطفل نظراته لشيءٍ يحمله الطيف بين يديه , التمعت عينا الطفل بحماس , تحرك الطيف ببطءٍ و هدوء فتبعه الطفل في مشيةٍ متعثّرة , وصلا إلى فراش الطفل , رفع الطيف يده و هو يشير للفراش , وقف الدلفل و هو يرفع جسده و يحاول تسلّق الفراش الصغير مرّةً تلو الأخرى و تكللت جهوده بنجاح , جلس الطفل محافظًا على حركته النمطية التي لا يتخلى عنها , يهتز بجسده بقوةٍ للأمام و الخلف بلا كلل , وضع الطيف شيئًا ما بجوار الطفل , ظهرت علامات الفرحة على وجه الطفل الذي حرّك جسده بسعادةٍ و كأنه يقفز فرحًا , انهمك الطفل في نشاطٍ حرص ذلك الطيف على إخفائه ؛ في صمتٍ انتهى الطفل فمدّ الطيف يده ليتناول شيئًا ما , شعر بحركةٍ خافتةٍ من خلفه , نظر فوجد الصغير يقف على باب

غرفته يرتدي ملابس نومه و يضغط على عينيه و هو يتثاءب قبل أن تتلاقى أعينهما , سأله الصغير بخوف :

" من أنت ؟؟ و ماذا تفعل هنا ؟؟ "

تجاهله الطيف تمامًا و هو يمشي بهدوءٍ تجاه باب الشقة , فتح بابها و خرج متجاهلًا نداءات الصبي لأبيه في خوف تاركًا الباب مفتوحًا في استهتار , استجاب الأب لنداءات ابنه و وقف يستمع له باهتمام قبل أن يدخل غرفته متناولًا عصا خشبيةً ضخمةً و راكضًا إلى السلم , هبط درجات السلم في وثباتٍ صغيرةٍ قبل أن يصل لباب العقار المغلق بإحكام , نظر له بدهشة قبل أن يصعد مراجعًا كل النوافذ المغلقة بإحكام , اختفى ذلك الطيف ... اختفى تمامًا !!

صعد للشقة مرةً أخرى و دخل إليها مغلقًا بابها في إحكام , فتح ضوء الشقة ليغمرها الضوء الأبيض للحظاتٍ قبل أن تردّد جدران الشقة صرخته التي تخلّت عن كثيرٍ من ذكورتها و هو يصرخ برعبٍ لا مثيل له!

*****

دخل شريفٌ إلى المصحة في سرعةٍ و توترٍ و هو يرتجف من شدّة البرد , توقف للحظةٍ و هو يتجوّل بعينيه يتابع الحركة الغريبة التي تحدث في المصحة , أمام منصة الاستقبال يضع الطفل يديه على أذنيه في قوةٍ و

هو يهدر بعنفٍ كأول مرةٍ وجده شريف , يغلق عينيه و يهتز بسرعةٍ تفوق أيّ مرةٍ رآه فيها , الرجل يذيّل بعض وريقاتٍ بتوقيعه بيدٍ يغتصبها الارتجاف ؛ بمجرد أن رأى الرجل شريف ترك كل الأوراق و ذهب إليه , قال له بصوتٍ مرتعشٍ متوتر:

" الطفل عندكم ... أنا أخلي مسؤوليتي من هذا الأمر تمامًا ... اعتبر أنه ليس له أقرباء "

طمأنه شريفٌ بربتةٍ حانيةٍ على كتفه و هو يقول :

" ما الأمر... إهدأ ! "

أدار الرجل وجهه في قوةٍ و هو يجذبه بعيدًا عن مرأى زوجته التي جلست على مقعدٍ تحتضن صغيرها المجهش في بكاءٍ لا يستطيع إسكاته أي شيء حتى لو كان حضن أمه و الفتاة الشابة صفراء الوجه زائغة العينين , هناك أمر جللٌ سطا على تركيزهم , تبعه بخطواتٍ متمهلةٍ و هو يراقب الفزع الذي يتقافز بين محاجر العيون , وقف كلاهما خلف حائطٍ يخفيهما عن الأعين قبل أن ينحني الرجل على يد شريفٍ و يقبلها و هو يبكي :

" من فضلك ... من فضلك خلصنا منه "

سحب شريفٌ يده في عنف, و كأن كهرباءً مسّتها و هو يمسح دمعات الرجل التي تساقطت من خريف عينيه في ملابسه و هو يربّت عليه مرةً أخرى :

" إهدأ يا رجل ... إهدأ "

ارتجف جسد الرجل بقوةٍ و هو يقصّ على شريفٍ كل ما حدث بصوتٍ متهدجٍ تقاطعه عواصفٌ من دمعٍ و أعاصير قهرٍ لتغزو روحه , وصل بحديثه حتى صعد لشقته :

" و صعدت إلى الشقة أرتجف و أنا أمسك العصا الخشبية بإحكام ... لو أن ذبابةً ظهرت لمزّقتها ... حاولت أن أخفي خوفي عن أعين أسرتي و لكن كيف لي !! ... الشبح اختفى يا سيدي ... الباب مغلقٌ و النوافذ محكمة الإغلاق ... وضعت العصا برفقٍ أرضًا و أنا أتأمل طفلي المرتجف ذو الأعين المحمرّة بكاءً و زوجتي التي تحتضنه بعدم فهم ... ضغطت زر الإضاءة فأتى الضوء لينير الغرفة "

تهدّج صوته بقوةٍ و سعل مرتين , تركه شريف يستجمع شتات نفسه و خرج للغرفة من الخارج , ملأ كوب ماءٍ باردٍ من مبرّد مياهٍ يقف بصمت يراقب ما يحدث , عاد إليه و ناوله الكوب , شرب الرجل و سعل مرةً أخيرة , بدأ يتحدث مرة أخرى :

" بمجرد أن أضاءت الغرفة لفتت نظري حركة الطفل الغير منتظمة عكس العادة ... بمجرد أن نظرت له حتى وجدت .... وجدت وجهه و أسنانه بل و يديه أيضًا مليئةً بالدماء ... قالت زوجتي أنها مربى فُراولة و لكن هل تتخيل صدمتي ... حتى لو اكتشفت أنها مربى فراولة ... هل كنت لأعيش معه مرةً أخرى بعد ذلك ... ثم من أين أتى بتلك المربى و البيت كله لا يوجد فيه قطرة مربى من أي نوع "

نظر له شريف بصمتٍ مشجعًا إياه أن يستمر:

" الآن يا سيدي أنا لا أعرف من أين أتى بالمربى التي حتى لم أجد قِدرًا فارغاً لها ... من هو ذلك الشبح ؟؟ ... كيف دخل و كيف رحل و لماذا يهتم بالصبي ؛ الأمر الآخر أنني دخلت للمطبخ لأحضر كوبًا من الماء فوجدت قدور المطبخ المعدنية تتراص فوق بعضها البعض و قد ابتلع كل منهم القدر الأصغر منه ... بلا تفسير ... بلا سبب ... سيدي ! "

أجابه شريف : " ماذا بك يا رجل ... تماسك ! "

" سيدي ... أنا أخشى هذا الفتى ... كنت تشكّ أنه مستحوذٌ عليه و ها أنا أؤكد لك تلك المعلومة ... هذا الطفل غير طبيعي "

نظر شريف للطفل نظرةً طويلةً لا تحمل سوى معنًى واحد ... ماذا بعد!

*****

أسر التوتر نفوسهم و هم يقتربون من المكان الذي ستتمّ فيه عملية التبادل , بهاء كان يتقدمهم بشجاعةٍ مخفيًا توتره خلف ستارٍ من الجسارة و هنري يمسك جيدًا بحقيبتي النقود أما ماثيو الأشقر فكان يمشي محاولًا إخفاء رجفةٍ تنتابه من حينٍ لآخر , عميلٌ جديد في مكانٍ جديدٍ و سلعةٌ جديدة !

وصلوا للمكان و دلفوا إليه , الغريب في الأمر أن المكان كان يشبه لحدٍّ كبيرجدًا مقرهم , مخزنٌ كبيرٌ ذو جدرانٍ معدنيةٍ حمراء اللون , أرضيةٌ خالية , سقفه مغطًى بشبكةٍ من المواسير التي لا فائدة منها يقف بجوارها مصباحان أو ثلاثة بلا فائدةٍ ترجى منهم سوى إضفاء نوعٍ من الضوء الصناعي على المكان , كانت الإشارة هذه المرة تقتضي أن يقف ماثيو وحيدًا في وسط المكان فيما يتراجع بهاءٌ و هنري للخلف قليلًا بينما يتحدث ماثيو بكلماتٍ قد تبدو لسامعها أنها كلماتٌ عاديةٌ بينما هي شفرةٌ من نوعٍ خاص :

" ها أنا ذا ! قد حضرتُ طالبًا عفوك و غفرانك !! "

الصمت يفرض يدًا من حديدٍ على المكان , للمرة الثانية وقف ماثيو و قد ارتفع صوته :

" ها أنا ذا ! قد حضرت طالبًا عفوك و غفرانك !! "

لحظاتٌ قليلةٌ مرّت و انتبه الجميع إلى صوتٍ خافت , ظهر رجلان أبيضا البشرة طويلا الشعر منسّقيه , أحدهما يرتدي نظارةً طبيّةً و ساعةً يبدو أنها باهظة الثمن : يبدو أن الزعيم ها هنا بينما الآخر تظهر عضلاته جليّةً من تحت بذته جيدة الصنع ففهم الجميع أنه تابعه , صمت ماثيو بينما تهلّلت أسارير هنري لمرآه , تحدّث الرجل ذو النظارة الطبية و هو يلمسها في هدوء :

" الغفران ليس لنا بل للإله ... قد حضرت طالبًا عفوك و رضاك هي كلمة السر المنشودة "

ابتسم ماثيو في إحراج , يبدو أنه نسي كلمة السر بسبب التوتر الذي تلّبسه , مدّ يده ليصافح الرجل إلا أن الرجل نظر له لبرهةٍ قبل أن يمدّ يده مصافحًا إياه , لم يهتم ماثيو فالأمر لا يهمه بالشكل الكافي , تقدّم الرجل ليراقب هنري و بهاء اللذان كانا يقفان بصمت , وقف أمام بهاء و هو يقول :

" أنا الآن أعرف هنري و أعرف ذلك المتلعثم هناك ... من تكون ؟ "

تحدّث بهاءٌ بصوتٍ واثقٍ و هو ينظر في عينيه :

" أنا بهاء ! "

ردّد الرجل الاسم بهدوء :

" بهاء !! يبدو أنك فتًى صُلب "

ابتسم بهاء و لم يردّ , حيّى الرجل هنري برأسه في تودّدٍ و هو يقول له :

" كيف حالك هنري "

" على خير ما يرام سيدي "

عاد الرجل بخطواتٍ سريعةٍ ليقف جوار تابعه قبل أن يمدّ يديه إلى ماثيو طالبًا حقائب النقود , أشار ماثيو لأنهم لا يحملون حقيبة !

ابتسم الرجل و قال :

" إنه أول تعاملٍ عزيزي ... بالطبع لن ترى سلعتنا قبل أن نرى نقودك ... تذكّر أنك من تحتاجنا "

كظم ماثيو غيظه و هو ينظر للخلف تجاه هنري و بهاء و رأى الرفض في عينيهما , نظر للرجل مرةً أخرى و هو يقول له :

" سيدي ... سامحني ... ليس هكذا تتمّ الأمور "

هزّ الرجل رأسه في تفهّمٍ و مدّ يده إلى ظهره لينتزع مسدسًا قد أخفاه بعنايةٍ بين بنطاله و ظهره , رفعه في وجه ماثيو , توتّرت الأجواء تمامًا , شياطين الغضب تلبّست جسد بهاء و هنري و لكنهما كانا غير مسلحين , الوحيد المسلح بينهم هو ماثيو , رفع ماثيو يديه في بطءٍ للأعلى في إشارةٍ

للاستسلام ... فجأةً ابتعد ماثيو عن مسار المسدس و هو ينحني بسرعةٍ و يتدحرج بجسده أرضًا ليُخرج مسدسًا صغيرًا كان يخفيه في جوربه , وقف و هو يضع المسدس في جانب رأس الرجل و يترك الفوهة المعدنية تقبّله بشبق , ابتسم الرجل و هو يقول :

" أعجبني فيك سرعتك ... يبدو أنك مدرَّبٌ على نحوٍ جيد "

لم يدرك ماثيو و هنري سبب ابتسامة الرجل لوهلةٍ قبل أن يلاحظا المسدس الذي أخرجه تابعه ليضعه على رأس ماثيو الذي رفع يديه في استسلام و هو يلقي مسدسه أرضًا , حافظ الرجل على ابتسامته و هو يقول بصوت مُشجِّع :

" حسنًا فعلت ... من فضلك الآن فلتذهب لزملائك لتحضر لنا تلك الحقائب ... نريد أن نرحل "

نظر ماثيو فرأى الفزع في أعين هنري الذي أحكم قبضتيه على الحقائب , غمز له ماثيو بعينه دون أن يراه أحد ففهم أنه لا يزال في جعبته أمرٌ أخير , اقترب ماثيو بخطواتٍ بطيئةٍ و هو يرفع يديه للأعلى و لدهشتهم تحرك خلفه التابع الضخم و هو يحافظ على فوهة المسدس قريبةً من رأسه , وصل ماثيو أمامهما و أنزل يديه في خفّةٍ ليتناول الحقيبة بينما يده الأخرى تتسلل بخفة قطٍّ إلى صدره لتختطف بسرعة البرق مسدسًا صغيرًا كان قد أخفاه بعناية , رفع المسدس و هو يلتف بسرعةٍ ليواجه التابع الذي بادله النظرات للحظة , نظر ماثيو

إلى هنري و بهاء , ابتسامةٌ ساخرةٌ ترتسم على وجهه و هو يعدّل مسار مسدسه ليواجه رأس بهاء بينما التابع صوب فوهته إلى هنري ؛
تحدث ماثيو بصوتٍ مرح :

" سامحاني ! "

اتّسعت أعين بهاء و هنري في فزعٍ بينما تخلى هنري عن حقائبه و هو ينظر لماثيو بدهشةٍ مصحوبةٍ برجفةٍ خفيفةٍ من الانفعال , أخيرًا تحدث بهاء :

" أنت يا ماثيو ! "

"نعم أنا يا صغير"

تحدث هنري بصوتٍ أجشٍّ مكتوم :

" لماذا ؟؟ "

" لماذا !! ... أنا في خدمة القائد منذ عشرين عامًا ... عشرون عامًا أنا فيها ذراعه اليمنى و الآن يأتي فتًى لا نعلم أصله ليصبح ذراعه اليمنى و أنا مجرد تابعٍ له !! ... هل يرضيك الأمر ؟؟ ... بل هل يرضي أي شخصٍ طبيعيّ ... أُفني عمري في خدمة شخصٍ ما ليلقيني كمنديلٍ ورقيٍّ انتهى من استعماله ... شعورٌ سقيمٌ أن تشعر أنك بلا فائدةٍ في حياة شخصٍ ما "

احمرّ وجه بهاء و صاح بغضب :

" ربما لو أنك جيدٌ بما فيه الكفاية لما تم إلقاؤك تحت الأقدام "

صرخ ماثيو بغضبٍ و قد بدأت عيناه تدمعان من شدة ما يعتمل في نفسه :

" إحذر! إحذر أيها الوغد وراقب من منّا يحمل السلاح "

صمت بهاء في غضبٍ و هو لا يقوى على النطق بكلمة , وقف ماثيو مصوبًا مسدسه إلى رأس بهاء بينما أعطاه التابع المسدس الآخر ليصوبه لرأس هنري , حمل الحقيبتين و مشى ببطءٍ إلى سيده الجديد ليفتحهما أمامه , تأمل سيده النقود بشراهةٍ قبل أن يسأل ماثيو بصوتٍ عالٍ : " هل هذه كل ما يملك يا ماثيو ؟؟ "

" أجل يا سيدي "

تحدث هنري بتساؤل :

" و لكن لماذا ؟؟ لماذا تعرف عليّ "

" قائدكم ليس غبيًا عزيزي هنري ... لو أتى الأمر من ناحيتي أنا لشكّ في الأمر ... كان يجب أن يأتي الأمر من ناحيتك و لهذا جلست معك و اقترحت عليك أن تكون مسؤولًا عن الحقائب لدرء أيّ شبهةٍ تحوم حولي "

أعطاه القائد إشارةً فقال لهما بصوت منخفض :

" سامحاني "

مشى بظهره حتى وصل للرجلين و هو لا يزال يحافظ على فوهته مصوبةً لهما يطل منها شبح الموت الجائع لحصاد الأرواح , تحدث معه الرجلان بهمسٍ و هما يبتعدان لخطواتٍ للخلف , ابتسم ماثيو بمرارةٍ و هو يقول لهما بصوت عالٍ :

" آسف يا رفاق ... لقد صدر حكم الإعدام ".

*****

جلس شريفٌ في مكتب مدير المصحة يتأمل الفتاة التي تجلس أمامه بهدوء , عيناه تتفحصها برفق , يبحث عن إشارةٍ أو دلالةٍ تنبه لأمر غاب عنه , فتاةٌ شابّةٌ ثلاثينية , بيضاء الوجه , تنسحب منها أي آثارٍ للجمال ... ليست قبيحةً و لكنها لا تمتّ للجمال بصلة , يعتلي رأسَها حجابٌ بسيطٌ تمّ ربطه بطريقةٍ تبدو شعبيةً بعض الشيء , وجهها خالٍ من أي نوعٍ من أنواع مستحضرات التجميل , عينان زجاجيتان ترى فيهما سنوات الشقاء تمتزج جيدًا مع عمرٍ كاملٍ من الحزن, أنفٌ أفطسٌ و شفتان رفيعتان : أمسك بالأوراق الموضوعة على المكتب أمامه , قرأ منها بصوتٍ خافت :

" سنية ! ... أليس كذلك "

أجابته بصوتٍ خافتٍ و هي تحافظ على نظراتها أرضًا في خوفٍ منكسر:

" أجل ... أجل يا سيدي "

" أين كنتِ طوال هذه المدة يا سنية "

" موجودةٌ يا سيدي و أتابع أخبار الطفل من بعيد, و عندما علمت أنه عاد للمرة الثانية قررت أن آتي لاصطحابه "

" تتابعين أخباره ؟؟ كيف هذا ! "

نظرت لهما بأعينٍ زائغةٍ من القلق و هي لا تنتوي الإجابة , قالت بصوتٍ منخفض :

" سامحني سيدي ... لن أستطيع أن أجيب "

نظر لها شريف بغضبٍ و هو يطرق الزجاج براحته المفرودة بعنف , صدر صوتٌ كالقنبلة ارتجف له قلبها الصغير بين ضلوعها بينما صرخ شريف بغضبٍ وحشي :

" إنطقي "

" رباب ... رباب الممرضة جارتي و كنت أتتبع الأمر من خلالها "

نظر شريف لمدير المصحة لثوانٍ قبل أن يضغط مدير المصحة على زر الديكتافون الموجود في مكتبه , لحظاتٌ من صمتٍ قبل أن يأتي إليه

صوت سكرتيرته مغلّفًا بحزمةٍ معدنيةٍ جراء تحدثها عبر الجهاز :" أوامرك سيدي "

" رباب الممرضة ... موقوفةٌ عن العمل و محوّلةٌ للتحقيق "

" حسنًا يا سيدي "

ارتجفت الفتاة و بدأت دموعها تهطل على وجهها بينما خفَت صوتها و هي تنشج من بين دموعها :

" سيدي ... سيدي أرجوك "

أشار لها شريف بغضبٍ فتابعت :

" أنا من الفرع الفقير للعائلة ... أعمل كعاملةٍ في إحدى الحضانات الخاصة بالأطفال و بالطبع الفُتات الذي تلقيه لنا إدارة المدرسة لا يكفينا للعيش , مصابةٌ بنوع من السرطان ... أعتمد على فاعلي الخير ليوفروا لي كل حين ثمن جلسة العلاج الكيميائي الذي يساعدني على الاستمرار في رحلتي القميئة في مضمار الحياة العفن ... السيدة ميرفت أم الطفل كانت تساعدني من حينٍ لآخر ... رحمها الله و أسكنها فسيح جناته , هذا الطفل يا سيدي مريضٌ كطفلٍ يدعى صالح في مدرستنا و أنا أراقب احدى المعلمات و هي تعامله و أستطيع أن أتعامل معه ... أؤكد لك يا سيدي الطفل مريضٌ فقط و ليس ممسوسًا "

" الأوراق في هذا الملف تثبت أنك بالفعل من أقربائهم ... سأسألك سؤالًا واحدًا "

" تفضل يا سيدي "

" فتاةٌ لا تقوى على العيش ... كيف لها أن تتبنى طفلاً؟ "

" الأرزاق بيد الله "

" و نعم بالله و لتعلمي يا سيدتي أن إرث الطفل لن يُصرَف لك أبدًا حتى تثبتي أنك قادرةٌ على تحسين حالته كما تدّعين "

سألته بأعين تتسع دهشةً : " هل للطفل إرث ؟؟ "

أجابها بصوتٍ ملول : " أجل للطفل إرث و لن تريه حتى تثبتي أنك قادرةٌ على رعايته "

أجابها مدير المصحة بصوته الأجش :

" بعد إذنك سيد شريف ... ستخرجين إلى منصة الاستقبال لتتركي اسمك و عنوانك و بياناتك و تملئي استمارات الحصول على الطفل من المصحة , لن نسجّلها في النيابة الحسبية حتى نتأكد من عدم حدوث مشاكل مرةً أخرى , كل بياناتك اتركيها في الخارج , أُطلبي رقمي الشخصي من السكرتارية بالخارج كي نبقى على اتصال "

أجابته بصوتٍ مرتجف :

" حسنًا ... سأفعل كل هذا "

طاردها شريفٌ بنظراته بين خطواتها المتمهلة , رداؤها البسيط الذي يغلب عليه اللون الأسود يزيد أناقتها , ربما هي فتاةٌ ليست جميلة و لكنها تعلم جيدًا كيف تُظهر القلة القليلة الموجودة من جمالها , مشت حتى وصلت للطفل الذي يجلس على المنصة متأملًا الحائط في انفصالٍ تامّ عن الواقع , مدّت يدها في حقيبتها و عالجت سحابها لتفتحه في هدوء و هي تُخرج منها قاعدةً خشبيةً تحتوي على ثمان فتحات منحوتةٍ في قالبها ... مثلثان ، دائرتان ، مربعان و نجمتان , وضعتها أمامه و أخرجت من حقيبتها الأشكال التي تناسب تلك المنحوتات , وضعتها بهدوءٍ إلى جواره و رجعت خطوةً إلى الخلف , أدارت وجهها عنه وكأنها لا تتابعه و لكن كل ذرّةٍ في كيانها كانت تتابعه جيدًا , ربما لا تحمل شهادةً معتمدةً عن كيفية التعامل مع الطفل المتوحد و لكنها تعلم جيدًا كيف تعامله : بدأ الطفل ينتبه لما وضعته , تأمله بعينيه لوهلةٍ قبل أن يمدّ يدًا صغيرة يتفحص بها الأشكال في فضول , أمسك بأحد الأشكال و بلا أي اهتمام ألقاه أرضًا و قد بدا عليه الغضب , نظر بعيدًا و لكن الفضول غلبه فأمسك بثاني الأشكال ... دائرة , حاول وضعها في منحوتة المثلث فلم تناسبها , صرخ محتجًا في غضب و ألقاها أرضًا , حرك يديه حوله في غضب و هو يشيح بوجهه للجهة الأخرى , استمر على وضعه لمدة خمس دقائق ... يزوم في غضبٍ

حتى أدار وجهه ليتأمل باقي الأشكال , اقتربت منه بابتسامةٍ لطيفة , مدّت يدها إليه , تمنّع في بداية الأمر دافعًا جسده للابتعاد عنها ... مرّ وقتٌ قليلٌ قبل أن يُمسك بيدها في حرص و هو يجذبها لشكلٍ من الأشكال , تركت له يدها يحرّكها كما يشاء , وضع يدها بجوار النجمة و دفعها إليه فأمسكت بها بهدوء , ظهر الارتياح على وجهه و إن كان التوتر لا يزال حاضرًا بداخله و بقوة , حرك يدها التي تمسك بالشكل بهدوء و هو يتأمل الأشكال قبل أن يقرب يدها من منحوتة النجمة , وضعتها بحرصٍ لتناسب الشكل فاستكان الشكل بداخل منحوتته , صرخت في فرحةٍ كالأطفال الصغار و هي تصفق بيديها في جذلٍ مُقنع , احتضنته في حنانٍ دافنةً إيّاه في صدرها ليعلن عن احتجاجه و يدفعها بعيدًا بيديه الصغيرتين مزمجرًا في غضب , حاولت أن تقترب منه مرةً أخرى إلا أنه رفض و زمجر بغضبٍ دافعًا يديه إليها ليبعدها , أخرجت من حقيبتها قطعةً صغيرةً من الشيكولاتة و فضت غلافها برفق و هي تقرّبها من فمه , تمنّع أول الأمر قبل أن تنفرج شفتاه و تطعمه إياها ليمضغها في شهيةٍ و علامات الفرح تبدو عليه , للمرة الثانية أمسك بيدها برفقٍ حذر و دفعها نحو دائرةٍ مستكينة على المنصة فأمسكتها برفق , قرّب يدها من مكان المربع فتصلبت يدها , حاول لبعض الوقت و لكن يدها لم تتحرك فقرّر الذهاب للنجمة فواجهه نفس الأمر , زفر في احتجاجٍ طفولي قبل أن يقرر أن يجرب حظه مع الشكل القادم لحسن حظه كانت الدائرة فتلاقى الشكل و المنحوتة في عناقٍ خشبيٍّ حارّ , صرخت للمرة الثانية في جذلٍ و هي تحتضنه ... للمرة الثانية

يبعدها عنه بعنف و هو يصرخ و إن كانت مقاومته قد قلّت بعض الشيء , خفتت مقاومته هذه المرة في انتظار مفاجئته الشهية , انتهت من محاولة عناقه و أخرجت له قطعة الشيكولاتة الثانية ... أكلها بسرعةٍ ملوّثًا أسنانه الصغيرة بها مما أضفى عليه لمحة طفولةٍ للمرة الأولى في أعين شريفٍ الذي كان يراقب الأمر من بعيد ... التفت شريف إلى مدير المصحة و هو يقول في إعجاب :

" إنها جيدة "

أجابه مدير المصحة في بطء :

" أعترف لها بهذا الأمر... إنها المرّة الأولى التي يُظهر بها الطفل تجاوبًا مع أي شخص "

عاد شريف بنظراته يتابعها و هي تضع شكلًا ثالثًا في مكانه و تصفق و هي تحاول أن تحتضنه رغم رفضه و مقاومته لها , احتضنته برفقٍ و لكنها في تلك المرة حملته و هو مدفونٌ في أحضانها . قاومها و دفع جسدها بيديه و هو يزمجر في غضبٍ قبل أن يتأكد أنها لن تتركه فعمد إلى طريقةٍ أخرى , رمى جسده بقوة محاولًا السقوط أرضًا , فوجئت سنية و حاولت أن ترفع جسده برغم الآلام القوية التي هاجمت يدها نتيجةً لتلك الحركة المفاجئة , تمالكت نفسها قبل أن تتوقف و تشير لشريف مودّعةً و هي تمضي آخر الأوراق بسرعةٍ , قبل أن تخرج شعرت بيدِه تطوّق عنقها و كأنه يحتضنها ... دام الأمر للحظاتٍ قليلة , نظرت

نحوه فهرب بعينيه بعيدًا و لكنه بالتأكيد شعر بدقات قلبها و هي تخفق في عنف.

*****

دلفت سنية إلى شقتها و هي تحمله بهدوءٍ على الرغم من محاولته المستمرة في دفعها بعيدًا عن جسده و محاولاتٍ مستمرةٍ لإسقاط نفسه أرضًا للهروب منها , في فضولٍ تأمّل الموجودات في الشقة و قد هدأ قليلًا , شقةٌ صغيرة الحجم فقيرة التأثيث و لكنها بالتأكيد تنمّ عن ذوقٍ رفيعٍ حتى في اختيار الأثاث الفقير القليل الذي يقبع في الشقة في تكاسل , أغلقت باب الشقة في رفقٍ و هي تُنزله أرضًا , أمامه كانت الأرضية منقسمة إلى قسمين , قسم منهم يحتوي على ست علبٍ كرتونيةٍ مختلفة الأحجام تتراصّ في انتظامٍ من الأصغر للأكبر , أما القسم الآخر فكان به عشرات السيارات التي تتوقف بجانب بعضها البعض في نظام , وقف يتأمل القسمين في حيرة , قررت أن تقطع حيرته و أن تقرر له اختياره , مشت ببطءٍ ناحية السيارات و ما إن اقتربت منها حتى تظاهرت أنها فقدت اتزانها و نتيجةً لهذا تعثّرت فركلت السيارات ليتشتت جمعهم و تتبعثر في كل اتجاه , سمعت صرخةً غاضبةً منه قبل أن ترحل لتختبئ خلف ستارٍ طويلٍ و تراقبه , اقترب من السيارات المبعثرة في توتر و هو يتلفت و ينظر لها ... نظر بغضبٍ إلى مكانها الذي تختبئ فيه قبل أن يجلس في وسط السيارات و هو يبدأ في تنظيمها على شكل دائرةٍ هو مركزها في انتظام و كأنها دائرةٌ هندسية

الشكل , لم ينسَ أن يحافظ على دقّتها الجمالية فوضع كل لونٍ بجوار الآخر ليكوّن دائرةً بهيّة الشكل , وقف و هو يصرخ بصوتٍ عالٍ فخرجت له متسائلةً لتجده يجلس في منتصف الدائرة و يضع يديه على أذنيه و يهتز للأمام و للخلف , حملته و هي تحتضنه و تقبّله في حنان , حملته و وضعته أمام المرآة , أشارت له إلى انعكاس صورته و قالت له :

" أنا أُقبلني "

نظر لانعكاس صورته لبرهةٍ بهدوء قبل أن يضمّ شفتيه و هو يبعث بقبلةٍ صغيرةٍ إلى نفسه , صفّقت مرةً أخرى و هي تحتضنه و تقول له :

" أنا جميل "

دفن وجهه في صدرها بحنان و هو يتعلق بها بيديه , وضعته بجوار العلب الكرتونية و قالت له بهدوءٍ و هي تجلس بجواره :

" أنا أرتبها "

جلس بجوار أكبرها قبل أن يقرر أن يصعد إليه و يجلس داخله و هو يضحك في مرح , ضحكت و هي تحمله و تقول له :

" أنا مرحٌ أيضًا ... من الجيد أن نعرف هذا "

وضعته بجوار العلب و تركته لبرهةٍ فحمل أصغرها و هو يخفيه بداخل الأكبر منه و هكذا حتى وضعهم جميعًا بالترتيب بداخل بعضهم البعض

, حملته و هي تحتضنه بحنانٍ و تقول له بصوت متفاجئ و كأنها طفلةٌ صغيرة تكتشف معه الحياة :

" حتمًا أنا جائع ! "

تركته أرضًا و دخلت إلى المطبخ لتعدّ له الطعام و عندما خرجت كان قد وضع الصناديق الورقية بداخل الدائرة التي كونها , حملته برفقٍ و هي تضعه على المائدة و تضع طعامه بجواره :

" أنا سآكل "

نظر للطعام لبرهةٍ قبل أن يمدّ يده إلى الطبق الزجاجي و يحمل بعضه ليلقيه أرضًا بغضب , قالت بصوتٍ حزين :

" أنا سيء "

تعمّدت أن تُظهر علامات الغضب على وجهها فشعر بالخجل قليلًا و إن كان لم ينظر لها بعد , حمل قطعةً أخرى من الطعام و أكلها برفق , شجّعته قائلة :

" أنا جيد , أنا جيدٌ جدًا "

استمرّ في الأكل ملوثًا ملابسه و وجهه قبل أن ينتهي , حملته بحنوٍّ و هي تقول :

" أنا متسخ "

كانت تتعمد الحديث معه بالإشارة على نفسه بالضمير الأول , أرادته أن يعرف نفسه أولًا و منها سيعرف الباقين و سيبدأ بقليلٍ من الجهد و التعب و مع كثير من الحبّ و المعاملة الجيدة سيتمكن من أن يخرج من دائرته المغلقة لدائرةٍ مغلقةٍ أخرى و لكنها أكبر بعض الشيء كما أنها ستحتوي على بعض الأفراد , ستساعده على الخروج من دائرة الذاتوية ؛ انتهت من تحميمه و إلباسه ملابس جديدة و هي تضعه في فراشٍ صغير فتظاهر باللعب بالغطاء فتركته و ذهبت و هي تهمس له :

" أنا لن أكون ذاتويًا قريبًا "

أغلقت زر الإضاءة و هي ترحل في هدوء و تفكر و هي تنام في سريرها بالطفل , تجهز له في خيالها خطةً محكمةً تعلّمتها بمجهودٍ ذاتي و قراءاتٍ متعدّدةٍ عن التوحد , مقتنعةً تمامًا أن الطريقة الأفضل هي طريقة الحب و التقرب و التودّد و ليست طرق الإجبار و القسوة , ستخرجه من تلك الدائرة المغلقة إن شاء الله , كان هذا هدفها القادم و الذي أصرّت على أن تحققه بشدّة ... أغلقت عينيها و سبحت في نهر النوم الهانئ مسترخيةً تمامًا .

*****

حاول هنري استجداء ماثيو بحق صداقتهما و شراكتهما في العديد من الأعمال إلا أنه يبدو أن الخيانة من العوامل التي تحوّل القلب لجلمود صخرٍ لا يعرف معنى المشاعر , دمعت عينا هنري و هو يضع يده على شعره في غضبٍ و يصرخ بصوت عالٍ :

" أنا !! أنا أفنيت عمري في صداقتك ... و أنت الآن تركل صداقتي و كأنها قذارةٌ لتنظفها بقليل من المال !! ... أوراق ملونة ماثيو ... أوراق ملونة هي قيمة أخوتنا ؟؟ ألا تتذكر كم مرةً أنقذت حياتك ؟؟ كم مرةً داريت عنك و واريت أخطائك , كم مرةً أيها الوغد قمتُ بمسؤولياتك و نظّفت أعمالك القذرة , و في النهاية ستقتلني برصاصةٍ معدنية قذرة ... أتعرف الفارق بينك و بينها ... عندما تخترق تلك الرصاصة قلبي سأشعر بها ساخنةً و لكن أنت ... أنت أيها الأحمق لا تعرف سوى البرود "

هزّ ماثيو كتفيه في عدم إهتمامٍ و قد ظهر عليه عدم التأثر بحديث هنري على الإطلاق :

" طلبتُ منك السماح و لكن يبدو أن قلبك أسودٌ مثل وجهك "

أنهى جملته مقهقهًا بعنفٍ و هو يتأمل القائد و مساعده و هما يبتعدان ببطءٍ عن عتاب الأصدقاء , نظر ماثيو إلى بهاء و هو يقول :

" و أنت أيها الوغد الصغير... ألن تلقي عليّ محاضرة ؟؟ "

هز بهاء كتفيه و مطّ شفته السفلى في عدم اكتراث و هو يقول :

" و لماذا ألقي عليك محاضرةً في آخر دقائق حياتك ؟ "

أجابه ماثيو بتهكم :

" أوه يا صغيري ... يبدو أن والدك نسي أن يعلمك الضمائر قبل أن يلقيك في الشارع كالقمامة "

ابتسم بهاء بسخريةٍ و هو يقول له هل سمعت من قبل عن :

" انتقام الظل (شادو ريفينج) ؟ "

قبل أن يتمّ بهاء تساؤله سمع الجميع صوت زمجرة غضبٍ استمرت للحظةٍ قبل أن ينطلق شادو بقوة و سرعة كالسهم من بين أجسادهما , تفاجأ ماثيو و تسمّر مكانه للحظةٍ قبل أن ينتفض جسده في محاولةٍ منه للافاقة قبل أن يداهمه شيطان الظلال الذي يهاجمه بعنفٍ لا مثيل له , تأمّل الكائن الذي يقترب منه و عيناه تُشِعان غضبًا يصبّ حممه النارية على جسد ماثيو , شفتاه المنفرجتان عن صفين من الأسنان الحادّة التي تلتمع تحت الضوء الصناعي و كأنها صيحات الشياطين , لعابه يسيل في شراهةٍ و هو يمَنّي نفسه بوجبةٍ جاهزة ... شادو ... شيطان الظلال اللعين , الكلب الشرس الخاص ببهاء و ها هو الآن يدافع عن سيده الصغير , حاول ماثيو أن يصوّب فوهة مسدسه إلى شادو و هو يضغط الزناد بسرعةٍ لتنطلق الرصاصة من رحم

المسدس المعدني , أصابت الرصاصة جسد شادو الذي لم يتوقف و إنما زأر في عنفٍ خلع قلب بهاء نفسه قبل أن يخلع قلوب الباقيين , سيلٌ من الدماء اندفع بقوةٍ من إصابته التي لم توقفه , رمى جسده على ماثيو ليثبته أرضًا تحته و هو يلهث بعنفٍ ناتج عن إصابته القوية , لاحظ ماثيو أن شادو يترنح فحاول استغلال الفرصة , مد يده ليدفعه بعيدًا عنه فتناولها شادو بين فكيه الحديديين و قبض عليها بأسنانٍ من جحيمٍ لا يَرحم , شعر ماثيو بآلامٍ لا توصف تهاجم يده و تهاجم معصمه , حاول جذب يده بقوةٍ من بين أسنان شادو إلا أن شادو لم يكن على استعدادٍ للتخلي عنه الآن ... أخيرًا تركه شادو , تأمّل كفّه الذي يخاصم معصمه و على وشك فراقه , أمسك بيده و هو يطلق سبّةً غاضبةً بصوتٍ عالٍ قبل أن يرفع عينيه ليتأمل بهاء و هنري , كان بهاء منكفئاً أرضًا محاولًا أن يداوي جراح شادو أو يطيّبها و لو بكلماتٍ رقيقة , نبح شادو في عنفٍ و هو يغمض عينيه للمرة الأخيرة ... تساقطت دموع بهاء بغزارةٍ على فرائه الملطّخ بالدماء قبل أن يصرخ بغضبٍ و هو ينتصب و يقف باعتدالٍ و يصوّب المسدس الذي لا يزال ملطخًا بلعاب شادو و يرفعه أمامه ليصوّبه إلى رأس ماثيو صارخًا بغضبٍ و بصوتٍ متقطّعٍ نتيجةً للغضب العارم :

" لقد ... قتلت ... رفيقي ... الوحيد "

ما بين كفٍّ يطمح بمغادرة معصمه و آلامٍ حادّةٍ تهاجم جسده رفع ماثيو يديه ببطءٍ و هو يحاول أن يطمئن بهاء بصوتٍ خافت :

" إهدأ يا صغيري ... إهدأ ... إنه مجرد حيوان أليف "

رصاصةٌ انطلقت بغضبٍ ممتزج بغضب بهاء قادتها روح شادو لتنطلق بسرعةٍ و تحطّم ركبة ماثيو اليمنى ... صرخ ماثيو بألمٍ و تراجع هنري خطوتين للخلف و هو ينظر لبهاء متعجبًا , بهاء الذي سيطر الغضب عليه و تلبّسه بالكامل ليُحيل ملامحه لوجهٍ يحترق بناره , كل مشاعره الأخرى انزوت في ركنٍ مظلم ترتعد أمام المارد الذي حضر , و في حضرة سيدهم " الغضب " يصمت الجميع و يتوارى العقل خجلًا ؛ ركع ماثيو على ركبته و هو يمسك الأخرى بألم و ينظر لبهاء الذي صرخ بعنف :

" شادو حيوان !! و أنت ؟؟ إنسان !! هل تظن هذا ؟ "

سمع بهاء صوت إطارات السيارة تصرخ بعنفٍ و هي تبتعد محملةً بالنقود مصحوبةً بأحلامهم و آمالهم , نظر بهاء لهنري و قال له بصوتٍ يغلي غضبًا :

" هل تقتله أنت و تكون رحيمًا معه ... أم أقتله أنا ؟؟ "

تراجع هنري للخلف و هو يشير بيديه دلالةً على رفضه , تقدم بهاء من ماثيو الذي بدأ يحاول الهرب و هو يتقافز عدّة قفزاتٍ على قدمه السليمة قبل أن تقرر أن تخونه ليسقط أرضًا , اعتدل على ظهره و واصل الزحف ببطءٍ على الأرض و هو يبكي و يستعطف بهاء الذي وضع الشيطان أصابعه في أذنيه فأصبح لا يسمع إلا صوت الغضب فحسب

: أدار هنري رأسه للناحية الأخرى و وضع يديه على أذنيه و أغمض عينيه بشدة فلم ير الدماء و شطايا المخ التي تناثرت بعد انفجار رأس ماثيو , لم يشعر سوى ببهاءٍ الذي وضع يديه على كتفه و هو يبتسم بوجهٍ ملطّخٍ بالدماء , كانت ابتسامته غريبةً للغاية و تحمل معانٍ و رسائل كثيرة تجاهلها هنري و هما يمشيان بجوار بعضهما البعض في رحلةٍ اقترب خط نهايتها ... للغاية !!

*****

فتحت عينيها في الصباح بهدوء لتتأمل مروحة السقف الساكنة فوقها , أزاحت الدّثار من على جسدها ليلطمها الهواء البارد لطمةً كانت كفيلةً بإيقاظها بعض الشيء , تركت جسدها يسترخي بينما تتسلل الأفكار النائمة من بين أسرّتها و هي تملأ تلافيف مخها المستيقظ , بدأت تفكّر في البرنامج البسيط الذي وضعته للطفل لكي يتحسن , بدأت تفكر في عقبة اللمس التي تغلبت عليها ... لم يعد ينزعج منها , أصبحت تحمله و تحتضنه شيئًا فشيئًا , قلّت مقاومته لها و أصبحت معدومة , أصبح يُصدر صوتًا سعيدًا عندما تقترب منه , يصفّق معها و يفرح معها أثناء لهوهما , عقبة التواصل البصري لا تزال الأصعب : تعرف جيدًا أنه سمح لها بدخول دائرته المغلقة و لكن هذا ليس أقصى طموحها , كانت تطمح لأن تتسع دائرته المغلقة لبعض الأشخاص , أن يسمح لأكثر من شخصٍ بدخولها , بالطبع لا تستطيع التأكد لأنه طوال الأسبوع الماضي – و الذي استغلت أجازتها من العمل فيه – كانت

تعمل معه طبقًا لبرنامجٍ تأهيليٍّ شهيرٍ و إن طوّرته هي بإضافة الحب و الحنان إليه , كانت تثق تمام الثّقة أن العطف و المعاملة الحسنة هي العنصر المفقود , حلقة الوصل بين المرض و علاجه ... عدّة أنواعٍ من الحميات سمعت عنها , سمعت عن وجوب عمل بعض الفحوصات و التحاليل لمعرفة أنواع الحساسية التي يعاني منها الطفل و معرفة أنواع الطعام التي تسبب تهيّج الجهاز المناعي , تجنب الأكل المعلب و الألوان الصناعية و الحلوى و المواد الحافظة , و من ثُم تأتي مرحلة تعويض النقص في الفيتامينات و المعادن في جسم الطفل عن طريق الأكل الصحي و يفضل العضوي , بعدها يأتي دور المكمّلات الغذائية و بالطبع لن تعطيه المكملات قبل أن تقوم بعمل الفحوصات لنسب الفيتامينات و المعادن في جسده , عند الوصول لتلك المرحلة يكون الطفل على أتمّ استعدادٍ للبدء في برنامجه التعليمي و التدريبي , لكنها للأسف لا تملك إلا قوت يومها و بالكاد !

فمن أين لها بكل تلك النقود التي تكفي سلسلة الاختبارات و الفحوصات و الأدوية و العلاجات و المكملات الغذائية , كان الأمر صعبًا عليها ماديًا و شاقًا عليها نفسيًا ؛ انصرفت بتفكيرها لأمرٍ آخر ... سمعت عن حميةٍ تتم بعشبةٍ اسمها عشبة الجينكو بيلوبا (Ginkgo biloba) و التي تدعى أيضًا بكزبرة البئر و الشهيرة عالميًا بعشبة الذكاء .

لكنها بقليل من البحث على الشبكة العنكبوتية اكتشفت دراسةً علميةً حديثةً أجراها باحثون من جامعة هيرتفوردشاير البريطانية

أشارت إلى أن استخدام تلك المكملات الغذائية لا يحسّن من الذاكرة أو التركيز كما يُعتقد , و أن مستحضرات الجنكة ليس لديها أى تأثير ايجابيٍّ يذكر على التحسين من وظائف الإدراك، وذلك مهما اختلفت الجرعة أو المدة التى خضع فيها الأشخاص الأصحاء للعلاج , وأنها تعتبر مضيعةً للمال والوقت : وجاءت هذه النتائج فى دراسةٍ حديثةٍ نُشرت بدورية

Human Psychopharmacology Clinical and Experimental

على الموقع الإلكترونى للدورية , وشملت أكثر من ألف شخصٍ من مختلف الأعمار , لذلك أيضًا صرفت النظر عن ذلك الأمر.

اعتدلت على فراشها و هي تتثاءب بقوة , ابتسمت و وضعت قدميها في حذاءٍ فرويٍّ صغيرٍ كان يرقد ناعسًا تحت الفراش فوق الأرضية الباردة , بخطواتٍ متثاقلةٍ توجهت للحمام , نظرت لوجهها بالمرآة قبل أن تبتسم و هي تلقي قبلةً على نفسها و تهذّب شعرها بيديها , و هي تغسل وجهها , قبّلتها المياه الباردة فطردت آثار النوم عن قسماتها , جففت وجهها قبل أن تخرج للصالة لتتأمل فراش الصغير ؛ انعقد حاجباها في عنف , شعرت كما لو أن هناك فجوةٌ في صدرها , دقات قلبها تتزايد , شعرت بالعرق البارد يجتاح جسدها كطوفان , القلق و الحيرة يأسران قلبها المرتجف ... الطفل لم يكن هناك ... الفراش خالٍ ... الغِطاء الصغير ملقًى أرضًا ... هناك ورقةٌ ما في الفراش ... و لكن لا أثر للطفل ... لا يوجد أيّ أثرٍ للطفل , اندفعت بسرعةٍ و قلبها يخفق بعنف لتمسك بتلك الورقة بين يديها , كانت الورقة لا تحتوي سوى على رقم

هاتفٍ أرضي , و كلمتين فقط مكتوبتين بخطٍّ حسنٍ و لكن على استعجال:

" الطفل هناك "

جرت بسرعة إلى هاتفها الذي يقبع على منضدةٍ خشبيةٍ مستديرةٍ بسيطة الشكل , رفعت السماعة في خِضَمِّ ارتباكها ففزع الهاتف من حركتها المفاجئة و سقط أرضًا , أعادته مكانه و هي تطرق أرقامه بأيادٍ ترتجف قلقًا , استمعت لصوت الرّنين للحظاتٍ قبل أن تُرفع السماعة من الطرف الآخر , صمتت للحظات تستمع للطرف الآخر يناديها و هي لا تعلم ماذا ستخبره !!

أخيرًا استجمعت شتات نفسها و قالت بصوتٍ مرتجف :

" هناك ... هناك طفلٌ تائه مني و أخبروني أنه عندكم "

سمعت ضحكةً صاخبةً من الطرف الآخر قبل أن يأتيها صوت أنثى ترد بدلال :

" نعم ... موجود ... هل تريدين أن تكلّميه ؟؟ "

عاصفةٌ من الضحك الصاخب انفجرت حولها , كظمت غيظها و لم ترد و هي تتساءل بخوف :

" هل لي أن أعرف العنوان ؟ "

صمتت قليلًا قبل أن تستكمل :

" من فضلك ! "

بيدين مرتجفتين التقطت قطعةً من الورق الأبيض كانت تقبع بجوار الهاتف , بحثت بيدها عن قلمٍ فلم تجد , لمحته يقبع متكاسلًا على المنضدة , قامت بحرصٍ و مالت بجسدها محافظةً على السماعة على أذنها كيلا تفقد همسةً من الهمسات , كانت تعلم أن الخبر لو تسرّب للرائد فستكون كارثةً و ربما يحاكمها بتهمة الإهمال , هزّت رأسها بقوةٍ و هي تلتقط القلم كما لو أنها تطرد الأفكار السيئة من رأسها , سمعت صوت الفتاة المعجون بالغنج يمليها العنوان كتبته على استعجال و ذهبت إلى غرفتها و أغلقت الباب للحظات ارتدت فيهم عباءةً سوداء خالية من أي تطريزٍ أو نقوش , غطاء شعرٍ لفته على رأسها بسرعة و التقمت في قدميها حذاءً أسودًا و خرجت تجري , على درجات السلم تذكّرت أن مفتاحها بالداخل و لكنها لم تهتم ... عند العودة سيحلها الله ... المهم الآن سلامة الطفل : خرجت للنور و لكن بداخلها ينمو ظلام الخوف و الرّهبة , أشارت لسائق سيارة أجرةٍ رفض التوقف , هدّأ من سرعته ليسمع ندائها بالمكان المنشود قبل أن يهز رأسه رافضًا متجهًا للقهوة التي يجلس عليها ليشكو قلة الرّزق بينما يرفض الذهاب معها , سيارة أجرةٍ أخرى هربت من أمامها أما الثالثة فرقّ لها قلب صاحبها فتوقف لها و استمع للعنوان و هزّ رأسه متفهمًا , ركبت السيارة و بمجرد إغلاق بابها صرخت إطاراتها في عنفٍ و هي تتجه للمكان المنشود .

*****

صعدت السلم بسرعةٍ و هي تنظر في الورقة للمرة الألف , تتأكد من العنوان ... الشارع ... رقم المنزل ... الدور و رقم الشقة , تجاهلت نظرة حارس العقار لها و هي تسأله عن تلك الشقة , وصت للدور أخيرًا , دارت ببصرها على الشقق الثلاث التي تحتل الطابق , اتجهت للشقة المنشودة و وقفت للحظةٍ في حيرةٍ من أمرها بين أن تطرق الباب أو تدق جرسه , حسمت أمرها فوضعت إصبعها على زر التنبيه و لم ترفعه إلا حينما واجهها وجهٌ عابسٌ لفتاةٍ عشرينيةٍ مبهرجةٍ كما لو أنها مهرجٌ يؤدي فقرته , سألتها بصوتٍ يرتجف هلعًا :

" هل الطفل هنا ؟؟ "

ابتسمت الفتاة و هي تجيب بدلال :

" الأطفال لا مكان لهم هنا "

ضحكةٌ أنثويةٌ فجّةٌ اندلعت من بين شفتيها لتملأ فضاء الطابق , تلفّتت سنية حولها في خوف قبل أن تسمع صوت الدلفل يصرخ من الداخل , اندفعت للداخل كالصاروخ بلا تفكير , وجدت الطفل يجلس على منضدةٍ صغيرةٍ وسط غرفةٍ كانت مغلقة و صوت الموسيقى العالي يضايقه فيصرخ و يبكي ... وجدته يبكي ... بكى حتى احمرّ وجهه و تقيّأ من شدة الحزن , وجهه ملطخٌ بمستحضراتٍ تجميليةٍ أذابتها دموعه و من حوله فتاةٌ تتمايل بخلاعةٍ على أنغام أغنيةٍ شعبيةٍ مسِفّة , نظرت له بغضب , فكّرت بسرعةٍ عن مدي تأثير هذا الأمر على نفسيته و مدى

التحسن الذي سيضيع بفضل غبائهن , نظرت حولها في غضب , رأت المسجل الموصل بعدة سماعاتٍ تتناثر في أرجاء الغرفة , مشت إليه في غضبٍ و أغلقته بعنف , تسمّر الجميع و سادَ الصمت و حلّ الغضب محل روحها بداخلها , نظرت لهنّ و هي تفكر في كلماتٍ تنطقها , خانها الكلام و هرب لسانها منها فصرخت , حملت الطفل الذي صرخ بعنفٍ قبل أن يفتح عينيه المثقلتين بهمٍّ دفين , فهم أنها تحمله , حاول دفعها بغضبٍ و كأنه يلومها على تقصيرها ... أخرجت منديلًا و مسحت له وجهه , أخذت تهمس له بكلماتٍ علّها تنال ثقته و رضاءه , استمرّ في محاولة إلقاء جسده أرضًا إلا أنها احتضنته بقوّة , استكان في صدرها أخيرًا و إن كان ينهنه في حزن , شعرت كما لو أن ماردًا خفيًا سحق قلبها ... لم تعرف أيهما يؤلمها أكثر ... قلبها أم نفسها التي ترك فيها مظهره هكذا شرخًا عميقًا لن يلتئم بسهولة , استكان أخيرًا و هي تتأمل الموجودات حولها , يتأملنها بفضولٍ غاضب ... حيرةٍ خائفة ... أحاسيس مضطربة تضطرم بداخلهن , أخيرًا نطقت إحداهن بصوتٍ غاضبٍ و إن لم يخلو من خلاعةٍ أصبحت عادة :

" من أنتِ ؟؟ "

أجابتها سنية بقوةٍ حازمة :

" أنا المسؤولة عن هذا الطفل "

" هل تعلمين كيف أتى هنا ؟ "

أجابتها بتردد :

" لا ... و إن كنت أطمح لمعرفة كيفية وصوله لكن !! "

أجابتها الفتاة بلا مبالاة :

" أمام الشقة ! "

" لا أفهم ؟؟ "

" وجدناه أمام الشقة مع وريقةٍ بداخله تخبرنا بأنكِ ستأتين "

سألتها سنية بلهفةٍ ممزوجةٍ بتوتر :

" وريقة !! ... هل لي لي أن أراها "

مدّت يدها إلى صدرها و أخرجت وريقةً مشبعةً بالعرق . أمسكتها سنية بطرف إصبعها باشمئزاز , فردتها على تعجلٍ و راقبتها بلهفة ... نفس الخطّ الذي وجدت الوريقة في منزلها مكتوبةً به , نظرت نحوها بأعينٍ زائغةٍ و سألتها:

" هل تحتاجين تلك الوريقة ؟؟ "

" لا بالطبع "

" هل من الممكن أن أرحل ؟ "

" تستطيعين أن ترحلي بالطبع ... نحن حرفيًا ننتظر رحيلك بفارغ الصبر"

" حسنًا ... أشكركن "

" أغربي عن وجوهنا ... الآن "

نظرت لها نظرةً خاويةً بوجهٍ لا يحمل أي مشاعر أو تعبيرات قبل أن تُحكِم احتضانها للطفل , خرجت من الغرفة تتجه لباب الشقة ؛ بمجرد أن خرجت سُمِع صوت الموسيقى تصدح و الفتيات يضحكن بخلاعة , كما سمعت صوت رجلٍ من داخل الشقة يسعل بقوةٍ متبوعةٍ بضحكةٍ خشنة , تجاهلت كل هذا و تنهّدت , نوَت أن تخبر شريف بكل ما حدث و أملها كبيرٌ في أنه سيسمح لها بالاحتفاظ بالطفل عندما يرى تحسّنه و صراحتها في قصّ الأمر عليه , فتحت الباب و نظرت للخلف تلقي عليهم نظرة احتقارٍ أخيرة قبل أن تلتفت لتجد فوهة مسدسٍ رسميّةٍ و من خلفها يظهر شابٌ وسيمٌ بشاربٍ منمّقٍ يرتدي بذةً رسميةً تلتمع على أكتافها ثلاث نجومٍ في هدوء ... تلتمع النجوم في سماء الشرطة و بالتحديد في نطاق شرطة الآداب !!!! .

*****

وقف بهاء و هنري أمام الباب المعدني للمخزن , يتأمل كل منهما البخار المتصاعد من أنفاس الآخر و قد فُرض الصمت عليهم . لم ينطق أيهما

احترامًا لهيبته, لم يعرفا هل رجفة أجسادهما كانت نتاجًا لدرجة الحرارة المنخفضة أم خوفًا من القادم ؛ تنهّد بهاء و هو يشير لهنري كي يتقدما سويًا , بمجرد أن شعر بهما القائد حتى انتفض جسده , ترك كأس من الخمر كانت محتوياته ترقص انتشاءً بين شفتيه و سعل بقوةٍ و هو يقوم مبتسمًا فاتح يديه إليهما قبل أن ينعقد حاجباه و يفرّ الفرح من عينيه و هو يضع ذيله بين أسنانه سامحًا للتجهم و الغضب بامتلاك المكان , أغلق يديه و تركهما يسقطان بجواره و هو يتأملهما , أغلق عينيه لدقيقةٍ و هو يضع يديه على رأسه قبل أن يفتح عينيه و يسألِ بهاء بخوف من يعرف الإجابات مسبقًا :

" فشلتم ؟ "

تحدث بهاء بصوتٍ مختنق :

" غُدر بنا ! "

أجابه في ثورةٍ تنحني أمامها مسلمات الحياة :

" النتيجة واحدةٌ و الأمران سواء "

أجابه بهاء بتحدي :

" نحن لا نفشل ... للمرة الثانية أكرر ... لقد غُدر بنا "

للحظةٍ صمت القائد مفكّرًا في إجابة, متأملًا هنري المرتجف قبل أن يستوعب الأمر ليتساءل باندهاش :

" أين ماثيو !؟ "

صمت هنري متأمّلًا بهاء الذي احمرّ وجهه عندما تذكر:

" قُتل "

صُعق القائد و اتّسعت عيناه و برز بؤبؤهما يدور في محورهما بدهشةٍ و هو يسأل :

" و من قتله ؟؟ "

رفع هنري يده مشيرًا لبهاء الذي بادله النظرات بنظرةٍ سطحيةٍ لا مشاعر فيها قبل أن يدير وجهه للقائد :

" أنا قتلته "

" لِمَ !! "

" الخائن جزاؤه القتل ... فالخائن لا يُرحم "

" خاننا ؟ "

" باعنا و استحق نهايته التعيسة "

" ضاعت النقود ؟ "

" ضاع الحلم و الأمل أيها القائد "

" انتهى الأمر ؟ "

" و انتهى عمر شادو "

سمع صوت ارتطام جسد القائد بالكرسي بعد أن تهاوى عليه بغير تصديق , هزّ رأسه بعنف و كأنه يتأكد من أنه ليس مخموراً ... أطارت الصدمة الخمور بكل أثر لها , سمع صوت هنري يأتي من خلفه :

" كدنا نموت لولا جسارة بهاء "

هزّ بهاء رأسه صامتًا و عيناه تدمعان و صوته يختنق :

" كدنا نُقتل لولا تضحية شادو "

رفع القائد رأسه في دهشةٍ متأمّلًا ملامح بهاء و نظرته تغوص في بحار عدم التصديق :

" انتهى الأمر و ضاع الحلم و فقدنا كل نقودنا و أنت تفكر في كلب !! "

تبدّلت ملامح بهاءٍ و هو يُخرج مسدسه من جيبه و يطلق النار على كتف هنري صارخًا بعنف :

" شادو صديقي ... أما هذا فهو كلب "

صُعق القائد للتغير المفاجئ بينما سقط هنري أرضًا و هو يُمسِك كتفه متأمّلًا الدماء التي تسيل منه و هو يصرخ في بكاءٍ مندهش , وقف القائد بينما أمَال بهاء رأسه بزاوية خمسة و أربعين درجة و هو يتأمله بصمتٍ مبتسمًا ابتسامةً مخيفةً و قد قارب ضوء عينيه من أن يخبو , تراجع القائد للخلف و تعثّر في الكرسي فسقط على ظهره قبل أن يتحرك , كان بهاء يتأمّله من زاويةٍ علويةٍ محافظًا على ذات الابتسامة التي تُجمِّد الدم في العروق ؛ رمى له حبلًا غليظًا لم يعرف من أين أتى به و أشار بفوهة المسدس دون أن يرمش إلى هنري , زحف القائد حتى وصل لهنري و أحكم ربط وثاقه , نظر لبهاء متجاهلًا آنات ألم منبثقة من بين شفتي هنري , اتسعت ابتسامته و عيناه تتسعان بطريقةٍ أثارت فزع القائد , وضع المسدس على المنضدة و تناول طرف الحبل و أحكم وثاقه هو الآخر و أسجاهما بجوار بعضهما البعض , رقدا في استسلامٍ و بهاء ينظر لهما بلا أي ردّ فعل ؛ مرّت دقيقةٌ قبل أن يتحرك بهاء مندفعًا للقبو في حركاتٍ بطيئة , لحظاتٌ مرّت و ظهر بهاء مرةً أخرى على باب القبو ممسكًا بالمشرط , كانت هناك نقاط دماءٍ تظهر على المشرط مانعةً انعكاس الضوء , ابتسم بهاء و هو يضع المشرط في فمه و يعلّق شفتيه عليه لاعقًا إياه متجاهلًا كل قوانين المنطق , مشى إليه و هو يبتسم بقوة , حاول القائد أن يتحدث بصوتٍ حنونٍ يناجي فيها الرقّة الكامنة في قلب بهاء :

" ماذا ستفعل يا بهاء ؟؟ "

" لن أقتلك ! "

اتّسعت عيناه رعبًا و هو يسأل بتوتر, متجاهلًا صرخات هنري المتألمة :

" ماذا ستفعل ؟؟؟ ماذا ستفعل ؟؟ "

" سأعذبكما لقليلٍ من الوقت و عندما أمَلُّ سأقتلكما ... تُرى هل من مصلحتكما أن أمَلَّ أولًا فتموت سريعًا أم ألا أمَلَّ فتزيد حياتك و يزيد عذابك ! "

" بهاء !! "

" صمتًا ... سنكتشف سويًا "

" لماذا تفعل هذا ! "

ابتسم بهاء بحزنٍ و هو يجيب و كأنه يخاطب مجهولًا غير متواجد :

" قتلوا شادو ... ماذا يكون جزاءهما ! "

" ستعذبنا و تقتلنا من أجل شادو ؟ "

" شادو مات !! "

" حياة شادو ... هل تساوي حياة معلمك ؟ "

" شادو قُتِل !! "

" هل ترى أن ما تفعله الآن منطقيّ ؟؟ ... هل ترى أنك تتصرف بعقلانيةٍ تجاه الأمر "

" و من أذِن لك لتحكم عليّ ؟! من فضلك احتفظ بحكمك لنفسك ... و تعلّم ... عندما تحكم على شخصٍ يجب أن تضع نفسك مكانه ... أن تعيش حياته ... أن تنظر للدنيا الملطخة ببقعٍ من سواد النفوس الغادرة ... أن تبتلع ريقك ممررًا بطعم الجراح ... أن تتنفس البغض و الكراهية ... أن يحتضر الحب أمامك بلا رحمة ... وقتها ربما ... و أكرر ربما ... تستطيع أن تحكم على شخصٍ ما "

" بهاء !! "

" يجب أن تضع نفسك مكاني ... أن تكون ابن حرامٍ و أن يقذفك باقي الأطفال بجمر الخطيئة ... أن تعيش فضيحة والدتك بداخل قلبك رغم أنك تجهلها و أن يُظلّل الحرام نفسك ... أن يستغلك رجلٌ قذرٌ وغدٌ لتهريب شحنات ماس ثم يلقيك عاريًا كأقذر منديلٍ انتهى من استعماله ... أن تعمل مع عصابةٍ لتجارة الأعضاء البشرية و تضيع طفولتك بين الدماء المسفكة و الأعضاء المسروقة ... أن تلعب مع الجثث و تقتل الأطفال ... أن تتخلى عنك أول فتاةٍ تحبها ... أن يموت رفيقك أمام عينيك ... ألا تبتسم لك الدنيا و لو للحظة ... أن يكون

كثيرًا على السماء أن تُفرحك ... أن يكون حزنك و همّك هو غاية القدر و بعدها لنراك أيها الأحمق كيف ستتصرف "

" بهاء ... ليس لي دخل ... حلّ وثاقي و سأعوضك "

" أنا مصري "

" بهاء إسمعني "

كان بهاء يتحدث و كأنه انفصل عن الواقع ... يخاطب شخصاً غير موجود ... تابع بهاء و عيناه تزوغان :

" ألم يحن الوقت بعد لكي أعود لموطني باحثًا عن والدي و والدتي ؟؟ "

" بهاء من فضلك "

" ألم يحن وقت لمّ الشمل "

ترك بهاء جسده يسقط أرضًا و ترك الأرض تستقبل ركبتيه في عنفٍ قبل أن ينظر لعينين يطل الفزع منهما و هو يقول للقائد بابتسامةٍ مرعبة :

" خمّن ماذا ؟؟ ... لقد حان الوقت ! ".

******

قسم شرطة الهرم

وحدة مباحث القسم

فتح بتاريخ 12 / 9 / 2013

نحن المقدم / إبراهيم خفاجي

أُثبت الآتي

أكّدت تحرياتنا السرية و المراقبة الشخصية التي قمنا بها بالاشتراك مع ملازم أول / أحمد صالح سامر معاون مباحث القسم عن قيام كل من : 1 – حنان أحمد علي 2 – زينب أحمد علي إدارة مسكنهم الكائن بشارع الهرم – خلف البنك الأهلي – عمارة ** - الدور الـ *** للدعارة و ممارسة الفجور و استقطاب الرجال راغبي المتعة الحرام و ممارسة الرذيلة مع السيدات مقابل مبالغ مادية .

و أُقفل المحضر على ذلك عقب إثبات ما تقدم و بعرضه على السيد / رئيس نيابة الهرم للإذن بضبط المُتحرى عنهم و تفتيش مسكنهم المذكور بعاليه و كذلك كل من يتواجد أثناء التفتيش و كذلك كل ما يظهر عرضًا و يعاقب عليه القانون .

مقدم / إبراهيم خفاجي

إبراهيم خفاجي

*****

في 12 / 9 / 2013

الساعة 3 مساءً

بسراي النيابة

نحن / خالد محمد جمعة   رئيس النيابة

بعد الاطلاع على محضر التحريات المسطر بعاليه بمعرفة المقدم / إبراهيم خفاجي رئيس مباحث الهرم و الثابت منها أن تحرياته على قيام المُتَحرى عنهم / 1 – حنان أحمد علي 2 – زينب أحمد علي بإدارة مسكنهم للدعارة و ممارسة الفجور .

و حيث أن ما ورد بها يعد جريمة حال و قائمة و معاقب عليها و حيث أننا نطمئن بجدية تلك التحريات الأمر الذي يعد مسوغًا لإصدار ذلك الإذن .

نأذن للسيد المقدم / إبراهيم خفاجي رئيس مباحث قسم شرطة الهرم أو من يعاونه من مأموري الضبط القضائي المختصين قانونًا بضبط كل من : 1 – حنان أحمد علي 2 – زينب أحمد علي و تفتيش المنزل بشارع الهرم – خلف البنك الأهلي – عمارة ** - الدور *** و ظبط كل من يتواجد في الشقة المذكورة و كذلك ضبط كل ما قد يظهر عرضًا أثناء الضبط و التفتيش لكل ما هو معاقبٌ عليه قانونًا على أن يتم تنفيذ ذلك الإذن لمدةٍ واحدةٍ خلال ثمانٍ و أربعون ساعةٍ من ساعة و

تاريخ إصداره على أن يتم تحرير محضرٍ بالإجراءات و يُعرض علينا في حينه.

رئيس النيابة

خالد جمعة

*****

وقفت سنية ترتعد كشراع مركبٍ صغيرٍ في ليلةٍ عاصفة , دموعها تتسابق على منحنيات وجهها و يديها ترتجف , قلبها يدق بعنفٍ و في حلقها تتألّق مرارة الظلم لتغصّ كل حياتها بلونها المر . شحب لونها و احمرت عيناها , شعرها أصبح أشعث و ملابسها غير منسقة , باتت ليلتها في الحجز قبل أن تُعرض على النيابة في الصباح الباكر , تتمنى لو حكّت جسدها بقوةٍ من أثر الحشرات الغريبة التي اتخذت من جسدها مرتعًا و من ملابسها وطنًا ؛ تأمّلهم وكيل النيابة بعينين تحملان من الاحتقار الكثير قبل أن يدور بعينيه على جسد سنية و هو يتأملها قبل أن يقول بكلماتٍ تحترق غضبًا :

" أنتِ من كان معك الطفل ؟؟"

هزّت رأسها بالإيجاب قبل أن تحاول الردّ إلا أن صوتها انزوى بعيدًا فخرجت منها همهمةٌ غير مفهومةٍ قاطعها قائلًا:

" تأخذين ابنك لشقّة دعارة !! أنت غانية فما ذنب الصبي ... ألم يكفيكِ تدميره نفسيًا عندما يكبر و يعرف أن أمه من النساء اللائي بعن شرفهن من أجل حفنة نقود "

أخيرًا تمالكت أعصابها و هي تحاول أن تتكلم :

" من فضلك إسمح لي أن أشرح الأمر... أنا مظلومة "

" مظلومة !! ... لو استطعت أن أحصل على جنيهٍ واحدٍ من كل متهمة دعارةٍ قالت لي أنا مظلومة ثم قصّت لي قصةً فقيرة الإبداع ضعيفة الروح عن الظروف التي أجبرتها أن تعمل في هذا المجال و كيف أنها كانت ستكتفي إلا أنهم ابتزوها ... ألا ترين أن هذا الكلام قد تم استهلاكه في مئات الروايات و آلاف الأفلام ؟؟ ... ألا ترين أن الواقع أصبح أكثر إثارةً من خيالاتنا الفقيرة ؟ "

احتقنت عيناها و امتلأت بالدموع و هي تحاول أن تتحدث من بين نحيبها إلا أن كلامها كان متقطعاً غير مفهوم :

" الصبي ... خطف ... راقصة ... مظلومة ... أقسم "

ابتسم وكيل النيابة ابتسامة سخريةٍ و هو يقول :

" انتظري ... سأحل اللغز ... هناك راقصة خطفت الصبي و أنت مظلومة ؟؟ "

هزّت رأسها بالنفي و هي تتأهّب لكي تتحدث و لكنه بادرها بطرقةٍ قويةٍ بقبضة يده على مكتبه الخشبي فانتفض جسدها و هو يصرخ بها :

" صمتًا ... دافعي عن نفسك أمام المحكمة ... و لا تتحدثي مرةً أخرى بدون إذن "

ارتجف جسدها و هاجمتها قطعان الوهن و الضّعف لتجتاح جسدها و تسكن ثنايا روحها , رفعت يدها بوهنٍ فتجاهلها ... قررت أن تخترق الصمت فقالت :

" ما مصير الصبي ؟؟ "

" ألم آمرك بالصمت ؟؟ "

قال كلماته و حرابٌ من النظرات الحادة تخترق جسدها .. قالت و هي تغالب دموعها :

" أرجوك ... سأصمت بعدها ... للأبد "

" الطفل تم ترحيله في الصباح إلى المصحة و بالطبع سيتم عزل الوصاية عنك طبقًا للقانون رقم 119 لسنة 1952 المادة 27 لأنك متهمةٌ في جريمةٍ من الجرائم المخلة بالآداب و الماسّة بالشرف "

اتّسعت عيناها في هلعٍ و هي تمنع نفسها من الصراخ , تمالكت أعصابها و قاومت الدوار الذي يكتنفها و خاضت حرباً ضد الظلام كي

لا يسيطر على رأسها : بدأ وكيل النيابة في كتابة المحضر دون أن يسمع أيًا منهم , تقف بجوارها الفتاتان اللتان كانتا منهمكتين في الرقص و تزيين الطفل بمستحضراتهما عندما دلفت إلى الشقة , شعورٌ شعثاء اصفرّت لتتألق بلونٍ ذهبيٍ صناعيٍ باهت , أجسادٌ احترفت أيدي الرجال العبث في ثناياها و شفاهٌ احترفت القبلات الحرام , وجوهٌ كان بها لمحة جمالٍ قبل أن تكسوها غضبة الربّ من أفعالهن , بقايا جمالٍ ذاب وسط ظلام الحرام , فتاةٌ أصغر منهما , تبدو على مداخل العشرينات يتوّج وجهها الجميل شعرٌ أسودٌ ينسدل كشلالٍ على كتف أبيض , يدور حول جسدها غطاءٌ أبيضٌ يخفي جسدها و يبرز مفاتنه , تقف بلا اهتمامٍ تمضغ قطعةً من اللادن , وجوههن تكشف أنها ليست مرّتهم الأولى , و نظراتهم تنبئ باحترافهن محاضر النيابات و نوم الزنازين أما في الخلف فينزوي رجلٌ أربعينيٌّ ضخمٌ يرتجف بشدةٍ و هو يحاول أن يغطي جسده بالغطاء الذي يحويه بصعوبة , بدينٌ أسمرٌ غليظ الشفاه , أنفه عريضٌ و الصلع يتسلل إلى رأسه بخفة , عيناه حمراوتان ... يبدو أنه ليس من سكان العاصمة فلهجته تختلف عنهم كما أن رعدته تخبر الجميع أنها مرّته الأولى , هذا الرجل لم يختبر ظلام السجن من قبل .

كان وكيل النيابة على وشك إغلاق المحضر و هو يوزّع التهم و يقسمها بينهم و يرفض مطلقًا أن يستمع لأي محاولة تبريرٍ من سنية , استمعت بحرص لكلماته التي يمليها على حاجبه : " تكون كلًا من المتهمتين الأولى

و الثانية ارتكبتا جنحة بالمادة رقم 8 من القانون رقم 10 للسنة 1961 لمكافحة الدعارة .

و كلًا من المتهمتين الثالثة و الرابعة ارتكبتا جنحة بالمادة رقم 13 من القانون رقم 10 للسنة 1961 لمكافحة الدعارة .

و يكون المتهم الخامس قد ارتكب جنحة بالمادة 279 من قانون العقوبات.

لذلك

و بعد الاطلاع على المادة 214 / 1 من قانون الإجراءات الجنائية

نأمر

أولًا / بإحالة القضية إلى محكمة جنح الهرم لمعاقبة المتهمين طبقًا لنص مواد الاتهام سالفة الذكر.

(مع استمرار حبس المتهمين)

ثانيًا / بندب المحامي صاحب الدور للدفاع عن المتهمين

ثالثًا / بإعلان المتهم بهذا الأمر في خلال 10 أيام

رابعًا / إرفاق حالة الصحيفة الجنائية للمتهمين "

أنهى كلماته و هو ينادي على الجندي الواقف بجوار الباب في تراخٍ , استقام جسده و دخل إلى الغرفة فأمره وكيل النيابة بأخذ المتهمين إلى الحجز حتى يحين موعد عرضهم على المحكمة , ارتعدت سنية و هي ترى مستقبلها ينهار و سمعتها تتمزق , يبدو أن الطفل بالفعل ليس طبيعيًا ... إنه ينتقم منها لأنها أهملته , أبحرت هذه الفكرة المجنونة في خيالها قبل أن تطردها و هي تتأمل الجندي الذي تحدث بصوتٍ لم تسمعه , لم تعد تسمع أو ترى شيئًا من العالم بأسره سوى عينيه و نظراته , استعادت ما حدث خلال الأسبوع الماضي و هي تتابع السير خلفهم لمستقبلها المظلم.

*****

رئيس نيابة الهرم – لشؤون الأسرة

مقدمه : بهاء هاشم محمد السيد كامل المقيم بالجيزة – الطالبية و محله المختار مكتب الأستاذ / نادر النادي مروان

الموضوع

توفيّ والدي المرحوم / هاشم محمد السيد كامل بتاريخ 10 / 8 / 2013 و بتاريخ 4 / 9 / 2013 تم تعيين وصية السيدة / سنية أحمد البوهي على أخي القاصر في القضية رقم 315 / 2014 و بتاريخ 13 / 9 / 2014

تم عزلها لعدم صلاحيتها للوصاية و لما كان الطالب أحقّ بتعيينه وصيًّا على القاصر ليرعى شؤونه

بناء عليه

يلتمس الطالب إحالة الطلب للمحكمة بالموافقة على ترشيح الطالب وصيًّا على القاصر / بهيّ محمد السيد كامل لتولي شؤونه

*****

تجاهل بهاء الصرخات و الاستجداءات التي طاردت أذنيه ... صمّ سمعه عنهم و هو منهمكٌ في تشريح أجسادهم بمشرطه الذي يجري في اللحم بشبقٍ ليخلّف خطًّا أحمرًا صغيرًا سرعان ما تتفجر منه الدماء و تزدهر الصرخات في الحلوق ... كان منهمكًا في جرح أجسادهم بحرص ... بين كل جرحٍ و الآخر مسافةٌ لا تتعدى العشر سنتيمترات طوليًا و عرضيًا يرسمها بدقة و حنكة فنانٍ يرسم أحد لوحاته ... الفارق الوحيد أن لوحته بعنوان الألم تمتاز بلونها الأحمر الدامي المختلط مع صرخاتٍ مؤلمة : عرّى جسديهما تمامًا و أسجاهما على الأرض و شرع في رسم لوحته الفنيّة الدموية على أجسادهما , يمهَر تلك الأجساد بتوقيعٍ أليم , شعر بحضوره فارتجف جسده , الألم !

ذلك المخلوق الشرس , الذي يتغذى على السعادة و الروح البشرية .

انتهى أخيرًا فوقف أمامهما محافظًا على ابتسامته الغامضة المخيفة , بدّل وضعية رأسه من اليمين إلى اليسار متجاهلًا ألمًا سرى في أوصاله , ابتعد خطوتين للخلف قبل أن يقف مرةً أخرى و يتأمل أجسادهما , التمعت عيناه و اتّسعت ابتسامته , لو كان الألم رجلًا لانحنى له إجلالًا , كان دائمًا ما يعتقد أن خلق الألم من مهام المصطفين من قبل الشيطان , هم رسله و جنده و هو نبيّهم المختار ؛ أعطاهم ظهره للحظةً قبل أن يعود للخلف كما لو أنه نسي شيئًا ما , مد يده ليتناول قطعةً من الشريط اللاصق و يحكم إغلاق فاههما به , تابعا الصرخات و إن كان صوتها قد خفت بعض الشيء , رحل ليهبط درجات السلم ببطء , اختفى لمدةٍ لا تتعدى الدقائق و صعد يحمل بعض الأشياء في يده , وجه حديثه لقائده :

" أيها القائد ... هل تعلم ما أحمله هنا ؟؟ "

نظر له القائد بعينين تحملان رسائل فزعة و هو يحاول أن يتمتم ببضع كلماتٍ كتمها الشريط اللاصق , ابتسم بهاء و هو يخبره بصوتٍ تعمّد أن يكون مرعبًا :

" شطة !! "

اتّسعت عينا القائد في فزعٍ بينما حاول هنري الصراخ رغم جروحه التي تبصق الدماء باستمرار , تجاهلهما بهاء و هو يحضر صحنًا مستديرًا عميقًا و ينثر في قاعه الشطة , ظهر بعدها عدة ليموناتٍ أشار

بهم للقائد و هنري و هو يقطعهم بمشرطٍ خضّبهم بالدماء , عصرهم على الشطة و هو يقلّب السائل بالمسحوق , زجاجةٌ من الخلّ ظهرت لتسكب القليل على هذا المسحوق المعجن , أصبح عنده خامةٌ جيدة , الأمر كله اختلط ببعضه البعض ليصبح أشبه بالعجينة السائلة , قوامٌ لزجٌ متماسك , لم يكتفِ بهذا الأمر , مشى حتى وصل للوح زجاجٍ يقف وحيدًا في الظلام , نظرةٌ ساخرةٌ مصحوبةٌ بابتسامةٍ مرعبةٍ قذفهما على هنري و القائد قبل أن ينهمك في تكسير لوح الزجاج , بعد بضع دقائق انتهى , ارتدى قفازًا سميكًا من الجلد البني و تناول الزجاج المكسر لقطع صغيرة كحبات الرمال , ألقاها في الوعاء و هو يقلّب باستمرار , انتهى فابتسم و هو يقول بصوتٍ فيه سخريةٍ مرعبة :

" انتهيت من إعداد طبق اليوم ... هل لكما أن تتكرما و تتذوقاه "

أنهى كلماته متبوعةً بضحكةٍ تردّد صداها بصوتٍ عالٍ في المخزن , مشى يحمل الوعاء و مشرطه حتى وصل لجوارهما , ترك الوعاء و المشرط أرضًا و هو يطمئن إلى أن شيئًا ما يقبع باستكانةٍ في جيبه , أمسك المشرط و بدأ في فتح الجروح و توسيعها بعض الشيء قبل أن يغمرها من الداخل بالمسحوق , الشطة و الخل و الليمون و الزجاج يجتمعان في جرح واحد !!

صرخاتٌ لا حصر لها كتمها الشريط اللاصق الذي تراخى طرفاه بعد عدة جروحٍ و كأنه قد أنهكه التعب في محاولاته لصد هجمات الصراخ

و العويل و موجات النّحيب التي لا تنتهي , انتهى من جسد قائده قبل أن يفعل المثل بهنري متجاهلًا كل الرسائل التي بعثها له هنري بعينيه , جراحهما امتلأت بالمسحوق الغريب الذي حضّره , شعر الإثنان بألمٍ لا يوصف , كأن نارًا تجري في أوصالهما , ذرّات الزجاج تؤلمهما و كلما تحرّكت تجرح الجسد من الداخل لتمسّه الشطّة و الليمون أو يسري بها الخل ... الألم في أدنى حركةٍ و الألم بلا حركة !!

ألقى بهاء بالوعاء بعيدًا بعدما انتهى و هو يُخرِج من جيبه بكَرَةً من الخيط و إبرةً سميكة , اتّسعت عينا القائد المليئتين بالدموع و هو يهزّ رأسه بعنفٍ و يصرخ قدر استطاعته , بدأ اللاصق في التراخي فبدأت الصرخات في العلو , و بدأ بهاء في الاستمتاع .

انهمك بهاءٌ في تخييط الجروح كلها , فقد الإثنان وعيهما من شدة الألم بينما مسح بهاء عرقه الذي انهمر أثناء رسمه للوحته الفنية , تأمّل عمله النهائي بإعجابٍ قبل أن تلتمع عيناه , دخل إلى الحمام الملحق بالمخزن و استحم , بدل ملابسه و خرج ... يجب أن يتخذ إجراءاته اللازمة من أجل العودة إلى وطنه مرةً أخرى .

*****

صوت تكّةٍ عاليةٍ أخرجه من تركيزه , نظر أمامه ليجد طبيبته النفسية تُشعِل طرف سيجارتها من قدّاحةٍ معدنيةٍ تتلألأ بلونٍ أحمر , سحبت نفسًا من الدخان و تركته يجول بداخل صدرها للحظاتٍ قبل أن تنفثه

للخارج , عمودٌ من الدّخان خُلِق من بين شفتين ينحني أمامهما الحُسن متيّمًا ... انقبضت أسارير وجهه و هو يمد يده لها , فتحت غطاء علبتها و أمالتها نحوه لينتقي سيجارته إلا أنه أشار لها أنه يريد الموجودة بين شفتيها , ابتسمت في دلالٍ و هي تمدّ يدها بها إليه , تناولها برقةٍ و هو يتأمل طبعة شفتيها القرمزيتين على فلترها البرئ , أمسك بها و نظر لها و ابتسم للحظةٍ و هو يسلبها حياتها و يطفئها في مطفأة السجائر الموضوعة على النافذة , نظرت له و قد فرّت نظرة الدلال من على ملامحها الحسنة لتحل محلها نظرة تساؤلٍ حائرة , ابتسم في تكلّف بعصبيةٍ و هو يقول :

" أحاول الإقلاع "

ابتسمت بعصبيةٍ هي الأخرى و هي تتأمله بعينين كحيلتين تحملان العديد من الرسائل , نظرت للأكواب الفارغة أمامهما قبل أن تنظر لساعتها , قالت بصوت خفيض :

" لقد اقتربنا من منتصف الليل ... هل تحب أن نستكمل بالغد ؟؟ "

وقف ليشعر بعظامه تئنّ من طول وقت جلسته , هندم ملابسه بسرعةٍ و هو يقول بصوتٍ قطعه تثاؤبٌ حادٌّ لم يحاول أن يمنعه :

" حسنًا لم يعد هناك الكثير ... اقتربنا من النهاية "

ابتسمت و هي تقترب من علبتها لتسحب سيجارةً أخرى بشفتيها , أشار لها بيده ألا تفعل فتسمّرت في مكانها للحظات تتأمله قبل أن تعيدها مكانها بشفتيها أيضًا و هي تنظر له و تغلق العلبة و تردد بصوتٍ خافت : " أوامرك "

ابتسم في إحراجٍ قبل أن يفتح الباب و يقف للحظةٍ يستنشق هواءً يعدو إليه من نافذةٍ مفتوحة , التفت للخلف و سألها :

" في نفس الموعد ؟؟ "

أجابته بابتسامة :

" في نفس الموعد "

" سينتهي الأمر غدًا ... أعدك "

ابتسمت و لم ترد و تأمّلته و هو يخرج من عيادتها قبل أن يغلق الباب خلفه , خلعت حذاءها و هي تتأوه بدلالٍ و ترفع قدميها كالأطفال و تؤرجحها في الهواء للحظات , أشعلت سيجارتها و أغمضت عينيها و هي تترك الدّخان يتسلل إلى ثنايا صدرها ليشبعها بالنيكوتين .

*****

دخل شريفٌ إلى شقته و هو يغلق الباب بحرصٍ من خلفه , لم يفتح أي ضوءٍ و ترك الشقة غارقةً في ظلامٍ دامس , خلع حذائه و تسلل على

سجادةٍ ناعمةٍ دغدغت قدميه برغم جوربه السميك , ابتسم و هو يتسلل إلى حجرته , انعقد حاجباه و هو يتأمل الفراش الخالي , الفراش مرتبٌ و كأن أحدًا لم ينم عليه منذ شهور , الغرفة بأكملها مرتّبةٌ و منظفةٌ بعناية , تلفّت حوله بعصبيةٍ يتأمل الغرفة , زحفت يده على الحائط الأملس البارد حتى وجدت مبتغاها , ضغط زر الإضاءة فجاءت إضاءةٌ بيضاء لتنير سماء الغرفة و تتضح كل الموجودات في الغرفة أمام عينيه الحائرتين , ترك الغرفة بعصبيةٍ و هو يتجه نحو الغرفة الصغيرة التي خصصوها للطفل ... لعلّها تنام هناك , الغرفة الأخرى أيضًا خالية ... أنار الشقة بأكملها ما عدا الحمام و المطبخ , دار حول نفسه عدة مراتٍ في عصبيةٍ قبل أن يقف مكانه و هو يمسك رأسه بكلتي يديه في عصبية , دلّك جانبي رأسه برفقٍ و كأنه يطرد صداعًا غير مرَحّبٍ بحضوره , شعر بدوارٍ يهاجمه جراء تحركه بسرعةٍ و عصبية , جلس بهدوءٍ على أقرب أريكةٍ له و هو يترك جسده يسترخي , أراح رأسه للخلف و تأمل السقف للحظاتٍ قبل أن ينتفض كمن لدغه عقرب , وقف و نادى بصوتٍ عالٍ :

" حبيبتي !! "

أنصت للحظاتٍ و لكن لم يكن هناك أي صوتٍ من الشقة سوى صوت أنفاسه المتوترة , كرر نداءه مرةً أخرى و إن كانت نبرة يأسٍ قد تسللت لصوته :

" حبيبتي !! "

آلاف الأفكار المخيفة اجتاحت رأسه , يعلم جيدًا أن تلك القضية قد أُغلقت منذ حوالي العام إلا أنه لا يزال يحلم بها ... لا يزال هذا الطفل يهاجمه في كوابيسه ... ما تزال صرخته و الدماء تملأ فمه هي أسوأ ما حدث له في حياته .

حاول أن يطرد تلك الأفكار إلا أنه سرعان ما استسلم لها , ترك جسده ينهار على الأريكة التي تحرّكت لبضع سنتيمتراتٍ تحته و هو يرتجف بقوة , زوجته و ابنه القادم , وليُّ عهده و حامل صولجان أبوته , كان يعرف أن هذا الطفل المتوحد ملعون , لم يكن الأمر أنه ذاتّوي , الأمر كان أكبر من هذا .

شعر بحلقه يجف , تحرّك بخطواتٍ بطيئةٍ حتى وصل للمطبخ , ضغط زر الإضاءة لينير المطبخ بضوءٍ صناعيٍّ أبيض , لمح وريقةً صغيرةً تلتصق بمغناطيسٍ صغيرٍ يشبه حبّة الفلفل , يستند كلاهما إلى باب الثلاجة , أسرع إليها و جذبها بعنفٍ متجاهلًا المغناطيس الذي سقط أرضًا ليعلو صوت رنينه محتجًا على تلك المعاملة ...

<< عزيزي شريف

فاجأتني آلام الولادة و لاحظت قصر فترات الانقباضات ... يبدو أن الأمير الصغير سيأتي مبكرًا

لا تقلق ... اضطررت للرحيل فجأةً ... أنا مقيمة عند والدتي ... حاولت أن أحدّثك إلا أن هاتفك

مغلق ... بمجرد أن يصل وليُّ العهد سنحدثك كي تأتي إلى المشفى ... أرجوك كن بجواري

يا سندي و قوتي ... لولاك ما كنت و ما كنت لأريد أن أكون

أحبك كثيرًا >>

تحسّس جيبه ليجد أن نسي هاتفه مغلقًا منذ خروجه من عند الطبيبة , زفرةٌ حارةٌ خرجت من صدره محمّلةً بعبء الراحة و رائحة الاطمئنان , أذابت كل جليد القلق و عدم الراحة و طردت كل الأفكار الكابوسية بعيدًا ؛ فتح باب الثلاجة و تناول زجاجة مياهٍ باردة , آلمته أطراف أصابعه , برغم البرد القارس إلا أنه فتحها و ألقى غطاءها بعيدًا و هو يعبّ منها قدر استطاعته و كأنه يطفئ حريقًا من التوتر في جوفه , أنهى نصف الزجاجة قبل أن يتأملها للحظاتٍ و يرفعها عاليًا و يترك المياه الباردة تسيل على رأسه , لكم كان يحتاج مثلها الآن , شهق و وضع الزجاجة جانبًا و هو يرتعد و يتنهد بعمق و يخرج للصالة مرة أخرى.

*****

وقفت سنية ترتعد بردائها الأبيض خلف القضبان , لم تكن قضبان حديديةً فحسب بالنسبة لها , كانت قضبان الحسرة و الألم و الظلم , قضبان القهر و هوان النفس , قضبانٌ لا تفصلها عن حريتها فحسب و لكن تفصلها عن نفسها , ليست سنية هي من في الحبس , كانت تشعر أنها غريبةٌ عليها , لا تكاد تصدّق ما حدث لها : دمعةٌ شريدةٌ تسللت على وجنتها المرتجفة لتخلّف خلفها خطًّا مستقيمًا كخط حياتها قبل ظهور الطفل , تذكرت الطفل و ما قضته معه , جالت بعينين تحملان غلًّا و غضبًا لا حدود لهما , من نعم الله على البشر نعمة كظم الغيظ فلولاها لثارت ثوراتٌ أشدّ من البراكين , نظراتٌ حارقةٌ مشت على أربعة أجسادٍ تقبع خلف القضبان , ثلاثةٌ منهم يمارسون اللا مبالاة في أسمى صورها أما الأخير فيقف متوترًا يراقب بهلعٍ باب القاعة خوفًا من قادمٍ يحمل شرًا معه , الثلاث فتيات يجلسن بلا أي توتر , الرجل يقف يراقب القاعة برعب, و سنية تراقبهم جميعًا بغضب .

سمعوا صوت حركةٍ , فأدار الجميع أنظارهم إلى ما خارج القضبان , قاعة محكمةٍ ضخمةٍ , على يمينها يقبع الحجز مختفيًا خلف قضبانٍ حديديةٍ باردة تقف لتؤدي واجبها كما ينبغي , في صدر القاعة تتربع منصّةُ خشبيةُ ضخمةُ و من خلفها ثلاث مقاعد حسنة الهيئة تقبع بشموخٍ يليق بها و خلفها على حائط عملاقٍ ترفع صورةٌ تتوسط إطارًا خشبيًا ثمينًا بداخلها قوله تعالي

وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ

منصّةٌ خشبيّةٌ صغيرةٌ تقف باحترامٍ أمام المنصّة الكبرى لكي تحوي المحامي الموكّل بالدفاع عن المتهمين , و مقاعد خشبية متوازية يفصل بينها ممرٌ صغيرٌ لكي تحوي أهالي المتهمين و أعضاء هيئات الدفاع و الشهود , على يسارها يوجد مكانٌ يشبه المكتب يقف وحيدًا ليحوي عضو النيابة .

من بابٍ خشبيٍّ خلف المنصة وقف الحاجب الذي يرتدي بدلةً من قطعتين سماوية اللون , وقف يمسك بيده عدة أوراق , نظر للجميع للحظةٍ فانتظم الجميع و خفتت الأصوات , توقفت الحركة تمامًا , دخل القاضي إلى القاعة بوقارٍ فنادى الحاجب بصوتٍ معتزٍّ جهور :

" محكمة ! "

وقف الجميع احترامًا و إجلالًا لهيبة قاضٍ موقّر دخل بهدوء ليتأمّل الجميع بعينين تحملان من الطيبة أطنانًا قبل أن يبتسم للحضور و يجلس على مقعده , رفع نظارته ليعلقها عند جبهته العريضة , بعينين سوداوين راقب الأوراق التي كان يحملها لبرهةٍ قبل أن يشير للحضور بالجلوس , جلس الجميع في صمت , بدأ الحاجب ينادي أرقام القضية و أنواعها , وقف الجميع يراقبون القاضي , نادى الحاجب على آخر قضية في رول القضايا , نظر لأوراقه قبل أن يأمر القاضي الدفاع أن يتحدث , اقترب المحامي حتى اعتلى المنصة الصغرى , بصوتٍ عالٍ تحدث :

" سيدي القاضي , ليس هناك الكثير ليقال ... هناك أربعة متهمين اعترفوا بجريمتهم و بالتالي لا نستطيع أن نفعل أي شيء لكن سنية , تلك الفتاة المسكينة التي تواجدت في مكانٍ خاطئٍ و زمانٍ خاطئ , سيدي المتهمون أنفسهم اعترفوا أنهم لا يعرفونها "

نظر القاضي لسنية التي تشبثت بالقضبان الحديدية في تضرّعٍ واضح , تحدث لها بصوتٍ هادئ :

" سنية , ماذا كنتِ تفعلين هناك ؟؟ "

بصوتٍ متوتّرٍ ممزوجٍ بدمعٍ يهطل بدأت تقصّ كيف خُطِف منها الطفل و تُرِكت لها الوريقة , مكالمة الهاتف بينها و بين احداهن حتى أعطتها العنوان , رحلتها حتى وصلت لباب الشقة , وصفت له كيف وجدت الطفل , تهدّج صوتها و هي تصف كيف كنّ يجمّلنه و كيف كان يصرخ و يبكي , خروجها في اللحظة الخاطئة و القبض عليها , وكيل النيابة الذي رفض الاستماع إليها و الشهامة الغير متوقعة من المتهمات باعترافهن أنها ليست منهن , أقسمت له بقسوةٍ أنها عذراء لم يمسسها بشر و كيف أنها وضّحت للجميع عذريتها و رفض الجميع الاستماع , بدموعٍ تهطل بدأت حكايتها و بشهقةٍ أنهتها .

استمع القاضي و هزّ رأسه قبل أن يستمع لكلمةٍ قصيرةٍ من الدفاع تلتها كلمةٌ أقصر من عضو النيابة قبل أن يعلن أن الحكم بعد المداولة , خرج من القاعة فتسيّدَ الهرج الموقف لدقائق

دخل القاضي للقاعة مرةً أخرى فانتظم الحضور سريعًا , بصوتٍ جهورٍ هادئٍ أعلن القاضي :

" حكمت المحكمة حضوريًا بالسجن لمدة ثلاث سنوات على كلٍ من حنان أحمد علي و زينب أحمد علي على فتح محلٍ لإدارة الدعارة طبقًا للمادة الثامنة من القانون رقم 10 لعام 1961 / مكافحة الدعارة و بالسجن لمدة عامٍ واحدٍ على المتهمة رباب محمد الجمل بالحبس لمدة سنةٍ واحدة و على المتهم شامل محمد شحاتة بالحبس لمدة ستة أشهر لتلبسهما في وضعٍ مخلٍ بالآداب العامة طبقًا للمادة رقم 9 من نفس القانون , و بالبراءة للمتهمة سنية أحمد البوهي نظرًا لعدم ثبوت أدلةٍ على تورطها بمثل هذا الأمر ؛ رُفعت الجلسة "

من بين دموعها المتساقطة سمعت سنية الحاجب و هو يعلن عن انتهاء جلسات اليوم القصير , نظرت للمحامي من بين القضبان و هي تبكي , بصوتٍ ملئٍ بالعرفان سألت :

" هل سأرحل الآن ؟؟ "

ابتسم المحامي و هو يقول لها :

"بالطبع لا , سيتم ترحيلك الآن إلى القسم الذي تم القبض عليكِ به و من هناك سيتولى الضابط المسؤول البحث في صحيفتك الجنائية عن

أي قضايا أخرى مطلوبة فيها ... لو لم يجد يتم إخلاء سبيلك من هناك ؛ مباركٌ عليكِ البراءة"

أجهشت بالبكاء فلم تسمع آخر كلماته و تركت نفسها للجندي يقودها نحو الخلاص .

*****

وقف بهاء أمام الجسدين الغارقين في بركةٍ من دماءٍ جافّة كان يعوم بها أنهارٌ من الألم و مراكبٌ من الصرخات تحت سماء العذاب المظلمة , مدّ قدمه و بطرف حذائه ركل أحدهم في وجهه , تململ القائد في مكانه و لكن أبى وعيه أن يعود إليه بسهولة , ابتسم بهاء ابتسامة شرٍّ تلاعب فيها الشيطان بمهارةٍ فوق ملامحه الوسيمة , ذهب تجاه جسد هنري و دفعه بقدمه هو الآخر فلم يفِق , ابتسم بهاء و هو يتمتم بصوتٍ خافت :

" حسنًا فعلتما ... أعطيتماني فرصةً لكي أحتفل معكما بهدية عيد الميلاد "

و كأن أحدًا ما يحدثه ابتسم بخبث و هو يقول :

" أعلم أن مازال هناك المزيد من الوقت قبل حلول عيد الميلاد و لكنني لن أكون هنا ... و لا أنتما أيضًا "

أخرج من حقيبة كتفه جهازًا يشبه المكواة إلا أنه يُستخدم لكيّ الجروح , وضع قابسه في الكهرباء و تأكد أنه يعمل , اتجه للقائد و بخفّةٍ تناول يده , كان الجرح قد تقيّح و يبدو أن هناك مزيدٌ من القيح تحت الجلد , كان الجلد يحوي سائلًا غير منتظمٍ تحت ثنياته بينما احمرّت اليد بعنفٍ و تورمت للغاية , الجروح الناتجة عن الخياطة كانت تنزّ القيح و كأنها قد فقدت السيطرة على نفسها : طقطق بلسانه بعدم رضا قبل أن يتناول المكواة و يبدأ في كيِّ الجرح بهدوءٍ و كأنه يمارس أمرًا طبيعيًا , لم تمرّ لحظاتٌ إلا و كان صوت صرخات القائد يعلو بشدةٍ و هو يمتلئ بالعذاب و نبرة الألم الذي لا يحتمل , يبدو أن الصوت قد أزعج بهاء , هزّ رأسه في عدم رضا قبل أن يمسك بشفتي القائد في قسوةٍ و هو ينظر في عينيه نظرةُ شرسة , تحدّث بصوتٍ عميقٍ مليءٍ بالقسوة :

" أفسدتَ طفولتي ... فلا تفسد لحظاتي المرحة أيضًا "

ارتجف القائد و قد صمت و كأنه ابتلع لسانه من شدة الفزع : أمسك بهاء بشفتيه و ضمهما على بعضهما البعض و انغمس في ساديةٍ يكويهما ببعضمهما ببراءة و استمتاعٍ جليٍّ على وجهه , انتهى من كيّهما ببعضهما , ذاب الجلد و تغضّب على بعضه البعض , حاول أن يصرخ أو أن يفتح فاهه إلا أنه لم يفلح , سقط مغشيًا عليه من شدة الألم مرةً أخرى , انهمك بهاء في كيِّ جروحه حتى انتهى , تجاهل العرق الحارّ الذي سال على جسد القائد , كان يعلم جيدًا أن القيح و العرق هم

بداية النهاية , يبدو أن ملك الموت سيزورهما قريبًا , ابتسم عند ذلك الخاطر و هو يدور حول أجسادهما حتى واجه هنري : بدا له أن هنري قد استعاد وعيه و إن كان يتظاهر بفقدان الوعي علّه ينال من بحار رحمته رشفةً أو يزيد , واجهه بهاء بابتسامةٍ ساخرةٍ و هزّ رأسه في تفهّمٍ قبل أن يعود للحقيبة السوداء مرةً أخرى و يُخرِج منها شيئاً لم يتبينه هنري من بين عينيه اللتان يراقب بهما بهاء في فزع , التفت له بهاء و الشيطان يتلاعب بينهما بفرحٍ غامر فأغلق هنري عينيه بقوة و لم يتبين هل رآه بهاء أم لا .

اقترب بهاء منه في حرصٍ و حمل رأسه و وضعها على قدميه و هو يجلس بجواره , همس له في أذنه :

" لقد حضرت ... لا تخف ... أعرف أنك مستيقظ "

حلّ بهاء يديه من خلفه و أحكم ربطهما أمامه بعد أن فتح هنري عينيه و تطلع له برعبٍ أخرسه بالفعل , ابتسم هنري بقوةٍ و كأنه يتغذى على رعبه و فزعه , فتح يده ليريه ما يُمسِك , تطلّع هنري لمجموعةٍ من الإبر الطويلة , تحدّث هنري بصوتٍ واثقٍ و هو يقول :

" لقد رأيت تلك الطريقة من قبل في أحد المسلسلات أو الأفلام ... لا أستطيع حقًا أن أتذكر جيدًا "

صمت للحظةٍ قبل أن يضغط على أحد الجروح ليتقيأ الجرح قيحًا سميكًا وهو يقول :

" أما تلك فهي من اختراعي "

عضّ هنري على شفته من شدة الألم و لكنه لم يصرخ , لم يكن ليجازف بإغضاب بهاء , أمسك بهاء أحد الإبر و هو يقول :

" سمعت أن المراكز الحسية للألم و النهايات العصبية في بداية الأنامل حساسةٌ للغاية "

أمسك احدى الإبر و بدأ يغرسها و هو يغلق عينيه في استمتاعٍ حتى دخلت بأكملها لنهاية الإصبع :

" هذا الأمر يسبب إما شعوراً بحريقٍ يجتاح أحشائك أو صدمةً كهربيةً تجتاح جسدك "

ابتسم ابتسامةً تحمل شيطان الخبث بين طياتها و هو يقول بلهجةٍ ذات مغزى :

" لا أستطيع أن أتذكر و لكنك ستعلم بالتأكيد "

صرخ هنري و قد انتهت قدرته على تحمل الألم , ابتسم بهاء و هو يقول:

" المذهل في تلك الطريقة أنها بالتأكيد تمنعك من فقدان الوعي و بالتالي تشعر بكل ذرّة ألم ... كل ذرّة ألمٍ مهما كانت صغيرة "

تتابعت صرخات هنري و استمر جسده في الارتجاف بقوة , أخرج بهاء الإبرة بقوةٍ من يده فصرخ بعنفٍ و هو يفقد الوعي , ضحك بهاء بشدةٍ و هو يقول بصوتٍ عالٍ و كأنهما يسمعانه :

" حسنًا سأنهي الأمر الآن "

مدّ يده إلى ظهره و هو يعلم جيدًا مكان ما يبحث عنه , في الحيّز الضيق بين ظهره و بنطاله كان يقبع مسدسٌ متعطشٌ للدماء , أخرجه و أداره في يده للحظاتٍ قبل أن يدير وجهه للجهة الأخرى و هو يضحك في تلذّذ , رددت جدران المخزن صوت عيارين ناريين دويا بشدةٍ أصابت بعض الغربان بالفزع فطارت بعيدًا و هي تنعق محتجةً على ذلك الصوت المرتفع المفاجئ , جثتان بلا رؤوسٍ و بلا روح ترقدان أمامه , بصق عليهما قبل أن يدير وجهه و يمشي إلى المنضدة ؛ فتح حقيبته الصغيرة و هو يخرج منها بضعة أوراق , فتحها و هو يقرأ الاسم بصعوبة : ((بهاء هاشم محمد السيد كامل)) .

ردّد بصوتٍ خافتٍ و هو يحدث نفسه :

" من الجيد أنني أتذكر هذا الاسم جيدًا " .

بدأ يراجع أوراقه مرّةً أخرى بهدوء ... شهادة ميلاد ، بطاقة شخصية ، أوراق لا يفهم ما فيها و جواز سفر ... كلها تنتمي لجمهورية مصر العربية و كلها مزورةٌ بدقةٍ و عناية .

ابتسم و هو يراقب آخر أوراقه , تذكرة سفرٍ بموعدٍ قريب , حان موعد العودة للوطن ... هناك بعض الأعمال يجب أن تتم هناك .

*****

رنّ هاتف شريف , نظر لشاشته التي تضيء و تُظلِم بانتظامٍ مع تتابع صوت موسيقى رنّة الهاتف , نظر بعينين آذاهما الضوء , رأى اسم رئيسه المباشر العقيد كامل يتألق على الشاشة : سحب يده على الشاشة التي تعمل باللمس لكي يجيبه , نفض آثار النوم عن صوته و أجاب بصوتٍ مستفيقٍ واضح :

" ألو ... ما الأمر يا سيدي "

أتاه الصوت يحمل لمحة غموضٍ من الجهة الأخرى :

" أريدك أن تأتي إليّ بأسرع ما تستطيع "

هرب النوم مسرعًا أمام مارد الاستيقاظ الذي حضر إلى المكان فتساءل شريف بفضول :

" حسنًا و لكن ما الأمر "

"الأمر له علاقة بالقضية التي تقع تحت مسؤوليتك "

" شيءٌ جديد ! "

" شيءٌ قديم !! "

" مهم !!! "

" سيناي القضية !!!! "

" دقائقٌ و أكون أمام سيادتك "

" لا تتعجل ... عمرو هنا و ينتظرك بحماس لكي يقصّ عليك الأمر "

انتفض جسد شريف و هو يلقي هاتفه بسرعةٍ على الفراش قبل أن ينظر لزوجته بحرص , خشي أن يُقلِق نومها , ارتدى ملابسه في الظلام و بسرعةٍ قبل أن يتناول هاتفه و يضعه في جيبه , وضع حافظة مسدسه تحت إبطه و أحكم ربطها حول جسده , ارتدى معطفًا ثقيلًا و أغلق الباب بحرص , و حرص على ألا يصدر أي صوتٍ يقلق نوم ملاكه الحنون , بمجرد أن أغلق الباب اندفع ينهب السلالم بسرعةٍ و هو متحمس , أدرينالين الحماس طغى على جسده فأزال عنه كسل النوم , لم تمر دقائق حتى كان يدلف من باب القسم يخطو بخطواتٍ سريعة , برغم برودةِ الجو إلا أنه كان يتصبب عرقًا ... ينهج بقوة ... و لكنه بالتأكيد لا يهتم , دقائق أخرى و كان يدلف إلى المكتب و يقف بقوةٍ

معطيًا قائده التحية العسكرية , ردها بتكاسل و هو يدعوه للجلوس أمامه , كانت عينا عمرو تلمعان بشدة و الحماس يطغى على قسماته , ابتسامةٌ صغيرةٌ شجعه بها شريف على البدء فتكلم .

" أنهى الطالبان الجامعيان هاشم و ميرفت دراستهما لتلك السنة ... اتفقا على عدة مواعيد في أجازتهما لكي يريا بعضهما البعض , أصداء قصة حبهما كانت تهز أسوار الجامعة , يعرف بها و يباركها جميع الطلبة و جميع المدرسين و المحاضرين بتلك الكلية , و لكن بعد الأجازة سرعان ما كان كل منهما يتجنب الآخر كالطاعون , لمدةٍ تزيد عن الخمسة و العشرين عامًا ... أمرٌ غريبٌ حرِص كلاهما على إخفائه إلا أن ميرفت في يومٍ من الأيام زلّ لسانها تحت تأثير الضغط النفسي فحكت سرهما لأحدى صديقاتها , إلتقيا في الأجازة و في مرةٍ من المرات حضر الشيطان و تسيّد الموقف فرحلت ملائكة البراءة و العفّة لتحل محلها شياطين الغضب و الذنب الكبير , وقعا في المحظور و حملت ميرفت بطفلٍ من هاشم !! "

اتّسعت عينا شريف بقوةٍ عند تلك النقطة فأشار له العقيد كامل بالصبر , هزّ رأسه و إن لم يزِل عن وجهه آثار التعجب و الدهشة , استمرّ عمرو في القصّ :

" اختلفا ... هاشم أراد أن تجري ميرفت عملية إجهاض و لكنها رفضت و تمسكت بالجنين , أرادت أن يتزوجا و لكنه تحجج بأنه ليس مستعدًا

نفسيًا و لا ماديًا , فكرت أن تنتحر و لكنها رأت الانتحار ليس هروباً ... فالانتحار أنانية مطلقة , أخيرًا توصلت لقرارٍ ليس سهلًا على الإطلاق , لن تجهض ... لن تقتل روحًا و لو كانت مبنيةً على فعلٍ حرام , أخبرت والديها بأنها ستقيم لدي صديقتها هذا العام و لن تأخذ أجازاتٍ لأن العام مزدحمٌ و وقتها مليءٌ بالمحاضرات , تفهّم والداها الأمر من شدّة ثقتهما فيها , حِراب الإحساس بالذنب كانت تنغرس في روحها فتدميها و لكن ما باليد حيلة , أخطأت و من الشجاعة تحمل تبعات الخطأ , بالفعل وصل الصغير قرب نهاية العام , لم تستطع الاحتفاظ به , ألقته أمام أحد الملاجئ و بصحبته وريقةٌ بها اسمه بالكامل , تقاريرنا و تحرياتنا تخبرنا أن الصغير سافر بصحبة من تبنوه للخارج و لم يعُد , عادا بدونه , غير معروفٌ مصيره و لا أي نشاطٍ زاوله بالخارج "

هزّ شريف رأسه عندما صمت عمرو و نظر للعقيد كامل قبل أن يلاحظ ابتسامةً خبيثةً تتلاعب على شفاههما , نظر لعمرو بحماسٍ و هو يشير له بالاستكمال , تحدّث عمرو ببطء و هو يقول :

" الصغير يدعى بهاء ... بهاء هاشم محمد "

صمت عمرو للحظةٍ لكي يعطي كلامه التأثير المطلوب قبل أن يسمع صوت شريف و هو ينطق الاسم و كأنه يتذوقه:

" بهاء ... هاشم ... محمد ... إنها المرة الأولى التي أسمع فيها عنه "

تحدث عمرو مرةً أخرى :

" هناك المزيد "

" هل حدث أمر جديد ؟؟؟ "

تحدث العقيد كامل بصوت عالٍ و هو يقول :

" أمران "

تبادل عمرو العقيد كامل النظرات قبل أن يقول عمرو لشريف :

" لقد عاد بهاء لمصر ! "

وقف شريف و هو يقول :

" ماذا ؟؟ متى عاد ؟؟ "

أشار له عمرو بالصبر مرةً أخرى و هو يقول :

" ببعض تحرياتٍ صغيرةٍ علمنا أنه وصل لمطار القاهرة و علمنا أيضًا أنه رشى أحد مسؤولي الأمن لكي تمر حقيبةٌ خارج التفتيش "

" حقيبة !! ... هل عرفت محتوياتها ؟؟ "

" لقد اعترف المسؤول أثناء التحقيق معه ... الحقيبة مليئةٌ بالسكاكين الحادة !! "

" يبدو أنه حضر لينتقم من أهله ... لقد رماه الأب و الأم أرضًا ... كان مجرد متعةٍ بالنسبة لهما ... لم يهتما به قدر اهتمامهما بشهواتهما ... الأوغاد "

" هناك أمرٌ أخير "

" ما هو ؟؟ "

نظر عمرو للعقيد كامل الذي أخرج وريقةً كانت تنام بعمق في درج مكتبه و أعطاها لشريف الذي قرأها و عيناه تتسعان مع كل كلمةٍ في ذهولٍ مصحوبٍ بعدم تصديق :

نيابة الهرم

لشئون الأسرة

مال.

القضية رقم 320 لسنة 2013 المتوفي / هاشم محمد السيد كامل.

قرار وصاية

بتاريخ 15 / 9 / 2014

قررت المحكمة تعيين / بهاء هاشم محمد السيد كامل وصيًّا بلا أجر على شقيقه القاصر / بهيّ

قُصّر المتوفي / هاشم محمد السيد كامل

رئيس المحكمة سكرتير الجلسة

اشرف بدوي باهر محمد السيد

أنهى شريف قراءة الورقة و هو ينظر في ساعته ليلاحظ أنها تجاوزت منتصف الليل بقليل من الوقت , نظر لعمرو الذي ابتسم و هو يهز رأسه إليه , العقيد كامل ابتسم أيضًا و هو يلاحظ التجانس بين الزميلين و مدى فهمهما لبعضهما البعض بدون كلام , أخرج عمرو وريقةً صغيرةً من جيب قميصه العلوي و هو يقول :

" عنوان بهاء "

أشار له شريف و هو يقول :

" هل ستأتي ؟؟ "

هز عمرو رأسه بالإيجاب قبل أن يقول العقيد كامل :

" سآمر لكما بقوة مرافقة ... "

قاطعه الإثنان بنبرةٍ واحدة :

" سنذهب بمفردنا في البداية و إذا احتجنا لدعمٍ سنطلب "

نظر لهما لبرهةٍ قبل أن يتنهد بعنفٍ و هو يقول :

" كما ترغبان "

أمسك شريف الورقة و قرأ العنوان , أغمض عينيه و أراح رأسه للخلف قليلًا و هو يستنشق الهواء قبل أن يزفره بقوة و هو يقول :

" هيا بنا ".

*****

نظر شريف للطبيبة النفسية التي تألقت اليوم في ثوبٍ أسود عكس جمال لونها الأبيض , لاحظت نظرته فابتسمت بخجل , لاحظ فتوتر و ابتسم بعصبية ... و بدأ يقصّ عليها ما حدث...

*****

نظر شريف لعمرو في فخرٍ و هما يخرجان من مكتب العقيد كامل , ربّت عليه بحنوٍّ و قال له بصوتٍ يحمل صراعًا بين نبرةٍ أبوية و نبرة صداقةٍ فخورة :

" تلميذٌ نجيب "

ابتسم عمرو و هو يقول بسرعة :

" لأستاذٍ عبقري "

ابتسم شريف للحظةٍ قبل أن يتلبسه شيطان العصبية و هو ينظر لعمرو في توترٍ و يقول :

" هل العنوان بعيد ؟؟ "

ظهرت علامات الدهشة على وجه عمرو من هذا التغيّر السريع قبل أن يمد يده في جيب معطفه و يُخرج وريقةً كتب بها عنوان المنزل الذي استأجره بهاء عن طريق شبكة الإنترنت , نظر إليها للحظةٍ و هو يعطيها له و يقول :

" هل سنستخدم سيارتي أم سيارتك "

هزّ عمرو رأسه برفضٍ و هو يقول :

" سيارتي ... أنت لم تأت بسيارتك "

" كيف عرفت ؟؟ "

" لقد دخلتَ المكتب متعرقًا و تنهج ... لقد أتيت إما مشيًا أو عدوًا "

أدار شريف رأسه ليجد فتاةً تدخل مسرعةً من باب القسم و ما إن رأته حتى ركعت على ركبتيها أمامه و أمسكت يده تحاول أن تقبلها ؛ كانت تبكي بحرقة , صوت بكائها و دموعها التي سالت على يده قبل أن يسحبها بعيدًا عنها كانا يحرقانه بالذنب , كاد قلبه يرقّ إلا أنه نظر لها

بقوةٍ و هو يقول بصوتٍ حاول أن يجعله أجشًا خشنًا إلا أن طيبة قلبه قد تحكمت :

" ماذا تفعلين هنا ؟؟ ... هل هربتِ ؟؟ "

هزت رأسها بعنفٍ و هي تقول من بين دموعها الغزيرة :

" لقد ... حُكم ... لي بالبراءة ... أخبرتك ... أنني مظلومة "

هزّ رأسه برفضٍ و كأنه يرفض تصديق الحقيقة الماثلة أمام عينيه بينما تجمّد عمرو و هو يراقب المشهد : كان عمرو يعرفها إلا أنه لم يلتق بها من قبل , حاول شريف تجاوزها إلا أنها تمسكت بملابسه فوقف حتى لا تهبط ملابسه تحت تأثير ثقلها , إن آخر ما يحتاجه الآن هو شيءٌ يقلل من ثقته بنفسه , رأى شخصًا مألوفًا يدخل من الباب متجهًا إليه و قبل أن يحدّثه نظر له بغضب و هو يمد يده لسنية لكي تقف على قدميها , تأمله شريف للحظة ... مدير المصحة النفسية التي كان بهيّ يُعالج بها , كان يحمل بيديه بضع أوراقٍ مليئةٍ بالمصطلحات الأجنبية قدّمها لشريف الذي تأملها للحظةٍ قبل أن يسأله :

" ما هذا ؟؟ "

" هذه تقاريرٌ تُثبت أن بهيّ تحسن بشدة منذ تسلمت رعايته و الوصاية عليه , بهيّ كان على شفا الخروج من دائرة المرض المغلقة لدائرةٍ أكثر تفتحًا "

مطّ شريف شفتيه و هو يبين له أن الأمر لا يعنيه , وقف أمامه الطبيب بغضبٍ و هو يقول :

" هل ما زال في قلبك رحمة ؟؟ "

ارتجف شريف غضبًا و وجهه يحمرّ و هو يحكم إغلاق قبضته على الأوراق حتى تجعدت تمامًا , كان يبدو جليًا أنه يجاهد لكي يظل متحكمًا في أعصابه ؛ قال بكلماتٍ تنزف غضبًا :

" نعم و من أجل القلة القليلة الباقية في قلبي من الرحمة يجب أن أقوم بواجبي ... هناك سفاحٌ طليق و الأخطر أن هذا السفاح يستعين بشيطانٍ شرس ... هل تتخيل مدى تأثيرهما على العالم ؟؟ "

بد الأمر كما لو أن سحابةً من الغضب تجمّعت فوق شريف لتهطل منها أمطار المقت و العنف , تراجع الطبيب خطوتين للخلف و هو يمد يده لسنية :

" تعالي يا بنيتي "

صرخت بقوةٍ و هي تهزّ رأسها كالمجنونة و ترفض تصديق الأمر , غضّ شريف النظر عنها و هو ينظر لعمرو الذي أجابه بنظرةٍ لا يفهمها سوى شريكين في العمل , نظرةٌ مفادها أنه خيرًا فعل .

هزّ شريف رأسه بتفهمٍ و هو يمدّ يده لعمرو الذي مدّ يده لجيبه و أخرج مفتاح السيارة , دلف كلاهما للسيارة قبل أن ينهمك شريف في ضبط مرايا السيارة قبل أن يمد يده لجهاز تعطير الجو الآلي لكي يعطّر الجو قليلًا , تسللت رائحة فراولةٍ مختلطةٍ بقليلٍ من الفانيليا , استنشقها شريف و هو يضع رأسه على ظهر كرسيه و يترك جسده يسترخي للحظةٍ قبل أن يسعل و هو ينظر لعمرو الذي يراقبه و على شفتيه ابتسامة اشفاق ؛ كان يعلم أن شريف منهكٌ جسديًا و ذهنيًا و معنويًا , تلك القضية أنهكته خصوصًا و أن شريف لا يزال يحاول إثبات حالة الاستحواذ الشيطاني التي يراها وحيدًا دون الجميع , تحرّكت السيارة ببطءٍ و هي تهدُر بصوتٍ منخفض ؛ دقائقٌ من الصمت توغلت في المكان حتى أحكمت سيطرتها عليه , وصلا للعنوان , يبدو أن البناية خالية ... صعدا ببطءٍ على السلم المظلم , صوت دقات قلب شريف يكاد يصمُّ آذانه , أمسك مسدسه ليتقدمه إلا أن يداه كانتا ترتجفان ... الخيالات المرعبة التي تتحرك في الظلام ... الأفكار الشنيعة التي كانت تبحر في رأسه ؛ وصلا أخيرًا للباب , أشار لعمرو بيديه إشارة تحمل معنًى واحد :

((سأعدَ من 1 إلى 3 و بعدها سنكسر الباب و نقتحم المكان سويًا))

ابتلع عمرو ريقه في توتر و هو يشعر بشعورٍ جارفٍ من الندم ينمو بداخله , تمنى لو أنه لم يستمع لكلام شريف و أصرّ على استقدام قوةٍ مرافقة , لقد اختبر ما يمكن للشيطان الصغير أن يفعله أما الآن

فقوته مضاعفة لأنه مصحوبٌ بسفاحٍ شرس , رأى عمرو نفسه هو و شريف بدلًا من الجثث المشوهة التي رآها في بداية تلك القضية , راقب شريف و هو يعد على أصابعه ...

واحد ... دقّ قلبه بقوة و تجمدت الدماء في عروقه ...

إثنان ... اقشعرّ جسده و شعر بعرقٍ بارد على جبهته ...

ثلاثة ... حدث أمرٌ غير متوقع !!

فُتِح ضوء المصباح الموجود فوق الباب و فُتح الباب قليلًا , نظرا لبعضهما البعض قبل أن يمدّ شريف مقدمة مسدسه و هو يفتح بها الباب على مصراعيه , تأمّل الشقة المضيئة أمامه بضوء مصابيح بيضاء تتألق في سماء سقفها ؛ الشقة خاليةٌ من البشر تمامًا , لون الجدران الأبيض يعطيهما إحساسًا بالراحة النفسية بينما الحدث يقشعرُّ له بدناهما ... مشيا بخطواتٍ بطيئة , وصلا لصالة الشقة الفسيحة , مازال الصمت هو السيد المتوّج على عرش الأمر بأكمله , إلا أن اللون الأبيض ينازعه على عرشه , كل الموجودات في المكان تتألق باللون الأبيض , هناك أريكتان مزينتان باللون الأبيض ... السجاد ... الحوائط ... السقف ... هنالك مقعدٌ أبيضٌ محشوٌّ بالقطن يقف وحيدًا بجوار الحائط البعيد ... يعطيهما ظهره و كأن هناك ما يخفيه عنهما , أشار عمرو بعينيه إلى شريف ففهم شريف , سعل شريف بقوةٍ و هو يصوّبُ مسدسه نحو الكرسي :

" هل من أحدٍ مختبئٍ خلف الكرسي ؟؟ "

لم يرد أحد ... الصمت يتسيّد ... التوتر يزداد و الخوف يتسلل !

اقترب شريف خطوةً ببطء و هو يسأل بصوتٍ أعلى :

" هل هناك أحدٌ على الكرسي ؟؟ "

للمرة الثانية يسأل فيجيبه الصمت بإجابةٍ لا ترضيه , أعاد كلماته بصوتٍ يحمل لهجةً تحذيرية :

" من فضلك ... سأستخدم مسدسي !! "

عند تلك الكلمة و كأن شريف نطق بكلمةٍ سحرية , دار الكرسي حول نفسه بطريقةٍ ميكانيكيةٍ غريبة , تأمّل شريف الطفل الصغير الذي يجلس على المقعد و الابتسامة التي تتلاعب على وجهه , نظراته مصوّبةٌ إلى الحائط خلف شريف , فتح الطفل فمه و صرخ ... صرخ صرخة ألمٍ غير طبيعية و صاحب صرخاته تحطّم المصابيح كلها بدويٍّ عالٍ , انتهت المعركة و ساد الظلام و حكم مملكته المفضلة ...

مملكة الفزع !!

سمع الجميع صوت قهقهة رجلٍ بالغٍ تتردد في المكان , صوتٌ واثقٌ يتحدث بهدوء :

" أتعلم يا سيد شريف ... عندما يتعلم المرء شيئًا في صغره لا ينساه أبدًا ... لقد ترعرعت بين يدي رجلٍ فاضلٍ ... علمني أشياء مهمة هل لك أن تعرفها ؟؟ "

لم يرد شريف و إن انعقد حاجباه في توتر, دار حول نفسه في الظلام , حاول أن يضيّق عينيه لتكشفا هذا الظلام إلا أنه فشل , سمع الصوت يقترب منه و هو يتحدث ؛ هذا الشخص أو هذا الشيء أيًا كان نوعه يقترب منه , توتّر و هو يبحث عن عمرو الذي صمت تمامًا , قال الصوت و هو ما زال يتحدث :

" الدرس الأول : كيف تكون خفيًا ! ... و كيف تكون خفيًا في خِضَمِّ الضوء ؟؟ ... الظلام ملك الإختفاء ... أليس كذلك ؟ "

شعر بأنفاسه الحارّة و هي تُلهب خلف أذنه فقرر أن يضربه بمسدسه , التفت للخلف و هو يضرب بمسدسه هذا المكان , سمع صوت سلاحه يشق الهواء إلا أنه لم يصب أحدًا , سمع ضحكةً عاليةً تتردّد في الغرفة عجز عن تحديد اتجاهها قبل أن يسمع الصوت يقول بهدوءٍ من الطرف البعيد للغرفة :

" الدرس الثاني : كيف تكون خفيفًا ! ... لا أريد لمسدسٍ أن يصيبني و نحن في بداية السهرة "

التفت شريف يواجه الجهة التي يأتيه منها الكلام , سرعان ما سمع صوتًا يهتف من خلفه تمامًا :

" الدرس الثالث : لا تنظر خلفك في خِضَمِّ المطاردة ! ... التفت شريف و أطلق رصاصةً من مسدسه بسرعة , التمعت الرصاصة في الظلامِ للحظةٍ تبيّن فيها وجهًا يقابله ينظر له بذهولٍ عارم ... كان آخر شخصٍ يتمنى شريف أن يراه هنا و الآن !

في تلك اللحظة تحديدًا أضاءت الغرفة بضوءٍ أحمرٍ خافت و كأنما جُهز خصيصًا لمثل هذا المشهد , راقب شريف وجه عمرو و هو يراقبه بذهول , نظر عمرو لمكان قلبه فنظر شريف بدوره ... اتّسعت بقعة الدماء على صدر قميصه ... الضوء الأحمر زاد الأمر سوءًا ... نظرات الألم في ملامح عمرو ... الذهول ... النظرة التي تحمل ألم الطعنة التي أتت حين غرة ... لومُ من وثِق فيه و خانه برصاصةٍ غادرة ؛ ترقرقت الدموع في عيني شريف و هو يترك مسدسه من قبضته , تعلّق المسدس في إصبعه لثوانٍ قبل أن يقرر تركه و يسقط أرضًا , احتضن عمرو الذي ترك جسده يسقط بين يديه , هبط به بهدوءٍ و هو يحاول أن يتحدث إلا أن نظرات الألم و عدم التصديق في عيني عمرو ألجمته ... صمتٌ تام ... لا صوت يعلو فوق صوت الألم , شعر شريف بالألم يمزق صدره ... يقبض قلبه , المرارة تسللت لحلقه فشعر بها تعيده لعالم الواقع , حاول أن يتحدث إلا أنه لم يجد كلماتٍ تبرّر ما فعل ... لا كلمات تبرر الخيانة حتى و إن كانت غير مقصودة !

دمعةٌ سالت من عينه لتسقط و تمتزج بدموع عمرو , تمنى لو أن روحه تخرج و تمتزج بروح عمرو لتمده بالقوة و المقاومة , حاول عمرو أن يتحدث بصوتٍ خافت فاقترب منه شريف محاولًا أن يداري ارتجاج جسده بالحزن و امتلاء روحه بالألم , نطق عمرو بكلمةٍ واحدةٍ فقط ... كلمةٍ توقف عندها الزمن :

" سامحتُك "

بكى شريف كما لم يبكي من قبل و هو يتأمل عيني عمرو تخفتان , ضوء الحياة يغادرهما بلا رجعة , لم يهتم لضوء الغرفة الأحمر و هو يخفُت بالتدريج قبل أن ينطفئ في ذات اللحظة التي انطفأت فيها عينا عمرو !

وضع شريف جسد عمرو على الأرض بحرص و قبل أن يقف مد يديه في الظلام ليبحث عن مسدسه , انهمك في البحث بصوتٍ منخفض قبل أن يأتيه الصوت قائلًا بمرح و كأنه يمارس أمرًا محببًا لنفسه :

" هل تبحث عن هذا ؟؟ "

وجد شريف مسدسه يزحف إليه , يبدو أنه كان يقبع تحت قدم مهاجمه باستسلام قبل أن يقرر أن يركله له , قبل أن يقف تحسس مسدسه , تأكد من تواجد الخزنة , وضع إصبعه على الزناد و وقف و هو يطلق رصاصتين تجاه الجهة التي أتى منها مسدسه زحفًا , أنارت

الطلقات للحظةٍ تأكد منها أنه لا يقف هناك , شعر بقبضة الألم تعتصر قلبه الحزين , شعر بالمرارة تنَصِّب نفسها ملكةً على عرش حلقه الجاف , فقد أعصابه , دار حول نفسه بسرعة و هو يصرخ بصوت عالٍ :

" لمــاذا ! "

صوت دويّ رصاصة

" لماذا ... عمرو كان بريئاً ! "

صوت دويّ رصاصةٍ أخرى

" و أبوك و أمك كانوا أبرياء "

صوت دويّ رصاصةٍ ثالثة

" و ها أنت تثبت صحة وجهة نظرهما فيك "

صوت رصاصةٍ أخرى تتبع أخوتها في الظلام

" سفاحٌ آشرٌ منحطّ "

صوت تكّةٍ تُعلِن عن فراغ الخزنة من أي طلقات , لقد تمت عملية الولادة بنجاح و لم يعد هناك المزيد من الصغار في رحمها , ضغط زرًا صغيرًا في جانب مسدسه فانسلّت الخزنة تسقط أرضًا و كأنها تعلن

تبرئها التام مما حدث, قبل أن يمد يده لجراب مسدسه ليتناول الخزنة الأخرى , سمع صوتًا خافتًا قبل أن يرى ضوء شعلةٍ صغيرةٍ تولد من قداحةٍ بيد شخصٍ طويل الشعر , كان شعره يغطي وجهه حتى لا يكاد يرى منه أي ملامح , وُلِد الضوء من شمعةٍ صغيرةٍ لينير الغرفة قليلًا , انهمك الشخص في إشعال العشرات من الشموع قبل أن ينظر لشريف من بين خصلات شعره و هو يقول ساخرًا :

" أُفضِّل ضوء النار ... تذكرني بالألم و العذاب كما تذكرني الشموع بالتضحية "

لم يبتسم شريف و إنما التمعت الدموع في عينيه و هو لا يزال يقف متجمدًا يضع يده في جيبه يلمس بأنامله طرف الخزنة النائمة بداخل جرابه , طقطق الشخص بلسانه و هو يقول له بصوتٍ منخفضٍ آمر:

" من فضلك ... أخرج يدك "

أخرج شريف يده كالمسحور و هو يتأمل الغرفة التي أضاءتها عشرات الشموع , مستحيلٌ أن يكون قد حضّر لها بنفسه , لقد كان يطارده في الظلام ؛ تيقن شريف أن بهاء له مساعد , دار بعينيه حول الغرفة حتى وجدها , تقف بصمتٍ ثابتةً كتمثالٍ من الشمع ... بيضاء الجسد , شقراء الشعر , حسنة المحيّا , تجمع شعرها على طريقة " ذيل الحصان " ليرتفع بشموخٍ فوق رأسها قبل أن يسترسل في نعومةٍ على ظهرها , خضراء العينين , صغيرة الأنف و الفم ... جميلة , ملامحها تدل

على أنها أجنبية و قسماتها تفضح أصلها الإسكندنافي بشدة , برغم برودة الجو لا ترتدي سوى " بودي " بحمالات و بنطالًا قصيرًا يصل لما فوق ركبتها , شفتاها اللامعتان تعكسان ابتسامةً خبيثةً بينما تلتمع عيناها بنظرة شرٍّ خالصة , لم يستطع أن يزيل عينيه من على وجهها الذي تتلاعب عليه انعكاسات النيران و كأنها تزيدها رهبة , سمع صوت بهاء يأتي من خلفه :

" أرى أنك وجدت كريستين "

انعقد حاجبا شريف عند سماعه للاسم , حاول استرجاع كافة الأحداث و الأسماء التي مرت عليه طوال فترة تولّيه مهمة التحقيق في تلك القضية ... لم يكن فيها أي كريستين , فهم بهاء ما يفعله فقهقه ضاحكًا و هو يقول :

" أنت للمرة الأولى تراها فكيف توقعت أن تكون تعرفها ؟؟ "

نظر له شريف فوجده يضمّ شعره خلف رأسه قبل أن يرتدي قطعةً قماشيةً على رأسه لتحجم حركة شعره كي لا يزعجه مرةً أخرى , تأمل شريف ملامحه ... ملامح شخصٍ قوي , يعرف بداخله أنه قوي , شرسٌ و لكنه وسيم , ابتسامةٌ ساخرةٌ تجذب شفتيه للجانب الأيسر بشكلٍ جذّاب و أنفٌ معقوفٌ يبدو أنه كُسِر من قبل , يدان مليئتان بالجروح و رقبةٌ يبدو فيها جرح ذبح ... تأمل بهاء نظرات شريف و هو يقول :

" كريستين ... الفتاة التي أحببت "

نظر له شريف بلا ردٍ قبل أن يقول له بهاء :

" هل ستقف هكذا ممسكًا مسدسك بإحدى يديك و تقف تراقبنا كالتمثال ... فلتجلس "

جلس بهاء على الكرسي الذي كان يحوي الطفل الذي اختفى و وضع قدمًا فوق قدم و هو يدور بالكرسي دورةً كاملةً حول محورة و يشير لشريف أن يجلس أمامه ؛ تحرك شريف ثم نظر لكريستين التي لا تزال ترتسم على وجهها علامات الشر و هو يجلس أمام بهاء و يواجهه في تحدٍّ , تلاقت عيناهما في معركة أنهاها الإثنين بتعادل أرضيهما , نظر شريف للحائط خلف بهاء بينما حوّل بهاء نظراته لكريستين التي ابتسمت له في نعومة , تحدّث بهاء بصوتٍ واثق :

" كريستين ... فتاةٌ قابلتها في إحدى مهماتي مع عصابة الإتجار بالأعضاء البشرية التي كنت أعمل معها بالخارج "

اتّسعت عينا شريف بقوة , ابتسم بهاء و هو يقول له : " الصبر ... ستعرف كل شيء ... لن ترحل من هنا إلا و أنت تفهم الأمر "

هزّ شريف رأسه بتفهم و قد غلبه الفضول البوليسي فجلس بصمتٍ محاولًا السيطرة على لجام دهشته و ترويضها فابتسم بهاء و هو يتابع :

" لم أستطع أن أقتلها , أخذتها معي لمقرّ العصابة ... مخزنٌ قذرٌ بقبوٍ مليءٍ بالجثث ... عاشت معي لمدة أسبوعٍ حسب ما أتذكر قبل أن أقرر أن ملكتي أنظف من هذا الأمر بأكمله ؛ هل شعرت من قبل شعور أن تأتي بقطعةٍ من القطن الأبيض الناصع و تمرّ بها على سطحٍ مليءٍ بالغبار ؟ بالطبع ستتسخ ... الأمر هنا أنها قطعة قطنٍ بريئةٌ و قد عاشت وسط سطحٍ مليءٍ بالدماء ... هل تتخيل ؟؟ ... كان لابد من إبعادها عن الأمر... ملاكي لا يحتمل ... بعد مقتل أبيها ... كنت صديقها و أباها و رجلها و حبيبها ... و كانت أمي ! "

تابع بهاء حكايته :

" كان لابد لها من الرحيل فأعطيتها مبلغًا صغيرًا من المال كنت قد ادخرته ... أجّرت شقةً بحجة أن والدتها مريضة و ستأتي مع شقيقتها الكبرى , الأموال تُعمي قلوب البشر ... وافق الجشع على الأمر دون أي استفسارات ... عاشت بتلك الشقة و عِشت معها على فترات ... علمتها كيف تنجو وسط عواصف الحياة القاسية و علمتني كيف أدخل الجنة بدون أن أموت , علمتها النجاة و علمتني الحياة ... كانت ملاذي و كنت سكنها ... كبرنا سويًا ... حتى انتهى أمر العصابة هناك ... كنت أحتاجها هنا من أجل انتقامي ؛ بالمناسبة كل أوراق دخولي لمصر مزوّرةٌ بحرفية , يجب أن تنمو المنظومة الأمنية فهي أشبه بالطفل الذي يحبو و يتخطّاه من يريد أن يتخطّاه بلا مجهود ... وصلنا مصر سويًا ... منذ

لمست أقدامنا أرض القاهرة تركنا بعضنا ... كان يجب ألا نُرى سويًا ... و كان يجب أن نظل سويًا ... ساعدتني كثيرًا و لولاها ما تم الأمر "

نظرت له كريستين التي فهمت كلامه كله و هي تبتسم , وضع يده بجواره في شقٍ بين حشوة الكرسي و جسده قبل أن ينادي عليها بصوت حالم :

" كريستين ... حبيبتي "

نظرت له و عيناها تلتمعان بحبٍ جارف , رفع مسدسه في وجهها و أطلق منه رصاصةً كانت تعرف طريقها جيدًا , سقط جسدها ليرتطم بالأرض و بقعة الدماء حول رأسها تتسع و تصبغ شعرها الأشقر بلونٍ أحمرٍ قانٍ بينما جبهتها العريضة زيّنها ثقبٌ أحمر فرّت من جسدها الحياة خلاله قبل أن يبتسم و هو ينظر لها بحبٍ و يقول بلهجةٍ تحمل شوقًا جارفًا :

" آسف "

انتفض جسد شريف و هو يشهق بعنفٍ من المفاجأة قبل أن يتمالك أعصابه و هو ينظر لبهاء بدهشة :

" الدرس الأخير و الأهم يجب أن تتخلى عن كل شيءٍ أحببته ... تنسى كل حلمٍ حلمته ... ترمي بكل معارفك عرض الحائط ... يجب أن تعيش وحيدًا متفرّدًا ... تركل كل نقاط ضعفك و تسحقها تحت قدميك ... لا

يجب أن يكون لك ذراعٌ لكي يلويه أحدهم مهددًا إياك , تلك كانت كلمات قائدي الراحل "

هزّ شريف رأسه بتفهم , كان يرفض وجهة النظر تلك و لكنه يفهمها جيدًا , نظر له بهاء فجأةً و هو يقول بحماس :

" هل تريد أن تعرف قصتي ؟؟ "

سأله شريف بحرص :

" كاملةً ؟ "

" كاملةً "

على مدار ما يقرب من نصف ساعةٍ أو يزيد اندفع بهاء يقصّ بحماسٍ قصته كاملةً منذ خرج من القاهرة محمّلًا بحفاضةٍ متسخةٍ و شحنةٍ من الماس , مرورًا بلقائه بشادو ثم انضمامه للعصابة و تدربه معهم , حتى لقائه بكريستين ثم هروبها , لقاؤه بأندرو , لقاؤه بالرجل الآخر و عملية الخيانة , مقتل شادو , مقتل ماثيو , عملية تعذيب هنري و القائد ثم خروجه من تلك الدولة ليحضر هنا ... لمصر.

توقّف عن القصّ للحظةٍ و هو يسعل و يتأمل ملامح شريف المندهشة قبل أن يقول بتساؤل :

" قصة كفاح ؟ "

هزّ شريف رأسه موافقًا قبل أن تنقلب ملامح وجه بهاء مرةً أخرى و هو يقول :

" و وصلت مصر... هل تريد أن تفهم الآن قصة قضيتك بأكملها ؟؟ "

لم ينتظر ردّ شريف و انطلقت الكلمات تتدفق من بين شفتيه لتكوّن عالمًا خاصًا في خيال شريف الذي بدأ يتخيل الأمر بأكمله منذ بداية وصول بهاء لأرض مصر و بداية مهمته الدموية و كأنه يراقب الأمر و هو يحدث أمامه...

*****

فتح بهاء عينيه ليطالعه السقف الأبيض النظيف , كان ينام هكذا منذ خرج من الحمام و هو يربط المنشفة على وسطه , شعر بعينيه تدمعان ... مسح دموعه و وقف و هو يفكّ منشفته , تناول ملابسه و شرع في ارتدائها ببطء , انتهى من ارتداء ملابسه فوقف أمام المرآة يتأمل مظهره قبل أن يمشي إلى المنضدة ليتناول من عليها حقيبةً صغيرةً قد جهزها , أمسكها جيدًا في يده و فتح باب الشقة , نظر للشقة نظرةً أخيرةً قبل أن يُغلق الضوء و هو يبتسم , بعد مرور برهةٍ من الوقت كان يقف أمام بنايةٍ سكنيةٍ و هو ينظر في هاتفه يتأمل عنوانًا سجله من قَبل بواسطة استخدام تطبيق خرائط جوجل , أغلق هاتفه و وضعه في جيبه و صعد إلى الشقة ؛ بواسطة سكينٍ و بنسة شَعر استطاع فتح الباب بدون أي مجهودٍ يذكر ، بلا علاماتٍ

على جسد الباب و بلا أيّ صوتٍ أيضًا , دلف إلى الشقة و هو يضع حقيبته أرضًا و يتأمل الشقة بعينين بدأ شيطان الغضب يطلُّ منهما , حمل حقيبته و مشى بحرصٍ يتفحص الشقة حتى وجد ممرًا ضيقًا , من شكله استنتج بهاء أن هذا الباب يخص غرفة النوم , كان يعلم جيدًا أنهما نائمان الآن لذا فتح الباب بحرصٍ شديد , تأمّل الجسدين النائمين بعمق قبل أن يغلق الباب بصوتٍ عالٍ ؛ تقلّب الرجل في الفراش و لكنه لم يستيقظ بينما فتحت المرأة عينها ببطءٍ و تأملته للحظة قبل أن تتسع عيناها هلعًا و هو يشير لها أن تصمت تمامًا , هزّت رأسها بالموافقة و لكنها ركلت زوجها بقدمها من أسفل الغطاء فتقلّب حتى رآه ؛ اعتدل على فراشه و هو يقول بصوتٍ قويّ :

" من أنت و كيف دخلت هنا ؟؟ "

تجاهله بهاء و هو يتجه للمرآة التي تقع وحيدةً أمام الفراش , وضع حقيبته عليها و فتحها ببطءٍ بينما وقف الرجل و نفض غطائه عنه و هو يتحرك بغضبٍ حتى وصل خلف بهاء , لم يرى الأمر المنهمك به بهاء و لكنه رآه يتحرك ببطء فوقف خلفه و هو يسأله : " أنت !! ... ألم تسمعني ؟؟ "

التفت بهاء بقوةٍ و هو يمسك وجهه بيده و يحكِم قبضته على ذقنه و يمسك شفتيه و يضع فيهما خطافاً صغيراً اخترقهما بعنف فسالت دماؤه على الأرض , صرخت المرأة إلا أنه أسكتها بنظرةٍ ناريّةٍ منه قبل

أن يدفع بجسد الرجل المنهمك في محاولة خلع الخطاف و هو يتألم , اتّسعت عيناها رعبًا فبادرها بالكلام :

" هل تحبين أن تشاركيه ألمه ؟؟ "

هزّت رأسها نفيًا في فزع فقال بابتسامة ساخرة :

" جوابٌ صحيح "

وقف أمامهما فنظرا له , أغمض عينيه و هو يسألهما :

" هل تعرفاني ؟؟ "

انتهى الرجل من خلع الخطاف و صدر عنه صوت تألمٍ و هو يلقيه جانبًا و يتحسس شفتيه و يكاد يصرخ إلا أن نظرةً صارمةً أبلعته صراخه ففضّل الصمت , هزّت المرأة رأسها نفيًا فقال بصوتٍ خافتٍ يتلوى ألمًا :

" هل تعرفين أحدًا باسم بهاء ؟؟ "

اتّسعت عيناها في دهشةٍ لاحظها زوجها فتجاهل ألمه و هو ينظر لها باستنكار, نظر له بهاء بدهشةٍ و هو يقول :

" ألم تخبرك ؟؟ "

هزّ الرجل رأسه و هو يسأله بحرص :

" هل كان بينكما علاقةٌ لا أعرف عنها ؟؟ "

ابتسم بهاء في استنكارٍ و هو يسأله :

" و هل سمعت من قبل عن أمٍّ تجمعها علاقة مع ابنها ؟ "

"إبنها !! ... ميرفت هل هذا صحيح ؟؟

اغرورقت عيناها بالدموع و دفنت وجهها بين يديها و اهتزّ جسدها بقوة بينما تجاهل ألمه و هو ينظر له مرةً أخرى و الدهشة تتلاعب بمهارةٍ على أوتار روحه الممزّقة بين تصديق الواقع و رفض الذكرى التي تحاول جاهدةً الصعود , نظر لبهاء بدهشة , حنانٌ جارفٌ كان يصارع غضبًا أعمى داخل صدره , نظراته تتبدل سريعًا بين ابنٍ افتقده لمدة عشرين عامًا و زوجةٍ أخفت سراً كهذا عنه فيما أعطاه بهاء ظهره و هو يتناول خنجرًا حادًا من الحقيبة و يستدير بسرعةٍ و هو يطعنه على طول صدره بقوةٍ جعلت الدماء تتناثر لتغطي وجه بهاء و المرآه من خلفه , انتفض جسد الرجل و هو يراقب جرحه ينزّ الدماء ببطء , وضع يده عليه بينما عالجه بهاء بضربةٍ أخرى في رقبته من الخلف اندفعت الدماء منها كالنافورة لتمسّ السقف و تترك توقيعها عليه ؛ حاولت ميرفت أن تركض إلا أنه أوقفها بضربةٍ قويةٍ في كتفها الأيسر , سقطت أرضًا ليلتقط قدمها و يقطع عرقوبها بقوةٍ متجاهلًا صرخاتها , أمسك بها من قدمها و هو يستجمع قوّته و يرفعها بقوةٍ ليصدمها بالباب , اصطدم رأسها بالمقبض المعدني للباب فشجَّ رأسها و تناثرت دماؤه على

الباب , حاول هاشم أن يزحف ليمنعه إلا أنه ركله في وجهه , يبدو أن أنفه كُسِر لأنه أغرق وجهه بالدماء , انهمك بهاء في مهمته بلا كللٍ و لا ملل , تسرّبت الذكريات في خياله ممتزجةٍ بلون الدمّ ... نظر شريف له برعب كان يبدو أن ما لم يقله كان أشد فظاعةً و قُبحاً مما كان يرويه له , تجاهله بهاء مجددًا و أخذت الذكريات تتسرب من بين شفتيه ببرودٍ قاتلٍ مرةً أخرى و شريف يواصل التخيل .

أنهى الأمر و هو يتأمل جثتيهما المشوهتين و يتأمل الحوائط و السقف التي عكست مجهوده الواضح قبل أن يحرص على جمع أدواته ., لم يخشَ أمر البصمات لأنه شبحٌ بالنسبة للنظام الأمني المصري , فتح باب الغرفة قبل أن يتسمّر أمام طفلٍ يجلس مستندًا إلى الباب , زحف الطفل و حاول الوقوف قبل أن تصطدم عيناه بالمشهد الداخلي , لم يبدُ على وجهه أي شيءٍ إلا أن بهاء لاحظ أن الطفل ليس طبيعيًا , شيءٌ ما في نظراته و حركاته أوحى له بذلك , حاول حمله إلا أنه بكى و صاح , صرخ حتى وصلا للمطبخ ... وضعه بهاء على منضدة المطبخ و هو يقول:

" و ماذا بعد ؟؟ "

انهمك الطفل في تثبيت نظره على الحائط دون أيّ صوت ... تابع بهاء كلماته و قد بدأ شعورًا بالذنب يجتاح روحه :

" لماذا لم أعرف أنك هنا ؟؟ و ما الحل الآن ؟؟ ... أنت أخي و لكني لا أستطيع الاحتفاظ بك فورًا ... لو ظهرتُ الآن فستتجه أصابع الشك إليّ فورًا , يجب أن أختفي لفترةٍ و لكنني أعدك سأعوّضك عنهما ... سأكون ملاكك الحارس "

أثناء كلامه معه لاحظ بهاء أنه يسعى تجاه برطمانٍ زجاجيٍّ يحوي مربى فراولة منزليّ الصنع ففتح له الغطاء و قرّبه منه , مدّ الطفل يديه و هو يأكل منه قدر استطاعته , لوّث يديه و فمه و وجهه و ملابسه بالكامل , حمله بهاء فحاول الطفل أن يرمي جسده , لم يكن بهاء يحمله بقوة فكاد ينزلق منه , وضعه أرضًا و رآه و هو يركل العبوة الفارغة بقدمه فاندفعت تتحرك بعيدًا عنه , وضع الطفل يديه على أذنيه و أغلق فمه و عينيه و بدأ يهدر بعنف ... أغلق بهاء الأضواء و تركه و قبل أن يخرج من الغرفة غمغم بصوتٍ خافت : " سأعود " .

*****

انتهى بهاء فصمت للحظةٍ كي يرى تأثير كلماته على شريف الذي ظهرت عليه علامات التحمّس للحظةٍ قبل أن تزحف سحب الشك لتمطر عليه فيقول بصوت متشكك :

" و لكن لماذا تحكي لي ؟؟ ... لماذا تعترف بسرك لشخصٍ يُعتبر عدوّك ؟"

قهقه بهاء في عنفٍ حتى دمعت عيناه قبل أن يحاول التماسك و هو يقول ببرود :

" ببساطةٍ شديدة ... هذا المكان تذكرة خروجٍ لأحدنا ... إما أن أخرج أنا و تموت أنت و وقتها أكون وفيتك حقك و قصصت عليك الأمر فتموت مرتاح البال ... و إما أن تخرج أنت و أموت أنا و وقتها أكون وفيتني حقي و قصصت الأمر بأكمله لكي لا أظلم الصغير معي ! "

احتار شريف في أي الأمرين تصيبه الحيرة أولًا , في تعبيرات بهاء و أحاسيسه التي تتغير و تتبدل بسرعة البرق أم في الطفل الذي اختفى منذ حينٍ و لم يظهر و لم يسمع له صوتًا ؛ لاحظ بهاء حيرته فتوقعها فورًا فأجابه بذكاء دون أن ينتظر سؤاله :

" أخي نائم ... حُقن بمخدرٍ كي لا يفزع من أصوات الرصاص و الصراخ"

لاحظ شريف أنه تباطأ عندما نطق كلمة أخي و كأنه يذوق حلاوتها بين شفتيه , أخيرًا غلبه حماسه فتجاهل كل شيءٍ و سأل شريف :

" أتعلم أننا ذهبنا للمصحة و جلست أراقب غرفة أخيك ؟ "

" أعلم جيدًا ... لم يغب أخي عن عيني لحظة واحدة "

" إذًا أنت مدين لي بالتفسير ... كيف و لماذا اشتعلت تلك الأضواء و كيف عمل هذا المسجل فجأة و لماذا ترنّم بتلك الكلمات عن حكم الشيطان للأرض ؟ "

ابتسم بهاء في غموضٍ و هو يقول :

" ربما يكون الأمر من فعلي و ربما تكون رسالةً خفية ... ربما تكون صدفة , و لكن ما يدريك أنها صدفة "

غمز بعينه و هو يتابع كلماته :

" نصيحة ... لا تثق بكل ما ترى أو تسمع حتى لو رأيته بنفسك أو سمعته بنفسك "

لم يفهم شريف كلماته فصمت للحظةٍ قبل أن يقول :

" حسنًا ... الدائرة التي تكونت حوله فَسّروها و لو أنني بعد كلماتك بدأت أشكّ و الممرضة التي طعنها القلم فسّرتُها أنا ... إذًا جزء المصحة مفهومٌ تمامًا "

هز بهاء رأسه موافقًا و هو يقول :

" أتفق معك و لكن لا تنسى أغنية الشيطان "

مطّ شريف شفتيه في ضيقٍ قبل أن يعتدل و يقول :

" و الوصي الأول ... خالد حسبما أتذكر اسمه ؟؟ ... ماذا حدث معه ؟"

رجع بهاء بظهره للخلف حتى لامس الكرسيّ و هو يتأمل السقف و يقول :

" الوصي الأول "

اعتدل بجسده و هو يقول :

" أتعلم ؟؟ ... هذا الوغد لم يكن يصلح وصيًا ... هذا تاجر ... أتعلم أنه كان سيتاجر ببهيّ ! "

انعقد حاجبا شريف و هو يتساءل :

" كيف ؟؟ "

أغلق بهاء عينيه و هو يستمر في القصّ بهدوء :

" عندما استلمه خالد ذهب ليؤجر شقّةً في حيٍّ شعبيّ ... اتفق مع صاحب البناية ألا يؤجر لغيره طوال مدة سكنه و التي لن تتعدى الشهرين و أغراه بمبلغٍ ماليّ ضخم , بعدها بأيام ذهب شخصٌ ما لصاحب البناية و عرض عليه أن يؤجر الشقة التي تقبع في الدور السفلي من شقة خالد و أيضًا أغراه بالمال , صاحب البناية جشع ... أغراه الطمع خصوصًا أن هذا الشخص أقنعه بأنه مصورٌ في استوديو و ينهي وردية عمله في الصباح الباكر و ينام حتى الليل , أي أن خالد

لن يشعر به ... كأنك أسكنت شبحًا ... كلماتٌ سحريةٌ اقتحمت عقله الجشع فوافق ... و بناءً عليه قبعت مستكينًا حتى رحلا ... صعدت و اقتحمت الشقة ... وجدت بهيّ جائعًا فأطعمته و حرصت على ثقب جزءٍ من الأرضية أخفيته أسفل سجادةٍ صغيرة ... و منه استمعت لحديثهم بالكامل "

هزّ شريف رأسه بإعجاب قبل أن يقرر ألا يقاطعه , استكمل بهاء حديثه :

" عرفتُ منهما أنهما اتفقا مع رجل أعمالٍ أعتقد أنه يدعى منير الصاوي ... كانوا سيزوّرون مجموعةً من الأوراق في مقابل مليونين و نصف ... العقار الذي ورثه بهيّ عن والده "

صمت لحظة قبل أن يقول :

" عن والدي ... كانوا يغيبون عن المنزل لساعاتٍ طويلةٍ أطمئن فيها على بهيّ ... عرفت منهما كافة اتفاقاتهما مع منير هذا ... أو أعتقد أنه كان مهيب ؟؟ "

هزّ شريف رأسه بالموافقة دون أن ينبس ببنت شفة , لم يكن يريد أن يقطع استرسال الأفكار, سمع بهاء يستكمل مرةً أخرى :

" في ليلة ما عرفت أنهما يشكان أن بهيّ ممسوس أو مستحوذٌ عليه من قبل شيطان ... فقررت هنا أن تبدأ اللعبة "

اعتدل شريف و هو يسأل بفضول : " أيّ لعبة ؟ "

" أن يُثبت الجميع هل بهيّ مريض بالتوحد كما عرفت وقتها أم أنه مستحوذ عليه ؟؟ "

" أنت تعرف الإجابة ؟؟ "

" لا يعرفها غيري و سيموت هذا السر معي "

كانت كلماته تخرج من بين شفتيه مصحوبةً بلمعةٍ غريبةٍ في عينيه و ابتسامة خبثٍ تزدهر في وجهه , سيطر القلق على شريف فأشار له أن يستمر , صمت بهاء للحظةٍ لم تفارقه فيها الابتسامة الشريرة قبل أن يتحدث :

" قررت أن ألعب معهما بقذارة , هل تعرف الأمر بسيط ... عندما يكون المرء مقتنعًا بشيءٍ ما و يخشى تصديقه فإن أي شيءٍ منطقيٍ سيحدث سيفَسَّرُ أنه من صنع هذا الشيء "

هزّ شريف رأسه :

" لم أفهم شيئًا "

" ببساطة ... كان الإثنان يصدّقان أن الأمر به شيطان و أن بهيّ ليس طبيعيًا على الإطلاق ... لذلك رأوا نارًا من الشقة ففهموا فورًا أن

الشيطان كان هنا و عندما صعدا و لم يجدا النار توقعا أنها حالة احتراقٍ ذاتي "

للمرة الثانية غمز لشريف الذي صُعق , هل يعلم بهاء أنه قدم تقريرًا للعقيد كامل بهذا الأمر أم أنه يتلاعب بعقله ؟ قرر الصمت حتى يكتشف الأمر...

" الأمر كله كان عبارةً عن قطعة قماشٍ مبلّلةً بقليل من الكيروسين ... أشعلتُها و حافظت على نارها حتى سمعتُ صوت خطواتهما يصعدان السلم , أطفأتها على عجلٍ و أخذت بقاياها معي و أسرعت لشقتي و قد كانا من الغباء بدرجةٍ كافيةٍ لكي لا يرياني أو يشكّا في تلك الشقة فصدقا أن الأمر خارقٌ للمألوف , سمعتهما يتفقان على إنهاء الأمر... فقررت إنهائه بطريقتي , في المساء صعدت للشقة ... ذبحت خالد بهدوء و حرصتُ على تجفيف دمائه ... لو تكرر الأمر و لاحظ الجميع اتّساخ الحوائط و الأرضيات بالدماء بالتأكيد كانت ستتغير طريقة التفكير لدي الجميع و بعدها قررت أن أحرق الشقة بأكملها و لكن ذلك المحامي الغبي أفلت مني ... بالطبع أنت تعرف جيدًا البقية فأنت من وجد الطفل أمام المصحة "

" بدأت الأمور تتضح و إن كان هناك القليل من الشكّ يراودني ! "

" عندما تلد زوجتك من فضلك اهتم بابنك "

" كيف عرفت أن زوجتي حبلى ؟؟ "

" لا تسأل سؤالًا لا ترغب في سماع إجابته "

تبدلت ملامح شريف للقلق للحظةٍ قبل أن يقرر أن يسدل غطاءً من الارتياح على ملامحه علّه يخفيها عن عيني بهاء الذي ينتظر قراءة ردود فعله ليفسرها , بدأ شريف يتعلم كيف يلعب تلك اللعبة الذهنية فقال بصوتٍ قوي :

" و ذهب أخوك للوصيّ الثاني "

عاد بهاء للخلف مرةً أخرى قبل أن يعتدل و هو يقول :

" الوصي الثاني ... حسنًا ... هذا الوصي أمره سهل ... أسرةٌ مصريةٌ تقليديةٌ لا تهتم بالنظم الأمنية بشكلٍ كافٍ ... منذ البداية كانت تلك الأسرة متأكدةً تمام التأكد أن الطفل ليس طبيعيًا ... أن هناك أمراً غامضاً يسيطر عليه ... تلك كانت أسهل مهماتي على الإطلاق ... كانوا يسكنون في دورٍ عالٍ ... فتحت الباب من الأسفل و أنا متشحٌ بالسواد ... أرتدي معطفًا أسود طويلاً و على وجهي يقبع قناعٌ أسودٌ جامد الملامح بهدوء يمارس مهمته في إخفاء ملامحي الطبيعية , قبل أن أصعد للشقة فتحت النافذة التي تطل على الشارع و تركتها مفتوحة , صعدتُ للشقة و حرصت على إطعام بهيّ جيدًا , و فوجئت بصغيرهم يراني , أجاب شريف :

" و لكن ما يحيرني هو كيف اختفيت ... لقد أخبروني أن الطيف اختفى "

" بالطبع فكل طارئٍ مدروس و كل مفاجأةٍ محسوبة , خرجتٌ من الشّقة و هبطت حتى وصلت للنافذة ... خرجتُ منها و علّقت جسدي أسفلها و أنا أتمسك في حافتها بأصابعي , لم أنسَ بالطبع أن أغلق النافذة من خلفي ... بالطبع هبط خلفي رب الأسرة ليجد السلم خالياً و الباب مغلقاً جيدًا ... فأين ذهب الشبح ... اختفى !! ... صعد لشقته مرةً أخرى و أخذ يصيح بأسرته فصعدتٌ و أغلقت النافذة من خلفي و هبطتٌ لأفتح الباب و أذوب في الظلام و بالطبع وجدتَه أنت في المصحة ليتخلى عن بهيّ ... في الحقيقة استمتعتُ كثيرًا بدور القائد ... كل ما خطلته بحروفٍ من خيالٍ في ذهني يُنفذ بحذافيره على أرض الواقع "

أجابه شريف بصوتٍ خافت :

" لعبةٌ بسيطة "

" ليست البساطة دائمًا أمراً سهلاً ... أحيانًا تكون في غاية الصعوبة "

" أتفق معك ... الآن سنية ... الوصي الثالث "

" سنية كانت كالكابوس بالنسبة لي ... أصعب مهماتي و أكثر خططي عبقرية "

" سنية كانت الحلقة الأضعف في سلسلة الأوصياء "

" و هذا ما جعلها الأخطر ... كانت تتصرف بفطرتها "

" و كيف يجعلها هذا الأخطر"

" سنية كانت تقرأ ... و القراءة هي شعاع ضوءٍ في وسط ظلام هذا العالم المظلم ... عرفَت الكثير من المعلومات و قرأت العديد من الوصفات و طرُق العلاج و بدأت تطبّقها و بالتالي بدأت حالته تتحسن ... بدأ بالفعل يخرج من دائرته المغلقة ... بدأ يخرج من عالمه الموحش و يضم أناس آخرين يشاركونه وحدته و إن كان لم يتحسن بالشكل الكافي ... وقتها شعرت بالخوف ... سيتحسّن و بالتالي ستنكشف كل الأمور ... مجرد طفلٍ صغيرٍ ذاتّوي ... إذًا هناك من يعبث بعقول الجميع مستترًا تحت ستار مرضه ... و بالتالي كان لابد من استلام وصاية بهيّ و لكني سألت و عرفت أن من حقها أن تقدم طلبًا للإدارة العامة تطلب منهم عرضه على المصحة لتحديد مدى تقدمه و تحسن حالته و بالتالي لن أتسلمه حتى لو كنت أنا قريبه من الدرجة الأولى و هي من الدرجة الثالثة ... سيؤجّل استلامي له لفترةٍ ريثما يتم تحسنه بشكل كامل ... هذا الوقت و مع ظهوري كنت بالطبع ستكتشف وجودي و غموضي ... تلك المنطقة السوداء الموجودة في حياتي كان لابد لها من تفسير و كثرة الأسئلة شيءٌ مزعج ... لذا كان لابد من التخلص منها بطريقةٍ تمنعها من طلب الوصاية ... كان الخيارات أمامي متنوعة ... الجرائم المخلة بالآداب ، الجرائم الماسة بالشرف أو النزاهة

، سوء السيرة ، عدم وجود وسيلة مشروعة للتعيش ، وجود نزاع قضائي بينها و بين الأهل أو أن تكون من طائفةٍ أو ديانةٍ أخرى "

صمت بهاء للحظةٍ و هو يبتسم في خبثٍ و يقول لشريف بسخرية :

" هل تمد لي يد العون هنا ... من فضلك ؟ "

أجابه شريف إجابةً مقتضبة :

" لا شيء منهم ينطبق عليها "

" فلندرس الخيارات ببطء "

صمت شريف و تأمله و كأنما يحاول سبر أغواره للحظةٍ و هو يقول :

" بالطبع الديانة و النزاع القضائي أمورٌ مستبعدةٌ لأن لا وسيلة للعبث بهما "

أمسك بهاء بطرف الخيط و هو يستكمل تسلسل الأفكار :

" و بالطبع هي تملك وسيلة للتعيش من عملها "

أجابه شريف في سرعة :

" سيرتها حسنةٌ و مشهودٌ لها بالنزاهة و الشرف "

" أحسنت ... هذا وضع أمامي خيارًا واحدًا ... فتاةٌ شابةٌ و حسنة المظهر ... جسدها نديٌّ فارع ... بالطبع كانت القضية ملفّقة و أنت

بالتأكيد تعلم ... خَطفُ الطفل و وضعه بداخل تلك الشقة بدون أن يراني أحد مع الحرص على وجود وسيلة اتصال بين الإثنتين ... الاتفاق مع مخبرٍ من مخبري الأمن على الإبلاغ عن ذلك البيت في هذا الوقت تحديدًا و لو أن الأمر كله كان سيفسد لو أن الضابط تأخر لمدة دقائق ... حمدًا لله تم الأمر في اللحظات الأخيرة "

بدت علامات الفهم على وجه شريف و هو يسترجع كلمات سنية و موقفها قبل أن يقول بصوتٍ خافت :

" الآن فهمت كل شيء ... إذًا بهيّ لا علاقة له بالأمر ... مجرد طفلٍ متوحد "

اتّسعت ابتسامة بهاء على وجهه و هو يقول :

" أتظن هذا ؟؟ ... ألم تفكر لماذا قرّرت العودة للوطن في مثل هذا التوقيت بالذات ! ... ألم تسأل نفسك لماذا لم أقتله؟ ... ألم تتساءل بنفسك عن الأحداث التي حدثت في المصحة ... هل هناك تفسيرٌ مقنعٌ ليكون هناك شخصٌ في مصحةٍ نفسيةٍ يستمع لأغنيةٍ عن حكم الشيطان للأرض ؟؟ ... هل من الطبيعيّ أن تُطعن تلك الممرضة فجأةً و بدون مقدمات ؟؟ ... هل فكرت في العطل الكهربائي الذي يسبب إضاءة نصف المكان فجأة ؟؟ "

بدت الحيرة على وجه شريف و هو يسأله :

" ألم تقل أنها صدف ؟؟ "

" و لماذا تثق بي ؟ "

صمت شريف و هو يشعر بالحيرة , لم تكن أيٌّ من كلماته قادرةً على تفسير الأمر أو محاولات تبريره , قرر أن أقصر الطرق هو الخط المستقيم فقرر أن يلجأ للهجوم المباشر:

" هل بهيّ ذاتّويٌ طبيعيٌ أم أنه مستحوذٌ عليه من قِبَل شيءٍ ما ؟ "

" قلت لك من قبل ... حتى لو أجبتك ... هل ستثق في إجابتي ؟؟ "

" حتى إن لم أثق ... أريد أن أسمعها منك "

" حان وقت إنهاء اللعبة "

أنهى كلماته و هو يتحرك سريعًا ليطفئ كل تلك الشموع , راقبه شريف و هو يفهم كيف كان الصوت يأتي من أنحاء الغرفة المختلفة , كان يتحرك بسرعةٍ و رشاقة , أفاق من دهشته مع الظلام ... تحكّم الظلام مرةً أخرى في الوضع بأكمله , ساد الصمت و ساد الظلام , بدأ صوت بهاء يعلو بحرصٍ شديد , يبدو أنه يتحدث عبر نظامٍ صوتيٍ ما يُشعِر شريف أن الصوت يأتي من كل مكان , بدأ يشعر بالدوار , بدأ يرى خيالاتٍ و ظلالاً تعدو وسط الظلام , شعر أن لون الخيالات المائل إلى الحمرة يخترق الظلام قبل أن يغوص بداخله , يبدو أن بهاء يضع شيئاً ما في الهواء , من الممكن أن يكون بهاء تسلّل له في الظلام و رشّ أمامه أحد المخدرات أو المهدئات , لا يبدو الأمر طبيعيًا على الإطلاق , بدأ يرى

شخصًا ما يتحرك في الظلام , يظهر هنا و يختفي هناك , صوت قهقهاتٍ شريرةٍ يظهر وسط كلمات بهاء التي لا يستطيع أن يسمعها ؛ بدأ يستجمع شتات تركيزه إلا أن الأمر كان أقوى منه , وضع يده في جيب معطفه ليتناول الخزنة الاحتياطية , تحسسها بيديه ليجد أنها لا تحمل سوى وليدين ... يجب أن يُحسِن استخدامهما , سمع صوت التكة التي تخبره أنها نامت بأمانٍ في المكان المخصّص لها في المسدس , لم يعد يستطيع التوقف على قدميه , هبط على ركبتيه و هو يشعر أن المكان يدور من حوله بشدة , أغلق عينيه و هو يتخيل الأمر منذ قام من مكانه , تتبع حركاته في خياله قبل أن يصمت للحظةٍ استدعى فيها التركيز ليركع تحت قدميه , حدّد هدفه و فتح عينيه و هو يدور بجسده على الأرض بسرعةٍ و يطلق أولى رصاصاته , أصابت هدفها بقوة ... أصابت جهاز التلفاز بقوةٍ في بطنه فتولّد منه انفجارٌ كهربائيٌّ مصحوبًا بشرارةٍ ناريةٍ استغرقت لحظةً حدد فيها شريف هدفه و أطلق ثاني رصاصاته قبل أن يترك جسده يلقى على الأرض , شعر بالأرضية الباردة تحتضن وجهه و هو يسمع صوت شيءٍ ثقيلٍ يسقط أرضًا و هو يستسلم و يغمض عينيه و لا يعرف هل سيفتحهما مرةً أخرى أم أن الأمر انتهى .

*****

فتح شريف عينيه في تثاقل , لوهلةٍ اعتقد أنه فقد حاسة الإبصار , إلا أن الذكريات بدأت تتدافع لتلِج إلى عقله من باب الوعي الضيق , أغلق

عينيه للحظةٍ و هو يستجمع أعصابه و يبدأ في التركيز , لم يدرِ كم من الوقت مرّ إلا أنه لاحظ أن هناك ضوءٌ يدخل إليه من بين ثنيات النافذة , يبدو أن الصباح قد حضر و الشمس قد حكمت , استند بيديه على الأرض و هو يقف , شعر بالدوار إلا أنه كان أقوى منه ... لم يترنح , وقف و ذهب حيث يتسلل الضوء و فتح النافذة ليسمح للضوء أن يدلف إلى الغرفة , أنارها بأكملها و كأنه فرحٌ بدخوله ؛ ألقى بجسده على الأريكة التي جلس عليها معظم الليل و هو يتابع الغرفة بعينيه ... التلفاز يقع أرضًا و هو مكسور ... العديد من الزجاج متناثرٌ أرضًا , نظر للسقف فوجد العديد من المصابيح المهشّمة , على المنضدة أمامه يقف جهازٌ تفحّصه بين يديه بعد أن عرف ماهيته ... إنه جهازٌ للتحكم في الإضاءة , يبدو أنه كان المستخدم لتدمير المصابيح و للضوء الأحمر, بجوار الحائط تسقط جثة بهاء و قد زُيّن وجهه بثقبٍ أهداه له شريف و برَع في رسمه برصاصةٍ انطلقت من بين شفتي مسدسه , و بجواره كانت تقبع زجاجة مخدّر , فهم منها شريف سبب الخيالات التي هاجمته ؛ أغلق عينيه و هو يتخيل لو كانت رصاصته الأخيرة أخطأت هدفها , فتح عينيه و هو يتحرك ببطءٍ ليقف بجوار جثة بهاء ثم يبصق عليها , نظر لجثة كريستين باشمئزاز, أخرج هاتفه المحمول من جيبه إلا أنه وجده ميتًا , نظر لجثة عمرو بحزن , حاول منع عينيه من النزيف حزنًا عليه و هو يتفحص الشقة , دلَف إلى حجراتها حتى وجد ضالته , بهيّ ينام و كأن شيئًا لم يحدث , حمله بحنانٍ و هو يحتضنه قبل أن يتذكر كلمات بهاء فيبعده كالملسوع و هو

يتأمل ابتسامةً ارتسمت على شفتيه , خرج للصالة و فتح الباب قبل أن يضع الطفل على المنضدة و هو يقول :

" لا تتحرك من هنا "

حمل جثة عمرو و هو يغالب حزنه و هبط ليضعها في السيارة , أحكم وضعه على المقعد الخلفي وكأنه مازال حيًا , صعد مرةً أخرى ليغلق باب الشقة و هو يحمل الطفل ليضعه بجواره على كرسي سيارته و يلقي نظرةً أخيرةً على البناية في مرآة السيارة , طالعته النافذة التي فتحها بتحدٍ وكأنها تذكّره أنها لن تنسى دوره .

*****

دلف شريف إلى مكتب العقيد كامل الذي انتفض حين رآه , زمجر العقيد بقوةٍ و هو يصرخ في غضب :

" كيف حدث هذا ؟؟ ... لم تتركا لنا العنوان و تركتمانا طوال الليل ليأكلنا القلق ... الوزارة بأكملها تتابع الأمر ... أين عمرو ؟؟ "

وضع الطفل أمامه على المكتب و هو يخلع جراب مسدسه عن صدره و يضعه بجواره , تحدث بصوت يقتله الإرهاق :

" الطفل هنا ... القانوني أن يتم تسليمه للمصحة و منها لسنية مرةً أخرى ... هي أصلح الأشخاص لتحمل تلك المسؤولية ، عمرو في الخارج للأسف لم أستطع حمايته و قُتل بسببي "

غلبته دموعه عند تلك النقطة فجلس و هو يخفي وجهه في كفيه و يبكي كما لم يبكي من قبل , كان يُخرج ضغطه النفسيّ و العصبيّ و توتره , تمالك نفسه و هو يقول للعقيد كامل :

" أحتاج لأجازة "

" ليس قبل أن تقصّ عليّ ما حدث بالكامل "

قصّ عليه الأمر بأكمله , لم ينسَ تفصيلةً واحدة , كان شديد الحرص على قصِّ الأمر كما حدث , لم يُخفِ شيئًا : أنهى كلماته و تطلّع لوجه مديره الشاحب و هو يستدعي الجندي المسؤول عن حراسة مكتبه و يأمره أن يذهب ليخبر القوة أن تستعد و أعطاه العنوان الذي سيتجهون إليه بينما طلب من شريف أن يصطحبه للمشفى .

أنهى شريف الفحوصات الطبية اللازمة و خرج من باب المشفى و هو يشعر بالدوار , كان في حاجةٍ ماسّةٍ للراحة , اقترب من الباب فلاحظ دخول المسعفين يحملون جسدين مغطيين , أوقفهم بحرصٍ و كشف عن وجهما , نظر ببرود لجثتي بهاء و كريستين قبل أن يتبادل مع

العقيد كامل نظرةً لا معنى لها , ربّت العقيد كامل على كتفه بهدوء و هو يقول بصوتٍ حنون :

" فلتذهب لبيتك ... انتهى الأمر ... أجازتك ساريةٌ و مفتوحة ... عندما تشعر أنك مستعدٌ عُد لاستلام وظيفتك ... سنفتقدك "

ابتسم شريف في إرهاقٍ و هو يرحل قبل أن يسمع صوت العقيد يناديه فتوقف و نظر له . أتاه صوت العقيد مصحوبًا بابتسامة :

" لا تنسَ زيارة طبيبٍ نفسيّ "

هزّ رأسه بالموافقة و هو يعلم بداخله أنه في أمَسّ الحاجة للخضوع لجلسات تأهيلٍ نفسيّ , ذهب لمنزله لكي يَطمئِنّ على زوجته , كان شهرها الأول من الحمل و يجب عليه أن يرعاها ... جيدًا .

*****

أنهى شريف كلماته و هو يبتسم للطبيبة التي تألقت اليوم و في آخر جلساتهما بفستانٍ أخضرٍ رقيق , مدّت يدها إلى شعرها المنساب على كتفها و هي تقول :

" و الآن أنت هنا و في آخر جلساتك "

قال بصوتٍ واثق :

" والآن أنا هنا وفي آخر جلساتي "

" لا أعتقد أن هاجس الاستحواذ ما زال يطاردك !! "

قالتها وهي تقوم من مجلسها لتسير في دلالٍ لم يعرف هل هو طبعها أم أنه شيءُ خاص , وصلت للمكتبة وهي تنتقي كتابًا منها وتعطيه إياه : تأمله وهو يقرأ العنوان ببطء :

الذاتويـــــة

" إعاقة التوحد لدى الأطفال "

إعداد الدكتور / عبد الفتاح سيد سليمان

كلية التربية – جامعة عين شمس

نظر لها قبل أن تقول بصوتٍ هادئ :

" بين درفتي هذا الكتاب ستجد ضالتك ... تفسيرٌ مقنعٌ لكل ما تخشاه ... عندما تنتهي من قراءته أنا متأكدةٌ أنك ستقتنع "

لم يعرف لمَ شعر بين كلماتها بنبرة عدم ارتياح , كل ما قصّه عليها وفي النهاية تقدّم له كتابًا !!

قرر أن يبتلع غضبه وهو يقول بصوتٍ منخفض :

" زوجتي تلِد ... تركت المنزل بالأمس و سيخبرونني عندما تلِد "

ظهرت بوادر الفرحة على وجهها و هي تجلس على مقعدها :

" مباركٌ لك ... بإذن الله ستُرزق بالذرية الصالحة لأنك رجلٌ صالح "

ابتسم في قوةٍ و هو يحمل الكتاب ليضعه أمامها في صمتٍ و يقول :

" حسنًا لو أن الأمر سيُفسَّر بين درفتي كتاب ... اعتبريني اقتنعت دون بذل أي مجهود "

ابتسمت و هي تقول له :

" عن اقتناع ؟ "

" عن اقتناع "

" في رعاية الله "

مدّت يدها لتصافحه فصافحها في حماس , قرر أن يخرج من عندها ليذهب فورًا في زيارةٍ قصيرةٍ للعقيد كامل ليستعيد وظيفته بعد أن استقر نفسيًا على أمرٍ ما .

*****

خرج شريف من باب القسم و هو يبتسم , شعر أن جزءًا منه كان مفقوداً و عاد مرةً أخرى , تحسس مسدسه في فخر, وقف أمام الباب و هو يُخرج هاتفه من جيبه , بحث لوهلةٍ حتى وجد ضالته , اتصل بالرقم و انتظر قليلًا حتى أتاه صوتٌ كان ينتظره , صوتٌ أنثوي دافئ :

" سيد شريف "

" سنية ... كيف حالك "

" بخير ... منذ زمن لم تتصل "

" كنت في رحلة تأهيلٍ نفسيٍّ طويلة ... بهي ... ما أخباره ؟ "

" بهيّ ... بهيّ "

بدا أن فرحتها تغاليها حتى لتختنق الكلمات في حلقها من شدة الفرحة , صمتت للحظةٍ قبل أن تقول بصوتٍ يُشرِق فرحًا : " بهيّ يتحسن بشدّة ... هل تصدق أنه نظر لي اليوم ... لم تتعدَ الثواني و لكنه تحسنٌ مبهر "

" بهي يتحسن إذًا ؟؟ "

" بسرعةٍ خارقة "

"أتمّ الله شفاه على خير"

أغلق الهاتف قبل أن يعلو صوت رنينه مرةً أخرى , أجابه قبل أن تبدو علامات التوتر على وجهه :

" متى ... أين ؟؟ ... و كيف حالها !! "

لم تمرَ سوى دقائق و كان على باب المشفى , دخل بسرعةٍ و سأل عن المكان الذي يبغيه في الاستقبال , بخطواتٍ تسابق الزمن صعد درجات السُلّم فلم يُطِق صبرًا أن ينتظر المصعد حتى يتم رحلته , وصَل للدور المطلوب قبل أن يقف على السلم بتوتر , العرق المالح يلسع عينيه , هناك شيءٌ خاطئ , فتح فمه في فزع ... هناك سحابةٌ من الكآبة تهاجم هذا المكان , برقٌ من الآلام و رعدٌ من الأحزان و أمطارٌ من القهر تسيطر على هذا الدور , رأى أخت زوجته تبكي في قهر . أمها تكاد تحتضر حزنًا , وجوه الأطباء و الممرضات مكفهرةٌ سوادًا , شعر بقلبه يكاد يتوقف : في خطواتٍ بطيئةٍ يقتلها التوتر اتجه إلى أختها , وضع يده على كتفها فرفعت وجهًا ينزف حزنًا , تأملته في حزنٍ و هي تقول :

" لقد أدت أمانتها بينما استرد الله أمانته "

لم يصدّق ... ذهب بسرعةٍ ليعترض طريقه أحدُ الأطباء الذي نظر للأرض و هو يقول :

" لقد فعلنا كل ما استطعنا عليه ... إدعُ لها "

جرى إلى الغرفة فاعترضه زوجٌ من الممرضات و أمسكنه بقوةٍ و هو يصرخ ... لا يريد أن يصدق ... وضعت حماتُه يدها على كتفه فهدأ , نظر لها و عيناهما تحملان العديد من الكلمات , بادرته بصوتٍ حزين :

" إذهب إلى ابنك ... فأنت تحتاجه قدر احتياجه لك "

تذكر شريف كلمات سنية عن تحسن بهيّ و المرارة تتصاعد في حلقه , دلَف إلى الغرفة و هو يطرد الممرضة منها بغضب , خرجت بسرعةٍ فأغلق الباب من خلفها بالمفتاح , حمل رضيعه بهدوءٍ و هو ينظر في عينيه و يحدّثه :

" لن أجازف مرةً أخرى , أعلم جيدًا أننا لن نحيا حياةً سويّة ... سأظل دائمًا مقتنعًا أنه بداخلك ... بذرة الشر و الشك تنمو بداخلي ... لا يوجد سوى حلٍ واحد "

أخرج مسدسه بهدوء و هو يبكي , تساقطت دموعه على وجه الرضيع الذي نظر له ببراءة , دوى صوت رصاصةٍ من داخل الغرفة فساد الصمت و تحجرت الدموع , تجمّد الجميع و انقبضت القلوب كلها و هي تتساءل أيهما رحل و أيهما ظلّ هنا .

تمت بحمد الله

شكر خاص

شكرٌ لكلِّ من دعمني معنويًا و أصرّ على دفعي لكي أحقق حلمي

إسلام محمد	أحمد عبد الله
إيمان الصاوي	محمد على علي
أميرة أيمن	أحمد فكري دخان
رجاء مجدي	أشرف ثابت إسماعيل
أسامة الحديدي	دينا نسريني
شذى محمود	رانا أشرف
أماني إبراهيم	آية الله عنتر
عبد الله سطوحي	ياسمين حسن
أحمد إسماعيل	سالي يونس
يوسف أحمد	ايهاب نبوي

شكرٌ خاصٌ لأساتذتي و أصدقائي

أ / عمرو المنوفي

حسين السيد

عمر عودة

عتـــاب

عتابٌ للموت الذي يسرق منا أعزّ ما نملك من أحبابٍ في هذه الدنيا

روح البراءة ...يوسف سامح فايز

روح الأبوّة ... أ / سامح شمس الدين

روح الصداقة ... محمد مختار العدوي

روح الطيبة ... جدي / إعتراف عبد الجواد

روح التواضع ... أ / خالد صالح

روح الضحكة ... أ / يوسف عيد

روح أي شخصٍ عزيزٍ على القارئ

الله يرحمكم ... مشيتوا و سبتونا هنا.

الكاتب في سطور

محمد عصمت عبد الحميد ... روائي شاب من مواليد دمياط 1988... شارك من قبل في الكتاب المجمع شيزوفرينيا الحب ... شارك في كتاب (الثائرون) العدد الثالث من اصدارات جمعية ادب الخيال العلمي ... شارك في كتاب (المنتصرون)العدد الرابع من اصدارات جمعية ادب الخيال العلمي ... حصل علي المركز الثاني في المسابقة الأولي لجمعية أدب الخيال العلمي عن قصة (الختيار الخاطئ)

صدرت له

رواية (الممسوس) في معرض الكتاب 2014

رواية (التعويذة الخاطئة) 2014

للتواصل مع الكاتب

https://www.facebook.com/mohammedesmaat



Noon_publishing@yahoo.com

ت-02-35860372 011-27772007

هناك جريمة قتل بشعة ... و هناك متهم واحد ... المشكلة كلها أنه طفل لا يتعدي الثلاث سنوات !!!

كل الأدلة تشير إليه و كل المستجدات تعزز إتهامه ... المزيد من جرائم القتل تلاحقه !!

تصرفات غير طبيعية تحيط به ... أفعال ليست من أعمال البشر ... صرخات غريبة و حركات أغرب !!!

محقق شرطة بارع يحاول جاهدًا أن يتخطي حدود اللا معقول و يحاول أن يرسو بسفينة أدلته علي شواطئ الواقعية إلا أن الأمر كان أقوي منه !

هذه الجرائم ليست من صنع البشر !

هذه الأحداث ليست منطقية !

و هذا الطفل ليس طفلًا طبيعيًا ... أبدًا

تصميم الغلاف : أسامة علام



ISBN 9789776436831
9 789776 436831

